

خليل السواحري

الأعمال الإبداعية الكاملة



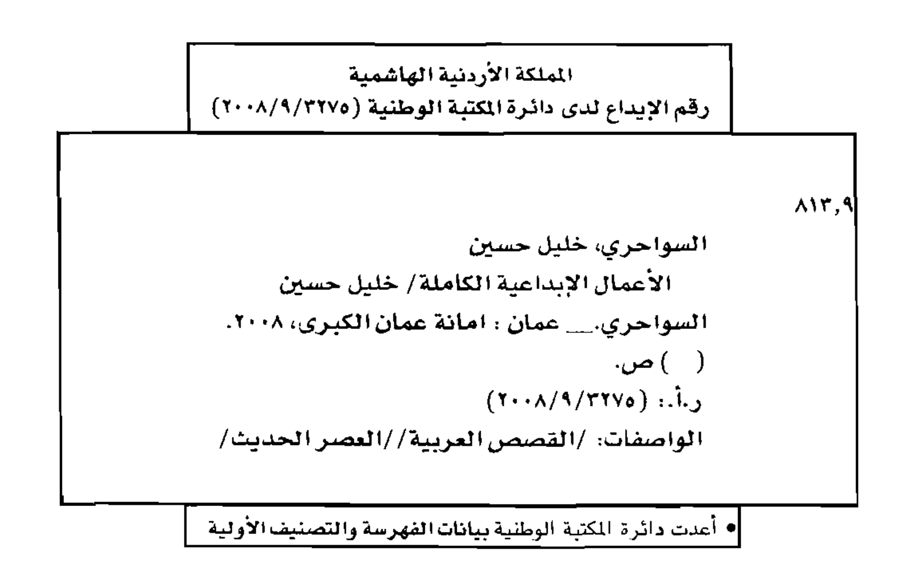
خليل السواحري

الأعمال الإبداعية الكاملة

المقدمة: د. خليل الشيخ

المراجعة: د. إبراهيم خليل

• **الأعمال الإبداعية الكاملة**
• **خليل حسين السواحري**
• الطبعة الأولى ٢٠٠٨
• الناشر: أمانة عمان
عمان - الأردن
أمانة عمان الكبرى
الدائرة الثقافية - شارع الأمير محمد
ص. ب ١٣٢ - عمان
تلفاكس: ٤٦٢٤٧٤٩
www.amanaculture.jo
• الطباعة: مطبعة السفير هاتف: ٤٦٥٧٠١٥


المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (٢٠٠٨/٩/٣٢٧٥)

٨١٣,٩
السواحري، خليل حسين
الأعمال الإبداعية الكاملة/ خليل حسين السواحري.__ عمان : امانة عمان الكبرى، ٢٠٠٨.
( ) ص.
ر.أ.: (٢٠٠٨/٩/٣٢٧٥)
الواصفات: /القصص العربية//العصر الحديث/

• أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية

الأعمال الإبداعية الكاملة

خليل السواحري



تضم هذه الأعمـال الكتب الآتيـة:

- تحولات سلمان التايه ومكابداته
- زائر المساء
- مطر آخر الليل
- مقهى الباشورة
- للحزن ذاكرة وللياسمين





مقـدمـة

تجربة خليل السواحري القصصية
حارس الحزن والحنين

الدكتور: خليل الشيخ

ولد خليل السواحري ـ رحمه الله ـ كاتباً وقاصاً في رحاب مجلة "الأفق الجديد" التي كانت تصدر عن دار المنار للصحافة، وتولى أمر تحريرها يومذالك أحد نشطاء المثقفين وهو الشاعر أمين شنار، عليه رحمة الله. شكلت "الأفق الجديد" بداية جديدة للحركة الأدبية في ضفتي الأردن. ولعل من يتصفح المجلة، التي أحسنت، اللجنة الوطنية العليا لإعلان عمان عاصمة للثقافة العربية عام 2002، صنعاً عندما أعادت إصدارها، يلحظ ما كانت تتمتع به من حيوية غامرة، ورحابة صدر للأفكار المتباينة، وقدرة على اكتشاف الأصوات الجديدة، وجدّية في تناول الموضوعات.

كانت "الأفق الجديد" مناخاً ثقافياً يتحلى بسعة الأفق والتسامح الواسع، وقد كان من المؤسف أن يتوقف ذلك المشروع الثقافي الرفيع، دون أن يخلفه مشروع ثقافي مماثل، يمتلك الروح ذاتها والرؤية الإبداعية، الحركية الطموحة.

اتجه خليل السواحري في بداياته الى النقد الأدبي، فكان يتناول ما ينشر في المجلة من قصص وقصائد ودراسات بالتحليل والنقد. ونشر،

فضلاً عن تلك المتابعات، مجموعة من المقالات التي تتابع مستجدات الإبداع في العالم العربي وتناقشها. ويحس المرء وهو يقرأ متابعات السواحري الشاب الذي لم يكن قد تجاوز الخامسة والعشرين أنه كان ينطوي على ناقد صارم، ملتزم بقضايا أمته ووطنه، يفتش عن ينابيع الحزن ويتماهى معها.

كانت قصة "الأفعى"التي اعاد خليل نشرها في "مطر آخر الليل" التي صدرت عام 2003 من بواكير ما كتب. تقدم خليل بهذه القصة للمسابقة التي أقامتها "الأفق الجديد". وقد أشارت المجلة في العدد الأول من السنة الثالثة في الصفحة الخامسة والثمانين إلى غزارة النتاج القصصي المقدّم للمسابقة. وبيَّنت أنّ لجنة التحكيم [التي لم تعلن عنها] حجبت الجائزة الأولى لأنه "لا توجد بين هذه القصص واحدة تنفرد عن أخواتها بحيث تستحق الجائزة".

وقد أعطت اللجنة قصة "أولادنا بلدنا" لنمر سرحان المركز الثاني، وقصة "رأس الشيخ" لصبحي الشحروري المركز الثالث أما "متى يعود إسماعيل؟" لمحمود شقير "والأفعى" لخليل السواحري، فلم تحصلا على مراكز متقدمة ولا على مبالغ نقدية بل فازتا باشتراك في المجلّة لمدة عام. ويبدو أنّ فوز "الأفعى" ونشرها هو الذي أيقظ القاص في شخصية خليل وأدى بالتدريج إلى خفوت صوت الناقد فيه.

نشرت "الأفعى" في العدد الرابع من آذار عام 1964 في "الأفق الجديد". وهي قصة رمزية تحكي عن أفعى هجرها زوجها، وهجرتها العصافير من حولها، فقررت أن تغادر منطقتها بحثاً عن مكان جديد. وصارت تحلم بامتلاك أرض فسيحة مملوءة بالعصافير، لتقوم

باصطيادها. في القسم اثاني وعنوانه "الطفل" يتحدث السارد عن طفلين بريئين، هما إسماعيل ونزار، مغرمين بصيد العصافير ليلهوا بهـا ثـم ليقوما بإطلاقها في فضاء الله الواسع. وتقوم الأفعى بلدغهما فـي أثنـاء بحثهما عن العصافير، وابتلاع العصافير. أما في "الهشيم" وهو الجـزء الثالث من القصة، فتتكاثر الأفاعي ويغدو خطرها عامّاً، فيتوجه النـاس إلى الحاج عبد الوارث يشكون له هذا الخطر:

"أكلتنا الأفاعي، ثمانية وأربعون من البلد مـاتوا، أكلـتهم الأفـاعي، الحقنا يا حاج عبد الوارث".

لكن الحاج عبد الوارث يخذلهم، مثلما يخذلهم "الحاوي ذو الوجنـات الحمر المسلوخة والشعر المحروق" الذي كان جرابه يمـور بالأفـاعي، ويزعم أنه لا يستطيع أن يدفع عنهم اذاها لأنه صديق لها. ثـم تنتهـي القصة بالخوف والذعر يسيطران على الجميع، فالبوم تولول وابـن آوى يعزف لحناً غريباً في الحقول الخربة، أما الحاوي فيحمل جرابه ويغادر.

ليس يخفى أنَّ البعد الأليجوري في الحكاية التي تحاك يكوّن تاريخـاً مختصراً لفلسطين منذ صدور وعد بلفور عام 1917 إلـى نكبـة عـام 1948. ويمكن للقارئ أن يفك رموز تلك الحكاية التـي تأخـذ شـكل معادلات رياضية، فالأفعى تشير إلى الحركة الصهيونية التـي شـعرت بالغربة في أوروبا فبدأت حلم البحث عن وطن قومي لليهود في فلسطين أو "الجبل المطلّ على بحر أزرق تنام فيه الشمس" علـى حـد تعبيـر القصة. أما تكاثر الأفاعي فيشير إلى الهجرة اليهودية إلى فلسطين التـي شجعها الإنجليز وهم الذين تعبر عنهم الحكايـة مـن خـلال شخـصية الحاوي. أما الحاج عبد الوارث فيرمز إلى القيادة التي تتقّنـع بالـدين،

وتسمح للحاوي بإحضار الأفاعي. أما العصافير فهم السكان الأبرياء العزّل الذين لم يستطيعوا قتل الأفاعي والتخلّص من شرورها.

تخلو هذه الحكاية – الأمثولة من الزمان والمكان، وتكاد لولا عدد لديغي الأفاعي الذين بلغوا ثمانية وأربعين لديغاً إشارة إلى نكبة (1948) واسْمَيْ الطفلين إسماعيل ونزار، للدلالة على عروبتهما، أن تتحولّ إلى أمثولة عامة تشير إلى صراع الخير والشر، كما هي الحال في الحكايات التي تعتمد على الحيوانات والطيور. لكنّ ما يلفت في "الأفعى" هو خيط التشاؤم العميق الذي ظلّ نتاج خليل السواحري يقوم عليه وينميّه ولم تكن تلك الروح التشاؤمية الحزينة لتفارقه إلاّ في حالات استثنائية يؤخذ بها ولا يقاس عليها مثلما يقول النحاة.

كانت "الأفعى" أمثولة تناقض تماماً "دجاجة" اسحق موسى الحسيني، تلك الدجاجة الوديعة، المثالية التكوين والسلوك. لذا كانت الهزيمة على المستوى التاريخي، من نصيبها لأنّها لم تلتفت إلى قوانين الصراع وأبعاده، في حين استطاعت الأفعى أن تنتصر وإن كان انتصارها، تبعاً لتكوينها البيولوجي، يتكئ على الغدر والخروج على المواضعات الإنسانية كلها. لكنّ السواحري كان يرسم الأفعى تلك على مستوى المنظور على نحو يجمع بين أسلوبي ابن المقفع في "كليلة ودمنة" ومصطفى لطفي المنفلوطي في "النظرات" و "العبرات"، وهذا يتجلى في سيطرة روح نمطية لا تخفى، إنْ في رسم الشخصيات أو الأحداث.

كان لا بد أن يتخلّص خليل من هذا القضايا الكبرى التي ترصد حركة التاريخ،وما يتطلبّه ذلك من كنايات وأمثولات، مثلما كان عليه أن يتخلّص من هذه اللغة المثقلة بالمجازات عندما اشترك مع بدر عبد

الحق وفخري قعوار في إصدار "ثلاثة أصوات" وإن لم يتخلّص من رؤيته المتشائمة ومن ذلك الحزن العميق الذي يلّف عالمه القصصي.

يعّد صدور هذه المجموعة عام 1972، حدثاً ثقافياً لافتاً في تاريخ القصة القصيرة الأردنية فهي في أبعادها تعبّر عن جيل جديد، يتحرك ضمن رؤية مغامرة وأسلوب مختلف، ويتشكل بعيداً عن تجارب من سبقوهم في ميدان القصة القصيرة.

كانت "ثلاثة أصوات" تغاير السائد، وتشكل نقطة البداية لأجيال لاحقة سارت في اتجاهات إبداعية تشبه تجارب هؤلاء الكتاب أوتختلف عنها، لكنها تتشاركها إيمانها بضرورة البحث عن أفق جديد ومغامرات إبداعية لا تتوّقف.

نشر خليل في "ثلاثة أصوات" القصص الآتية:

1- اللعبة الأخرى.
2- إعلان براءة.
3- نفس تمباك.
4- التحديق في المرآة.

وقد أعاد نشر القصتين الثالثة والرابعة في "مقهى الباشورة" التي صدرت طبعتها الأولى عن وزارة الثقافة بدمشق عام 1975، كما أعاد نشر القصتين ألاولى والثانية في "زائر المساء" التي صدرت عن دار الكرمل عام 1985. في تلك القصص الأربع كان خليل يفاجئ القارئ ببناء قصة تدور أحداثها في الريف القريب من مدينة القدس. لكنّ الريف الذي كان يتحدث عنه خليل في قصصه ليس تجسيداً للبراءة في مواجهة زيف المدينة، مثلما اعتاد الرومانسيون أن يفعلوا، فقد كان هذا الريف

بائساً، فقيراً يسوده الجهل والأميّة وتتحرك شخوصه في ضـــوء رؤيـــة تصارع الواقع، لكن صراعها كان ينتهي بالفشل والعجز والإخفاق.

أثارت قصص خليل السواحري الكثير من ردود الفعل النقدية أردنياً وعربياً. وكانت مسألة التلّقي النقدي هذه تهمّ خليلاً، لأنه كـــان يمتلـــك تكويناً نقدياً لم يفارقه. وقد توقف بعض الكتّاب عند تلك القصص وتنبهوا إلى حفول لغتها بالشتائم، وإلى كونها تنتمي إلى واقعية كـــانوا يطلقـــون عليها واقعية تسجيلية، قاصدين بذلك أن يحرموا تلـــك القـــصص مـــن الانتماء إلى جنّة الواقعية الاشتراكية!.

كان خليل السواحري الناقد يدرك، دون أدنى شك، ما تنطوي عليـــه قصصه من تشاؤم،وكان يعي أنه يرسُم عالماً من المقموعين والمهمشّين والفقراء الذين تتحكم فيهم مجموعة من الانتهازيين ويحولون بينهم وبين الحياة. وكان خليل السواحري – الناقد يدرك أن نهايات قصصه تنتهـــي على نحو مهزوم في ضوء مقاييس الواقعية الاشـــتراكية، لكـــن خليـــل السواحري القاص والناقد كانا يدركان أنهما يبنيان شخـــصيات عاميّـــة الإدراك، تمتح من منظومة ريفية ما تزال شبه مغلقة على ذاتها، فكـــان من الطبيعي أن لا يفتعل القاص في نهايات يسقط فيهـــا الـــوعي علـــى الشخصية بالمظلّة، بعيداً عن شرائط الواقع وظروفه.

يكفي في هذا المقام أن نتوقف عند "اللعبة الأخرى"، لنرى الفارق بين الإبداع وهذه التصنيفات النقدية الخرافية: يقرر حمدان الطرشا (ولكلٍّ من اسمه نصيب) أن يتوقف عن رعي الأغنام عند معلّمه أبي الدبس، ويأخذ أتعابه وهي خمسة وعشرون ديناراً. ويصمّم حمدان أن يصبح من تجّار الدخان، لكنه يقع فريسة حسن أفندي الذي يسلب أمواله عن طريق لعب

الورق. ونظراً لخسارة حمدان الطرشا يقوم حسن أفندي بالإنفاق على أسرته، بعد أن يقيم علاقة مع زوجة حمدان. وبعد مدة يقطع حسن افندي علاقته بأسرة حمدان، ويوقف عنها الإنفاق، فيحاول حمدان أن ينتقم منه، فيتم العثور على حمدان الطرشا قتيلاً وجثته ممزقة مطروحة أمام الزقاق وقد انغرس في صدره خنجر ملوّث بالدماء.

من الواضح أنّ القصة التي كتبت في منتصف الستينات من القرن الماضي تتلمس بوادر التحولات الاستهلاكية في سلوك الأفراد، الذين يتمردون على واقعهم وهم غير مؤهلين، فيقعون ضحية قوى قادرة على افتراسهم. وهي قوى تمتلك في قصص خليل المال أو السلطة أو الخطاب الإيديولوجي. وهذا ما يتجلّى في "إعلان براءة" و "التحديق في المرآة". ففي الأولى نجد القرية كلها تخضع لسلطة المختار وا لشيخ بهلول. وليس ثمة من معارض سوى محمد الأزعر الذي رأى سلوك الشيخ بهلول الشائن مع وطفة أرملة حسن أبو غليون، ويشاهد كل يوم ما يقدمه الشيخ بهلول من دعم إيديولوجي لسلطة المختار، دون أن يتمكن من تقديم الدليل للناس على فساد الرجلين. أما في "التحديق في المرآة" فيستسلم علي الجعّار لسلطة زوج أمه ويعجز عن مقاومتها، مع أن هذا الزوج يسعى كي يمسخ الجعّار هذا حماراً!.

إنّ تلك القصص، ذات الشخصيات البسيطة، تشير إلى رؤى متصارعة في هذا التكوين الريفي، وفي حين تكون الهيمنة من نصيب من يمتلك الثروة أو النفوذ أو الإيديولوجيا، يجيء التعبير عن تلك الهيمنة بالحيلة أو بالعنف أو بكليهما.

وحدها تقف "نفس تمباك" منفردة بين تلك القصص. فقد كتبت بعد

هزيمة حزيران 1967، وهذا يعني أنّ ثمة متغيراً جديداً في الصراع يلغي أو على الأقل يؤجّل أبعاد الصراع الاجتماعي، ويجعل المحتل محور ذلك الصراع.

تجيء القصة تعبيراً عن تحوّلات سلمان الهرش، الذي لم يكن يختلف عن حمدان الطرشا مثلاً، وتكاد تقوم علاقات تماثل بينهما على المستوى الزوجي وعلى مستوى الفقر والتعاسة والبحث عن الرفاهية. لكن ذهاب الهرش إلى القدس بعد الاحتلال أسهم في تغييره وتشكيل وعيه من جديد. لقد ذهب إلى هناك لتدخين الأرجيلة، لكنه يعتقل ويسجن ويضرب مع أنه كان يعتقد جازماً أن جنود الاحتلال لن يتعرضوا لشخص مسالم مثله (كالطفل في قصة الأفعى) لكنه يكتشف زيف هذا الوعي.

إنّ سلمان الهرش الذي أخذ يتحدث مع المختار بلغة جديدة، تكشف وعي المختار الزائف، يؤكد أنّ المجابهة هي الطريق إلى تشكيل الوعي في ريف بائس، تسود فيه الأميّة، وينفصل عن المدينة ويشكل هامشاً تعيساً لها.

في عام 1980 أصدرت دار كاظمة الكويتية طبعة ثانية من "مقهى الباشورة" قدّم لها الدكتور إبراهيم خليل بدراسة سمّاها: "الوعي المقاوم في مجموعة مقهى الباشورة".

كانت دراسة إبراهيم خليل، على أهميتها النقدية، وقدرتها على فهم تجربة السواحري، دفاعية وتسويغية. فهي تدافع عن النهج الذي اختطه خليل، وتبيّن ما ينطوي عليه من المقاومة. وهي بذلك تشكّل استجابة لذلك اللغط النقدي الذي كان يدور في الملاحق الثقافية حول سيطرة الروح الانهزامية على كتابات السواحري وكونها تنتمي إلى الواقعية المرآوية. وبالمقابل جاء حديث الدكتور محمد شاهين المختصر، المنشور

في أفكار عام 1978، والمقتبس على غلاف المجموعة، عميقاً وجريئاً حين سمى واقعية "مقهى الباشورة" واقعية صلبة، دون أن يكترث بمدرسة تلك التصنيفات التي كانت آلية لا تكاد تقيم للإبداع وزناً.

اختار خليل عنواناً يحمل من مدينة القدس روحها الشعبية وأسواقها ومعمارها العربي والإسلامي، وجعل المقهى محوراً جاذباً تتجمع فيه معظم شخصيات المجموعة من أبناء القدس ومن ريفها.

كان المقهى في "مقى الباشورة" فضاء يجمع بين الانفتاح والانغلاق، والثبات والتحول والمقاومة والاستسلام، مثلما كان، كما هي الحال في السرديات العربية، فضاء للتعارف والنقاش والمتعة وتزجية أوقات الفراغ. لكنّ ما كان ينبغي أن يدرس وأن يكون محور التركيز في هذه المجموعة هو هذا التداخل بين الشخصيات. فنحن نرى الشخصيات تنتقل من قصة إلى أخرى وتتداخل في ثنايا السرد وهو تداخل يذكر بشخصيات الطيب صالح التي ظلّت تتحرك وتتداخل في ذلك العالم الريفي الغنيّ بالآفاق والدلالات. أما الأمر الثاني فهو قدرة هذه القصص على تشكيل عالم قصصي ذي إيقاعات متشابهة ولكنّه عالم يسعى إلى اكتساب الوعي، دون افتعال أو حرق للمراحل.

إن شخصيات المجموعة تتحرك في ثنايا عالمٍ يسوده القهر وتسيطر فيه قوى الاحتلال.وكان لا بدّ أن يبرز النقيض لهذا كله. صحيح انّ هذا النقيض يبدو هشاً في البداية، لكنّه سرعان ما يتنامى.

لقد كان خليل القاص يفرّ في كتابته من أحادية الصور والرؤية التي تعجز عن إدراك الجوانب المعقدة والمتشعبة في الواقع الإنساني. وقد كانت بعض التغييرات التي مارسها في نهايات بعض قصصه توضح

سلطة الأجواء النقدية وهي تحتاج إلى دراسة من منظور دراسات التلّقي وخضوع جماليات الكتابة لسطوة المتلّقي في كثير من الأحيان.

حملت "زائر المساء" كما أشرنا بعض قصص المرحلة الأولى. ففيها "اللعبة الأخرى" و "إعلان براءة" من "ثلاثة أصوات" و "أحزان محمد الماحي" التي أشار خليل إلى أنها سقطت سهواً من "مقهى الباشورة". أما بقية القصص الست فتعود إلى السبعينات والثمانينات.

من الواضح أنّ حرص خليل على أن تتضمن مجموعاته الجديدة قصصاً تعود إلى مرحلة سبقتها، يؤكد إحساس خليل الناقد بأنّ مراحله الإبداعية لا تنفصل عن بعضها، فكتاباته تتداخل وتعبّر جميعاً عن تجربة إبداعية مترابطة، بصرف النظر عن التغيّرات فيها.

بدأ خليل في هذه المرحلة يعمّق اهتمامه بالشخصية المحبطة، ويلتفت إلى أبعادها النفسية. ,إن جاء تصويره لها منطوياً على قدر من التعاطف، أو الإدانة معاً.

تنبه خليل إلى هذا النموذج منذ محمد الماحي، ولا شك في أنّ اسمه ذو دلالة مهمة [وأسماء الشخصيات ذات دلالات في قصص خليل]، فهو الماحي، الذي تمحو أعماله اللاحقة جلّ أعماله السابقة.الماحي هذا رجل ليسعى لينال احترام أهل قريته عبثاً لكنه ظلّ يفشل، لأنه في كل مرة يبدو غير منسجم مع ذاته. وقد استطاعت القصة أن تنقل مأزق الماحي ورؤيته السطحية من خلال سرد جاف يجسد الفراغ الوجداني للشخصية ويمزج بين لغة التقرير الصحفي والحكاية النمطية (إبريق الزيت مثلاً) التي تسعى إلى إبراز المفارقة وإثارة السخرية، مثلما تسعى إلى إبراز التواطؤ في المناخ العام. وهو مستوى يتكرر في "العبيط" – المعلم الذي

يأتي إلى المدرسة في يوم صقيعي بارد، تغطي فيه الثلوج أجزاء كبيرة من الأرض. فيسقط يابساً، متخشباً في غرفة الصف. لكنّ العبيط هذا كان ينطوي على خوف من الإدارة، يتقّنع بإظهار الإخلاص في العمل.

لكنّ "زائر المساء" تشير إلى تحولات جديدة في كتابة خليل القصصية، تتمثل في اللجوء إلى الكتابة السردية ذات الأبعاد الرمزية.يتكئ خليل في "اليقظة المرعبة" على الحكاية الشعبية "الطائر الاخضر" المرتبطة بأسطورة الفينيق الذي ينهض من الرماد بعد أن يحترق. وقد سبق لبعض المبدعين أن اعتمد عليها، كما فعل محمود درويش في "نشيد إلى الأخضر". الذي لم يكتف بالاعتماد عليها بل حاول أن يقوم بتفسيرها:

لن أسميكَ الدم الطائر في هذا الزمان

وأمسّيك انبعاث السنبلة

وأنا أكتب شعراً، أي: أموت الآن. فلتذهب أصول

الشعر وليتّضح الخنجر ولينكشف الرمز: الجماهير

هي الطائر والأنظمة الآن تسمى قتلة.

أيها الطائر من جثتي الكاملة المكتملة.

في فضاء واضح كالخبز...

لكنّ اتكاء خليل على هذه الحكاية لم يتشكّل في بناء القصة بل جاء على لسان السارد الذي كان مضطراً للتساؤل ليوضح أبعاد ذلك الاتكاء: "ترى هل روت لكم جداتكم ذات مساء حكاية الطائر الأخضر؟ إن لم يكن ذلك قد حدث فرجائي أن تفعلوا ذلك، فربما أتيح لكم أن تسمعوا ذات مساء حكاية الطائرة الأخضر"، ليقوم الكاتب بعد ذلك بشرح الحكاية في

الهامش. وبذا تتحقق الصلة بين القصة والحكاية الشعبية. لكن الصلة لا تنبثق من تفاعل خلاّق، بقدر ما تتكئ على نصّ ينغرس في وعي المؤلف، دون أن يغيب عن بنية القصة ليغدو جزءاً من نسيجها.

أما "الثلج" فرمزيتها تبدو أكثر اتقاناً. وقد كان خليل في هاتين القصتين يبدو قريباً من عالم الشعر ومجازات الألوان فيه. إنّ سقوط الثلج في المدينة لم يحمل معه فرحاً خالصاً، ولم يكن قادراً على أن يزرع البراءة في النفوس، ولا أن يخفي ما في المدينة من تباين طبقي. لهذا كان صابر حزيناً بعد قدوم الثلج الذي انتظره طويلاً، لأن المدينة عجزت عن الاحتفاظ به طويلاً. وقد عبّر خليل عن هذه الفكرة من خلال قصيدة سماها هي الأخرى "الثلج" ولعله يحسن المقارنة بين النصين لتتضح الفروقات بين نوعين من الكتابة.

يقول خليل:

هو الثلج يبعث فينا الأسى والضجر
يؤججّ في المفردات طريّ الشجون
ويبعث من حزن هابيل ما قد غبر (...)
هو الثلج نحمله كالكفن
هو الثلج حين يحط على الآخرين
يكون حياة ودفئاً وخبزاً وملحاً
وحين يحط على صدر هذا الوطن
يكون وبالاً وبرداً وجوعاً وجرحاً

(جريدة الرأي 1992/2/14)

تنبثق أهمية كتاب "للحزن ذاكرة وللياسمين" الذي صدر عام 1994

و"تحولات سلمان التايه ومكابداته" الذي صدر عام 1996 مـــن كونهمـــا يعكسان، على الرغم مما بينهما من اختلافات على مستوى اللغة/والجـــنس الأدبي أطرافاً من سيرة خليل الفكرية والذاتية. فنـــصوص الكتـــاب الأول توضح ذلك الأسى الشفيف الذي كان يسكن أعماق خليل وهو الأسى نفسه الذي يسكن سلمان التايه الذي صار رمزاً للفلـــسطيني ورحلتـــه الـــشقيّة. ومثلما كتب خليل نصوص الكتاب الأول بقدر كبير من التلقاية والحريـــة رسم تحولات سلمان التايه بالعفوية والتلقائية ذاتها. ومثلها يتساءل سلمان: "من أين يأتي الفرح، أو ليست الأحزان هذه زادنا اليومي؟".

فإن خليلاً يتساءل في "أيها الحزن":

ماذا تبّقى غير هذا الحزن

يشرب أيامنا

كفلول الجيوش التي ترتد

مثخنة بالهزائم والجراح (...)

أيها الحزن

يا هذا الغراب الدائم النعيب

فيم اخترت أن تكون رفيقنا الأبدي

كانك اللعنة الخالدة

في هذه المناخات كتب خليل قصص "مطر آخر الليل"، التي نشر فيها

بعض قصصه التي تعود إلى الستينات من القرن الماضي مثل: "ليلة القبض على إسماعيل" و "يحدث أحياناً" و "الأفعى".

ينحو خليل السواحري، مثلما أشار الزميلان: الدكتور إبراهيم خليل والدكتور محمد عبيدالله في بعض قصص هذه المجموعة منحى غرائبياً. ففي هذه القصص ينحو السواحري وهو المغرم بالأمكنة، العاشق للتفصيلات، الحريص على لغة الشخصيات التي تعكس طريقة تفكيرها، يسعى للتجريد، فيغيّب الأمكنة وهويّة الشخصيات ولهجتها، مثلما يغيّب ملامح الزمان، كي يبرز المأزق الإنساني الذي لا فكاك منه إلا بالموت المفعم بالحقد والعنف. كانت "الساحة" و "المدينة" و "الوليمة" تجسيداً لمتاهة كافكاوية المعالم والأبعاد، فأبطال تلك القصص لا يعرفون شيئاً بمعنى أنهم يجهلون الاسباب التي قادتهم إلى مصائرهم، لكنّ براءتهم لا تكفي لدفع الموت عنهم، بل لعلها كانت السبب في قتلهم.

لكنّ خليلاً يعود في ما تبقى من قصص المجموعة إلى واقعية أليفة، مملوءة بالحزن والحنين والشفافية والأسى والإخفاق والشعور باقتراب النهاية. يمكن للقارئ أن يجد قاسماً مشتركاً يربط بين البطل أو الشخصية الرئيسة في "سيدة أثينا" وفي الطريق إلى استوكهولم، "ذات صباح ذات مساء"، "تلك الأمسية" و"الساكن الجديد" و "دليل الهاتف". يبدو البطل في هذه القصص ذا ملامح مشتركة فهو رجل تجاوز الخمسين أو الستين كثير التسفار، استقرت أحواله المالية، حزين، يطارده شعور بالإخفاق الدائم وسوء الحظ. لكنه على المستوى الآخر مملوء بالإنسانية، ومتسامح وقنوع، عرف الكثير من التجارب الفاشلة فتعلّم أن لا يسرف في التفاؤل، وتعلّم أن النهايات مؤلمة دائماً وأنّ الموت صار قاب قوسين

أو أدنى كما في "دليل الهاتف".

قصص "مطر آخر الليل" محكمة البناء، لا تسعى إلى إيصال مغزى محدد بقدر ما تسعى إلى تشكيل لوحة نابضة بالحياة. وقد كان ذلك واضحاً على مستوى المفردة والجملة والبناء العام. وخلوها من الدلالات المحدّدة، خفّف من الحمولة الإيديولوجية بها، وجعل لغة السرد مترعة بثراء دلالي يسهم المتلقي في بلورته.

لقد كان خليل السواحري مبدعاً مسكوناً بالدفاع عن الإنسان وأشواقه وحقّه في حياة كريمة قوامها الصدق والعدل. رحمه الله.



تحولات سلمان التايه ومكابداته



هذه المكابدات

كتبت هذه النصوص خلال الفترة ما بين 1993 (وهو تاريخ عودتي إلى الوطن ضمن أول دفعة تعود من المبعدين) وحتى كان أول 1995، في مدينة القدس وأماكن أخرى حولها، أي أنها كتبت خلال ما يُسمّى في التاريخ العربي الحديث مرحلة ما بعد أوسلو أو مرحلة الدخول العربي العارم والعلني في السلام!

ولكن الفترة الزمنية التي تتناولها بعض القصص تمتد إلى ما قبل ذلك، إلى المكابدات التي استمرت ابان ليل الاحتلال الاسرائيلي الطويل مروراً بالانتفاضة وما بعدها.

للوهلة الأولى قد يخيل للقارئ أن "سلمان التايه" شخص بعينه، تناوله الراوي أولاً ثم تركه ليسجل وقائعه وأحواله وتحولاته فيما يشبه المذكرات، إلا أن قليلاً من التدقيق يؤكد أن الأمر غير ذلك! فالشخوص متعددون والوقائع مختلفة، وضمير الأنا لا ينتمي إلى شخص واحد بعينه، فالإسم الخارجي المعلن "سلمان التايه" مجرد رمز، كوفيتة أو قبمازه، أما الشخوص فمختلفون تماماً وإن كانوا يحملون الاسم نفسه!!

"سلمان التايه" هو العنوان إذن، الاسم الحركي للإنسان الفلسطيني المعاصر في لحظات حياته العادية البسيطة، في نبضه الانساني الذي حاول جهده أن ينأى به عن الاحتلال وسفالاته، ولكن دون جدوى، كان الاحتلال يلاحقه، يدخل بيته أدقّ تفاصيل حياته، بدءاً من خطوة العبور

الأولى نحو الوطن، مروراً بأي لقاء يــتم أو لا يــتم مــع الــصديق أو الصديقة أو الزوجة أو الأبناء وانتهاءً بلحظة جلوس في شرفة المنزل.

"سلمان التايه" هو الرمز لمن كان يرزح تحت الاحتلال أو لمن كان يعاني في المنافي، لمن جاء إلى الوطن عائداً أو زائراً أو لمن بقي فــي الخارج مراقباً ومرتقباً!

و"سلمان التايه" حين يسجل تحولاته ومكابداته، تتلبــسه شــخوص متباينة تنتمي جميعها إلى هذه البقعة من الأرض التــي تتقاســمها الآن حضارتان متضادتان تنفي احداهما الأخرى، رغم أن بعض المتفــائلين يذهبون إلى أنهما ستتعايشان!!

القدس المحتلة ـ كانون الثاني 1996

بحـــر يـافـا

- هذا هو بحر يافا!

واشار بيده إلى المدى الأزرق الفسيح الذي ترتطم فـوق أمواجـه الهادئة أشعة الشمس توشك على السقوط، كانا يقفـان علـى كـورنيش "طييلت" أو كورنيش تل أبيب الذي يطوق البحر بدءاً من بقايا مدينة يافا القديمة جنوباً وحتى أقاصي تل أبيب شمالاً.

قال سلمان التايه:

- وأخيراً تحققت لي هذه الأمنية، منذ خمسين عاماً وأنا أحلم بـأن أخوض بقدميّ في مياه بحر يافا! هو ليس فقط بحر يافا ولكنـه البحر الأبيض المتوسط، هكذا كانوا يسمونه: بحر يافا!! لـست أدري لماذا، فهناك حيفا وعكا وعسقلان وغزة وصيدا وصـور وبيروت ولكن لماذا بحر يافا؟

ثم توجه سلمان بالكلام إلى قريبه الذي جاء به إلى هنا بسيارته:

- ما رأيك لو هبطنا هذه الأدراج الحجرية واجتزنـا ذلـك المـدى الرملي نحو البحر، ترى كم مضى من الـسنين أو آلاف الـسنين وهذا البحر يلثم رمل يافا؟؟

لم يكن سليمان متبحراً في التايخ، ولكن التاريخ كان يهـبط عليـه على الرغم منه، حدّق في المدى العابق بالوهج الأصفر المحمر، وخيل

إليه أن يرى قوارب الفينيقيين تتهادى نحوه متقلة بالصيد والشباك وحداء البحارة المتشحين بالعري وقلائد المحار، قال له قريبه:

- ولكن الوقت أمسى متأخراً، لقد أضعنا النهار ركضاً من أريحا إلى القدس إلى عكا، لو أننا نعود إلى هنا في يوم آخر، البحر يحتاج يوماً كاملاً، وربما كان لدينا متسع للسباحة، فالشاطيء متاح للجميع.

بالنسبة لسلمان ليس ثمة يوم آخر، عشرة أيام تكفي ولا بد له أن يغادر، حين حصل على تأشيرة العبور إلى الوطن زائراً، كان ينوي البقاء طويلاً، فعشرون يوماً أو حتى ثلاثون لا تكفي لمعانقة الوطن بدءاً من طبريا وانتهاءاً بغزة، ولكن الضِّيافة ثقيلة، أن ترمي نفسك ضيفاً في بيوت الأقارب عشرة أيام ذلك أكثر من كافٍ، ولا بد من السفر، لو كان ثمة فنادق، ولكن هل يسمح لي الأقارب بأن أنام في فندق؟

قال سلمان:

- ماذا أقول. لو قلت إن البلاد طلبت أهلها هل يصح كلامي؟ أم أقول إن الغربة هي التي طلبت أهلها؟

حين نشبت حرب حزران 1967 كان سلمان التايه يعمل سائقاً على خط عمان ـ القدس وفي صبيحة ذلك الاثنين الأسود غادر سلمان القدس مبكراً إلى عمان، وحين كان يهم بمغادرة العبدلي عائداً إلى القدس، كانت أخبار الحرب قد بدأت تسمم الأجواء والأسماع، ولكنه صمم على العودة، فالموت مع الأهل خير من الحياة وحيداً خارج الوطن، وعند الجسر أعادوه، قالوا له إن الوصول إلى القدس مستحيل، وأن الطائرات

قد تضرب، وأن الانتظار في عمان ريثما تتجلي الأمور أسلم من مغامرة العودة، ولكنه لم يعد، لحق به الأهل إلى عمان، وظل سلمان يعمل سائقاً على خط عمان/الزرقاء.

رد قريبه:

- بل قل إنّ الشوق إلى الزوجة والأولاد قد استبد بك!

كان في ذلك بعض الحقيقية، فالوطن بلا بيت أو عائلة لا يختلف كثيراً عن المنفى، وخطر لسلمان أن يتساءل: ما الذي سيفعله أهل يافا حين يعودون ولا يجدون شيئاً مما تركوا، لا بيت ولا أرض ولا جيران ولا حتى أزقة وشوارع؟ أما تزال يافا هي يافا؟

وتلفت سلمان في اتجاه المدينة، أين هي يافا، تلك البقايا المتآكلة من البنايات المهجورة أو المسكونة بفقراء اليهود؟ أين ذهبوا بيافا، تلك المدينة العريقة؟ في عام 1948 لم تكن تل أبيب أكثر من ضاحية سكنية صغيرة تحبو عند قدمي يافا!؟

كيف ابتعلت تل أبيب معالم يافا، منازلها، شوارعها، روائح أهلها، مساجدهم وكنائسهم وضجيج وضجيج أطفالهم وسهرات نسائهم في المساءات الصيفية العابقة بالبحر؟ واستبد الحزن بسلمان، واستبدت به الغربة كذلك، تلفت نحو الشمال فأحس بأن تل أبيب تزحف نحوه، تنيخ فوق صدره بمطاعمها وسياراتها وأضوائها الحمراء والصفراء بباراتها ونسائها وكازينوهاتها المتفشية على امتداد البحر!!

قال سلمان:

- هو كذلك، ألا ترى كيف أصبح الوطن بعيداً وغريباً؟

رد قريبه:

- لو كنت أعلم أن بحر يافا سيثير فيك هذا الحزن كلَّه لما جئت بك إليه، ولكنها رغبتك، هل نعبر الرمل إلى الماء، أم نترك ذلك إلى زيارة أخرى؟

قال سلمان وهو يشير إلى حيث السيارة:

- بل نترك ذلك إلى زيارة أخرى، إن كان ثمة زيارة أخرى!!

كان المساء يهبط مثقلاً بالحزن، وأمواج البحر تنوس خافتة، يلعق حفيفها الرمل فيما يشبه الهمس، لا رائحة لبحر يافا، لا قوارب يشعل ليلها الصيادون العائدون، لا أطفال يزرعون الساحات ألعاباً صاخبة، ولا نساء يشعلن السهر حكايات وقناديل، حين كانت السيارة تعبر بهما أزقة الحي العربي الوحيد الذي تبقى من يافا، تلفت سلمان التايه بحسرة وهمس كمن يخاطب نفسه:

- ليت يافا وبحر يافا ظلا حلماً في الذاكرة!!

الجمعة الحزينة

لم يجد سلمان التايه سبباً واحداً بعينه لهذا الضيق الذي يعتريه، ليس الصيام بالتأكيد ولا نكد العمل ومشاكله، كما أنه ليس كثرة العيال وضيق الحال.

- إنه الاحتلال وسفالات اليهود!

تلك هي النتيجة التي انتهى إليها، وحين أيقظته زوجته لتناول سحوره المعتاد في الأيام الأخيرة من رمضان، لم يجد شهية حتى لتناول لقمة من الخبز الساخن أو احتساء رشفة من الشاي.

غادر البيت إلى غيرما اتجاه محدد، قالت له زوجته: أحضر لنا معك بعض الخضار واللحم إن أمكن، فليس ثمة ما نُعدّه لطعام الإفطار.

قرر أن يهيم على وجهه هذا النهار، قبل أن يتوجه إلى القدس لأداء صلاة الجمعة في المسجد الأقصى، فالقدس ليست مغلقة أمامه، كسائر أهل البلاد ممن لا يحملون بطاقة الهوية الزرقاء، والعمل متاح، ولكن المزاج رديء والصدر ضيق، والوطن أصبح أكثر ضيقاً.

شَرَعَ يقطع الطريق الممتد بين جبل المكبر والبقعة، لم تكن الطريق سالكة هنا قبل حزيران 1967، أسلاك شائكة كانت تحيط بما يسمى منطقة الحرام، وتحيط بقصر المندوب السامي الذي تحول فيما بعد إلى مقر رئيسي لقوات الطوارئ الدولية في الشرق الأوسط.

الطريق سلس وعريض ومستوٍ، ونسمات الضحى شمالية عليلة تهب قادمة من فوق البلدة القديمة، من فوق الأسوار، من فوق قبة الصخرة والمسجد الأقصى وكنيسة القيامة وقلعة النبي داود، ولكن مزاج سلمان التايه لم يعتدل، فهذا الطريق لم يجعلوه فسيحاً ونظيفاً ليسير عليه أمثاله، ولكنه المدخل الشرقي للنقطة السياحية البانورامية "تئيليت" التي أقاموها هناك لتطل على القدس كلها القديمة والجديدة.

وصل سلمان التايه ذلك الاستواء البانورامي المدهش، هذه الساحة تطل على كل شيء، حتى على الصراط المستقيم الذي سيمتد يوماً ما (يوم القيامة) بين السور والطور، مكان الحساب والعذاب يوم القيامة، كله الآن في متناول بصر سلمان التايه، جلس على أحد مقاعد "تئيلت" وتلفت إلى النصب البرونزي الذي وضعوه هناك، ثم عاود النظر باتجاه البلدة القديمة، كانت المدينة تبدو كالصحن الفخاري، من هناك صعد محمد (عليه السلام) إلى السماء، وهنا تماماً في الموقع الذي يجلس عليه سلمان التايه وقف عمر وخادمه والجمل، هنا انعقد لسان عمر بن الخطاب وهو يتطلع إلى أبواب القدس، فلم يملك أن يقول شيئاً سوى الله أكبر !!

الباب الذي يسمونه اليوم باب المغاربة كان في مواجهة عمر بن خطاب، ورهبان المدينة يتحركون جيئةً وذهاباً، في انتظار أن يصل راكب الجمل لاستلام مفاتيح المدينة.

هناك في السفح الغربي الأسفل لجبل الطور تبدو الجثمانية، وإلى أسفل منها في مدخل وادي قدرون يبدو قبر ابشالوم حيث التجأ يهوذا الأسخريوطي بعد العشاء الأخير، ثم عاد لينكر المسيح ثلاثاً قبل صياح

الديك، من هناك، من الجثمانية صعد المسيح وهو يحمل صليبه، اجتاز باب الأسباط إلى الطريق الآلام، وأحس سلمان التايه بأنه حزين ومرهق، وأنه يحمل صليباً من نوع آخر، ولكنه ليس كصليب المسيح تماماً.

في هذه اللحظة جلس إلى جانب سلمان التايه يهودي يلبس لباس المتدينيين الأسود، كان الخواجا ينظر إلى القدس بنشوة وإعجاب ظاهرين، كانت الساحة الفسيحة خلف حائط المبكى التي أقاموها على أنقاض حارة المغاربة تعج بالحركة، تطلع الخواجا إلى سلمان التايه بازدراء وكأنه يهم بالطلب إليه إخلاء المقعد.

قال له سلمان: بوكر طوف (صباح الخير بالعبرية)

رد عليه الخواجا: بوكر طوف

وساد الصمت، عاد سلمان يحدق في الهوة ما بين السور والطور، ورأى المدى المذهل للسقوط من الصراط إلى وادي النار (وادي قدرون) وتذكر أنه لم يُصلّ الصبح هذا اليوم، وأن قدمه قد تزل عن الصراط المستقيم، فزاد اغتماماً على غمته.

قال للخواجا: من أين أنت يا خواجا؟

وأشار الخواجا إلى الخلف، إلى مستوطنة "أرمون هنتسيف" التي أقاموها على السفح الجنوبي الغربي لجبل المبكر، في الأراضي التي تخص عشيرة سلمان وهي التي ظلت مسيجة باعتبارها منطقة حرام حتى عام 1967.

قال الخواجا: من القدس، من هنا، من أرمون هنتسيف، وأشار بيده مرة أخرى إلى جبل المكبر.

ضاق صدر سلمان وكان يختنق، الخواجا من جبل المكبر، يـــا لله من أين أكون أنا إذن؟

سأله الخواجا: وأنت، من أين أنت يا عربي؟

- من وارسو، من كراكوف، من أشوفتس.. وانطلقــت الكلمــات كالرصاص من فم سلمان في صرخة شبه مكتومة وكأن جبــل المكبر برمته أصبح ينيخ فوق صدره.

فهم الخواجا المغزى، ولكنه حاول أن يستظرف:

- وكيف نجوت من أوشفتيس يا خبيبي؟؟

لم يجب سلمان، نظر إلى الخواجا بازدراء، كانت ضحكة صــفراء تلوح فوق وجهه، نهض سلمان كالملسوع، فقد كانت دعابــة ثقيلــة لــم يحتملها، سار باتجاه القطمون، وهو يحمد الله أن المسجد الأقــصى مــا يزال في مكانه، وأنه وأمثاله ما يزال بإمكانهم حتى اللحظــة أن يــؤدوا صلاة الجمعة الحزينة فيه.

الـورشــة

قالت له وهي تضع قدمها العارية فوق البلاطة التي انتهى لتوه من تثبيتها بخلطة الاسمنت:

- متى يمكنني المشي فوق هذا البلاط؟

تسلقت عيناه ساقها بدءاً من القدم العارية المتكئة بلطف على البلاطة، كان العري رخاماً طازجاً، عموداً ناصعاً من البياض المشّرب بالحمرة الغائمة، عري متصل، ينفسح في وجهه رويداً رويداً عبر قميص نومها القصير المشدود إلى أعلى بحزام بدا وكأن لا وظيفة له سوى إبراز استدارة الأرداف والثديين.

حين وصلت عيناه إلى المناطق المحرمة تماماً ارتد ببصره إلى أسفل، إلى خلطة الاسمنت وكومة البلاط، وأحس ببصره يزوغ وبأنفاسه تضطرب، فالمشهد برمته كان صاعقاً والرد الفوري على سؤالها كان مستحيلاً، أما ياعيل فانت تدرس بإمعان وقع المشهد عليه، ردود فعله، وجدوى أن تمضي معه في اللعبة إلى آخرها.

قال لها سلمان التايه وهو يتمالك أعصابه، دون أن يجرؤ على رفع بصره مرة أخرى:

- سأضع فوقها لوحاً من الخشب، يمكنك أن تعبري الممر من فوقه، وحركت ياعيل باطن قدمها برفق فوق البلاطة فيما بدا

وكأنه محاولة لتلمس مدى ثباتها، في حين كان الهدف الحقيقـــي اشهاراً أكثر إثارة للساق العارية حتى تخومها العليا.

تجلد سلمان وهو يلامس بنظراته هذا التناسق المـــدهش لاســـتدارة الفخدين وانزلاقة القميص الحريري الأخضر عنهما.

قالت: متى تنتهي من الممر؟

قال سلمان: عشر دقائق على الأكثر. هل ثمة أماكن أخرى بحاجة إلـــى إصلاح؟

قالت: غرفة النوم، هناك في الجدران بعض المواقع التي أتلفتها الرطوبة فتساقطت قشرتها، إنها بحاجة إلى إصلاح وطلاء جديد.

كان سلمان التايه قد أعدّ نفسه لمهنة ترميم المنازل، وهـــي مهنـــة وجد نفسه مضطراً لإجادتها بعد أن كثر طلب اليهود عليها، هـــو فـــي الأصل معلم بلاط، والبليط لا بد له من الإلمام بالقصارة والدهان لترميم أطراف الجدران الداخلية للمنازل التي يضطر لحفرها من أجـــل إعـــادة ترتيب البلاط، ثم إن سلمان التايه وجد نفسه مـــضطراً للإلمـــام كـــذلك بشؤون التمديدات الكهربائية وشؤون السباكة أو المواسير والحنفيـــات، وهكذا بعد سنوات طويلة من ممارسة هذه المهن المتعددة داخل منـــازل اليهود أصبح سلمان التايه معلماً كبيراً يتهافتون على طلبه، ويدفعون له مبالغ محترمة لقاء عمل يوم أو يومين في المنزل الواحد.

لم يكن لسلمان التايه مغامرات جنسية، فهو رجل متـــدين، تربـــى تربية متزمتة، تزوج وأنجب أولاداً وبنات، اعتاد أن يؤدي الصلوات في أوقاتها، وأن يحدث أولاده عن الفضيلة والعفة والخلـــق الحـــسن. وقـــد

تعرض سلمان للكثير من الغوايات الجنسية في أكثر من منزل، ولكنه صمد أمام كل تلك الإغراءات، وكانت ردود فعل النساء اليهوديات تجاهه تتروح بين الغضب والطرد، وأحياناً الشتم والحرمان من كامل الأجرة، ولكنه كان يصبر ويحتسب أجره عند الله.

تمتم سلمان التايه: الله يستر من هذا اليوم، اللهم اجعل العواقب سليمة.

قالت له ياعيل: حين تنتهي من هذا تعال إلى غرفة النوم.

ولكن سلمان تباطأ في إنهاء وضع البلاطات الأربع المتبقية، كان يفكر فيما ستفعله يا عيل داخل غرفة النوم وكيف سيتصرَّف إزاء ذلك، وجاءة بغتة صوتها من الداخل:

- ألم تنته بعد؟ تعال هنا!

أنهى سلمان وضع البلاطة الأخيرة، وشرع يبحث عن قطعة خشبية يضعها فوق البلاط، بحث في الردهة الشرقية من الشقة التي تقع في الطابق الثاني من هذه العمارة السكنية القديمة، ذات القرميد الأحمر في منطقة البقعة، هذه الشقة تطل على الشارع الممتد بين القدس وبيت لحم، لم يكن هذا الشارع فيما مضى يوصل إلى بيت لحم، كان ينتهي في المنطقة الحرام القريبة من دير مار الياس على البوابة الشمالية لمدينة بيت لحم، كان الشارع ينتهي عند قرية بيت صفافا، القرية العربية المتاخمة للقدس من الجنوب الشرقي التي قسمها الاحتلال عام 1948 إلى قسمين، البيت الواحد فيها انقسم إلى قسمين والعائلة الواحدة انقسمت إلى قسمين: قسم في الضفة الغربية وقسم في القدس التي احتلتها اسرائيل في ذلك الوقت.

تلفّت سلمان إلى خطي السيارات المنطلقة في الأتجاهين، وحدث نفسه:

- سبحان من أحيا هذا الشارع!!

قبل حزيران 1967 لم يكن لهذه المنطقة أهمية تذكر، فهي قريبة من المنطقة الحرام، وهذه العمارة برمتها كانت لعربي، ثم جاء حارس أملاك الغائبين ليضع يده عليها، وها هم يؤجرونها للمهاجرين اليهود بأبخس الأجور، خطر لسلمان أن يفتح حواراً مع ياعيل حول هذا الموضوع، وضع العمود الخشبي فوق البلاط، ثم توجه إلى الداخل، إلى غرفة النوم.

قالت له ياعيل:

- ادخل.

ولكن سلمان تريث قليلاً، وقال يخاطبها من الممر المفضي إلى غرفة النوم:

- يا عيل، كم مضى عليك في هذا البيت؟
- خمس سنوات، كنت أسكن قبلها أنا وزوجي في نتانيا
- ولماذا رحلت إلى هنا؟
- كي أتخلص من شبح زوجي الذي مات في بيتنا هناك، كنت دائماً أراه في الردهة، يعاقر الخمرة، حتى بعد أن مات، كنت حين أستيقظ ليلاً، أراه جالساً يحدق باتجاه البحر ويحتسي الخمرة، مضت ثلاثة أشهر على موته وهذا المشهد يلاحقني عند الغروب، وفي منتصف الليل، حين أصحو، كنت أراه على

الأريكة نفسها التي اعتاد أن يجلس عليها، قررت أن أترك ذلـــك البيت قبل أن أصاب بالجنون.

في هذه اللحظة كان سلمان يقف عند الباب في مواجهة ياعيل التي تجلس على السرير وقد انحسر قميص نومها تماماً، أجفل سـلمان هـو يرى أمامه هذا الجسد المتدفق أنوثة، سروالها الأخضر الغامق كان ضيقاً مثل خيط رفيع تماماً، مثل تلك المايوهات المختصرة جداً التي كان يراها على شاطيء تل أبيب.

قالت ياعيل:

- ادخل، مالك توقفت كالحمار!؟

كيف يدخل وهذه الفتنة بعينها تعربد في مواجهته، جمال صاعق لم ير مثله في حياته، أنوثة متفجرة، ودعوة صارخة، لا يمكن أن يـدّعي عدم فهمها، أو الإفلات من براثنها، ومـع ذلـك حـاول أن يتماسـك، استحضر في جوفه كل دعوات الفضيلة والخلق، وتلا آيات من القرآن، واستذكر تلك الأحاديث عن الرجال الذين يصمدون أمام إغواء شـياطين الإنس والجن، وأبواب الجنة التي ستفتح لهم!

قال لها وهو يستدير متجهاً إلى الممر الخارجي:

- نسيت أن أُحضر الإزميل والمناليج.

تعال هنا أيها الحمار! ألا يعجبك قميص نومي؟

- لا حول ولا قوة إلا بالله!

قالها سلمان، وهو يستدير عائداً إليها.

وأردفت ياعيل:

- تعال، دعني أريك هذه الفساتين!

ونهضت إلى الخزانة، فتحت إحدى دفاتها، وانحنت نحو الجارور السفلي، وبحركة متعمّدة تماماً انحنت تفتح الدرج، أصبحت أردافها العارية إلا من الخيط الأخضر تنتصب في وجهه، وطال انحناء ياعيل، وظل سلمان مشدوهاً يمعن النظر، ويفكر في كيفية التخلص من هذا المشهد العاصف.

ثوان قليلة ويفلت الزمام من يده، فالمشهد برمته يوحي بما سيجر وراءه، لا لن يستسلم سلمان هذه المرة أيضاً، نصف اليوم من العمل لا قيمة له، العوض عند الله، المهم أن يتمكن من الإفلات!

وضع سطل المعجون أرضاً، وقذف بالمالج في اتجاه الحائط، وفي لحظات كان يهبط درج العمارة دون أن يلتفت خلفه، أو يجد متسعاً من الوقت لأخذ العدة، أو حتى إغلاق باب الشقة الذي ظل مفتوحاً على مصراعيه!!

الكـابـوس

لم يكن سلمان التايه ينوي أن ينام، فالجلوس عصراً على بانوراما جبل الطور التي أقيمت عند مدخل فندق الأقواس السبعة، هذه البانوراما المطلة على القدس، في هذا اليوم الخريفي، فيه متعة لا تقل عن متعـــة دخول الجنة، لا يدري سلمان التايه لماذا تسحره رؤية القدس مـــن هـــذا الجانب، غبطة ما تتسلل إلى صدره، وأحاسيس جمة بالإمتلاء والنـــشوة تعتريه، كلما ارتقى إلى هذا المكان، وجلس يملأ رئتيه على اتـــساعهما من دفقات الهواء المنعشة القادمة من فوق مدينة القدس، ها هـــي القبـــة الذهبية تملأ الفضاء روعة وخشوعاً، وها هي الأسوار الخالدة، وها هي المقبرة الإسلامية تحيط بجانبي باب الاسباط، من الشمال مقبـــرة بـــاب الاسباط ومن الجنوب مقبرة باب الرحمة، هكذا يسمونها ربما نسبة إلـــى باب الرحمة، سلمان التايه عقد العزم أكثر من مرة بأن يكتب وصية من سطر واحد لا غير يقول فيه: ادفنوني في المقبرة الإسلامية قرب بـــاب الرحمة أو قرب باب الاسباط.

جلس سلمان التايه على حجر بدا له قديماً، ربما كان من حجـــارة أسوار القدس التي هدمها وبعثرها أكثر من غاز تعـــاقبوا علـــى هـــذه المدينة، واسترخى سلمان تاركاً لشمس الخريف الدافئة أن تعبر جـــسده، نعاس لذيذ كالخدر يسري في دماغه، ولكن عينيه ظلتا تجوبـــان فـــضاء

القدس، استغرب كيف تتزاحم المقدسات الإسلامية والمسيحية في هذا الجانب، هنا تحت قدمي هذا المكان، وفي السفح العميق تماماً، تنتصب الجثمانية حيث تعشى المسيح عشاءه الأخير، وتلك هي الطريق الحادة التي صعدها المسيح وهو يحمل صليبه عبر باب الاسباط إلى طريق الآلام، ومن ثم إلى الموقع الذي تقوم فيه الآن كنيسة القيامة.

كل ذلك بملاصقة القبة الذهبية المهيبة المطلة على الجثمانية، القبة التي تخبئ تحتها الصخرة التي كان اليبوسيون العرب القدامى ينحرون فوقها القرابين قبل ستة آلاف عام فتسيل دماؤها إلى المغارة، هنا كان أول معبد أقامه الإنسان في التاريخ معبد اليبوسيين، ومن على هذه الصخرة بالضبط ومن فوق المغارة المثقوبة لانسياب دم القرابين إليها صعد محمد ﷺ إلى السماء ليلة المعراج.

هكذا يغرق سلمان التايه في التاريخ كلما جلس هنا في مواجهة القدس، لماذا يعبره التاريخ مثلما تعبره أحلام اليقظة، هل القبور هي السبب؟ السفح الجنوبي لجبل الطور، وهو السفح الممتد من الجثمانية إلى وادي قدرون (وادي النار) تملؤه قبور اليهود، قبور تمتد عبر مئة عام فقط في هذه الأرض التي استأجروها من الأوقات الإسلامية لمدة تسعة وتسعين عاماً لتكون مقبرة لهم لقاء دنانير معدودة، وها هي قبورهم تحتل فضاء رأس العامود وفضاء الجثمانية.

وتساءل سلمان التايه عن السبب الذي دعا الأوقاف الإسلامية لتأجير هذا الفضاء المقدس لإيواء جثث اليهود؟؟ وماذا فعلت الأوقاف بتلك الدنانير التي تلقتها آنذاك قبل أكثر من قرن؟ وخطر له أنها تشبه

كثيراً تلك الأعشار من الفضة التي قبضها يهوذا الاسخريوطي لقاء الوشاية بالمسيح في هذا المكان بالضبط على بعد أمتار من مقبرة اليهود؟؟

في هذه اللحظة كان شيء ما كالغمامة يتجمع فوق القبة الذهبية، انه ليس دخاناً، هل هو البراق؟ لا ليس البراق، انه ملاك ذو جناحين فضيين، كان الملاك يصفق بجناحيه صفقات لينة لا صوت لها، يتوازن محلقاً ومندفعاً باتجاه جبل الطور، في اتجاه البانوراما، انه يقف فوق سلمان بالضبط، لم يكن الملاك مخيفاً ولكن سلمان أخذه الرعب وبدأ يرتعش فيما يشبه القشعريرة.

همس سلمان: ماذا تريد مني أيها الملاك البهي؟

- هل تعرف من أنا يا سلمان؟
- كيف لي أن أعرف؟ كنت أحسبك البراق الذي صعد عليه نبينا محمد إلى السماء!!
- لست البراق، إنني عزرائيل!!

ارتعد سلمان واختبأت روحه بعيداً في أعماق صدره، كيف له أن ينجو وقد جاءه ملاك الموت بغتة حتى قبل أن يكتب ذلك السطر من وصيته الذي طالما همَّ بكتابته. ها هو عزرائيل يأتيه في وضح النهار حيث لا مهرب ولا نجاة!

قال سلمان:

- ابتهل إليك! لماذا جئتني هكذا فجأة ودون سابق إنذار؟

قال عزرائيل:

- أي إنذار تريد؟ هل سبق لي أن أنذرت أحداً قبل المجيء إليه؟

قال سلمان:

- لا أدري، ولكن ثمة مؤشرات تتبئ أحياناً عَنْ قـرب مجيئـك، المرض مثلاً!

قال عزرائيل:

- لقد سبق لي أن أنذرتك بالمرض، أنذرتك، ولكنـك لـم تفهـم، كثيرون مثلك لا يفهمون بالإشارة أو بالتلميح، وحين تحل بهـم الواقعة يضجّون. كلكم هكذا يا أبناء آدم وحواء!

بُهِتَ سلمان وازدادت روحه إيغالاً في الهروب، كأنهـا تريـد أن تحتمي بالجسد حتى آخر لحظة.

قال عزرائيل:

- ألا تذكر يا سلمان تلك الأيام من عام 1980 حين داهمك ذلـك المرض الخطير، ورحت تهرول إلى الأطباء، لم يصارحك أحد منهم آنذاك بأنه السرطان، ولكنهم أجروا لك العملية الجراحيـة العاجلة في هداسا واستأصلوا أكثر من نـصف رئتيـك. كنـتُ أتربص بك لحظة فلحظة، ولكن فسحة أخرى من العمر كُتبـت لك، عمر جديد رحت تبدده دون أن تفطن إلى أن هناك أشـياء كثيرة يمكن لك أن تفعلها لإنقاذ نفسك من الكارثة.

كانت ذاكرة سلمان قد تحولت إلى ورقة بيضاء ناصـعة، وأحـس نفسه بلا وزن تماماً، ذرة من هباء توشك أن تتبدد فوق مقابر اليهـود، حقاً ما الذي قارفته بحق نفسك ووطنك يا ابن التايه؟

لم يكن عزرائيل بحاجة إلى أن يعيد على مسامعك كل التفاصيل، هو قرار بسيط وحاسم لو أنك اتخذته، ورفضت ذلك العرض المشؤوم، أين هو المال الذي ورطوك به وجعلك توقع صك البيع لبيت لم تكن تملكه وإنْ كنت تسكنه، أوشكت قبل لحظات أن تشتم الأوقاف لأنها أجَّرّتْ أرضاً لتكون مقبرة لليهود، ونسيت أن الاوقاف نفسها أجّرتك بيتاً لتسكنه فرحت تبيعه. لو أن البيت كان قبراً لك لكان ما يزال بيد الأوقاف، ولكنك تنازلت عنه للحاخام موشيه مقابل أعشار من الورق، ليست ذهباً ولا فضة ولا حتى نحاساً، أين ذهبت بتلك الشيكلات يا سلمان؟ بنيت بها بيتاً في الرام، لو أنك بالسرطان لكان ذلك أهون ألف مرة، كل هذه السنوات التي كتبت لك بعد السرطان، كانت وبالاً عليك، لعنة وفضيحة وعذاباً مقيماً، ففي هذه السنوات قمت بعملية البيع المشؤومة.

كان عزرائيل يحدق في وجه سلمان، جناحاه تنفردان باستقامة مائلة حجبت عن سلمان بقايا أشعة الشمس الغاربة.

- يا للفاجعة! ماذا فعلت بنفسي؟

كل مياه المحيطات تعجز عن غسل الجريمة التي ارتكبت، استنجد سلمان بدموعه، ولكن الدموع غادرته هي الأخرى، استنجد بزوجته ولكنها كانت منهمكة في تلك اللحظة بإعداد الطعام له وللأولاد، أي طعام هذا الذي لن يتمكن من الوصول إل لقمة منه بعد الآن!

قال عزرائيل: ما زلت تحلم بالعودة إلى البيت والأولاد، ما زالت الحياة تناديك ولكن هل تنفعك الحياة في شيء بعد الآن؟ ولو منحت

فسحة أخرى من العمر هل تستطيع إخراج الحاخام موشيه من البيت الذي بعته له في عقبة السرايا؟

- أعدك يا سيدي بأنني سأفعل، سأطرده حتى لو اضطررت إلى قتله، أو إلى تفجير البيت فوق رأسه!!

استغرق عزرائيل في الضحك، كان يسخر من تهديدات سلمان الكاذبة، قال عزرائيل:

- ثم ما الذي فعلته بجارك (أبو العبد) حين احتج على فعلتك، وهدد بإفشاء سر البيع؟

وعادت الأحداث تتوالى أمام عيني سلمان وكأنها شريط مرئي يُعاد بثه أمام عينيه:

جاءه جاره أبو العبد في تلك الليلة التي سبقت عملية التوقيع على صك البيع للحاخام موشيه، كان جماعة الحاخام يترددون على بيت سلمان يوماً بعد يوم، وكان واضحاً أنه يستسلم لعروضهم، ويقنع نفسه بسلامة ما يفعله أسوةً بما فعله آخرون من قبله، ممن وقعوا عقود البيع وتسلموا الأموال واشتروا أراضي خارج القدس وباشروا البناء فيها، وحين تصبح البيوت جاهزة للسكن كانت مسرحية خروجهم من البلدة القديمة يجري تمثيلها بإحكام، تأتي مجموعة من اليهود وتقوم بإخراجهم عنوة أمام الجيران والصحافة والرأي العام، وتبدو المسألة للآخرين وكأن أصحاب البيت قد طردوا منه ظلماً وبهتاناً وتمت مصادرته، دون أن يدري أحد بأن صفقة بيع قد تمت في الظلام، وأن عملية الإخراج المفتعلة لم تكن إلا الفصل الأخير في عملية البيع الباطلة والمحرمة،

الطرفان كلاهما يعرف أن البيع مزور وباطل، فالمستأجر لا يحق له بيع المأجور، ولكن أين هو المنطق في كل ما جرى ويجري في القدس منذ قدوم أول فوج من المهاجرين اليهود إلى هذه البلاد في مطلع هذا القرن؟؟ هكذا أقنع سلمان التايه نفسه بأن البيع باطل، وأنه يضحك على اليهود حين يأخذ منهم أمولاً يشتري بها أرضاً أخرى، ويبني بيتاً أكثر راحة وأوسع فضاءً، وينأى بنفسه عن هذا المسكن الضيق وغير الصحي في باب حِطَّة!!

قال له أبو العبد: ما الذي تنوي فعله يا سلمان، لعلهم أغروك بالمال وأقنعوك بالتوقيع، وقالوا لك إننا لن نتسلم البيت إلا بعد وفاتك، إن الموت أهون عليك من بيع بيتك، فهو وقف من أوقات الله، احذر يا سلمان أن يخدعوك!

وكذبت يا سلمان على جارك، ووقّعت عقد البيع لموشيه، وقبضت المال الحرام، وبنيت مسكنك الجديد في الرام، ومن يومها وأنت تحوم حول القدس كالكلب الضال، تحاذر أن تعبر إلى المسجد الأقصى من باب الساهرة حتى لا تمر بالقرب من موقع الجريمة، من أي زقاق يفضي إلى عقبة السرايا، تعبر إلى الأقصى من باب الاسباط أو من باب العامود، وتحوم حول القدس، تتطلع إليها من بعيد مثل المنبوذ تماماً، تجلس هنا في المكان المطل على الصخرة من جبل الطور أو هناك في المكان المطل على الأقصى من جبل المكبر، روحك تحوم حول القدس وكأنها تكفّر عن الجريمة التي اقترفت.

في الأيام التي تلت توقيعك على صك البيع لم تحتمل نظرات

الاحتقار التي كان يرميك بها جارك أبو العبد، لم تحتمل نظرات العتب والتأنيب، وفكرت في أن أسهل طريقة للخلاص من هذه النظرات القاتلة هي الإيقاع بأبي العبد، التخلص منه إلى أن يحين وقت رحيلك المشؤوم من جواره، شكوت الأمر للحاخام موشيه، وتخلصت من جارك الذي اقتادوه إلى المسكوبية، وحتى هذه اللحظة لا أحد يعلم من أمره شيئاً!

كان لسان سلمان التايه يتخشب كالفعل بين شدقيه، لا يقوى على الكلام، ولا يجد ما يرد به على الوقائع الدامغة التي تعرض أمام عينيه الزائغتين.

وواصل عزرائيل:

- أما الإنذار الثاني يا سلمان التايه، فقد كان حادث السير المروع على طريق القدس الخليل، حين رأيت الموت وسمعته ولمسته بكل حواف جسدك وأطرافك التي تهشمت أو لم تتهشم، ومع ذلك فها أنت تدعي بأنني أداهمك في هذه اللحظة دون سابق إنذار، عبرت إلى الموت بضع ساعات في حادث السيارة تلك، ولكنك لم تعتبر، ولم تتوقف لحظة للالتفات إلى الوراء لمحاكمة أفعالك وفظائعك السوداء، ها أنت ذا تجلس هادئاً تتلمس الدفء، وتحوم بنفسك الخاطئة حول الأقصى لعلك تكفر عن ذنوبك، أو تغسل نفسك في هذا البرزخ الممتد بين السور والطور، تذهب للصلاة، تطيل في السجود حتى بعد أن يرفع المصلون رؤوسهم جميعاً، تبتهل إلى الله، وترفع يديك عالياً إلى السماء في صلاة الفجر، تحسب أن التوبة تنفع في مثل هذه المواقف، ولكن أيَّ توبة يمكن

لها أن تغسل خطاياك، كيف يتهيأ لك أن الله يمكن أن يغفر لـــك إضاعة بيت من بيوت الأوقاف لا يبعد عن ســاحات الــصخرة والأقصى سوى بضع مئات من الأمتار، وتسليمه لليهــود، ثــم الإيقاع بجارك الذي ما يزال حتى اللحظة رهن الإعتقال ولا أحد يدري ماذا حلّ بأهله من بعده؟؟

- لا لن يغفر الله لك ولن يغفر لك الوطن ولن يغفر لك الناس!!

وأحسّ سلمان بأن يداً غليظة تمتد إلى رقبته وتضغط هناك، تضغط بشدة، وحين صحا من غفوته تلك كان رأسه يتدلى فوق صدره، والعرق يتصبب من كل أنحاء رأسه ورقبته، فتح عينيه وحــدق صــوب القبــة الذهبية، كانت الشمس تضرب وجهه بعنف في ذلــك اليــوم الخريفــي الموغل في زمن الاحتلال.

تنفس الصعداء، تنفس بعمق، وحمدلله كثيراً، لأن ما رآه لــم يكــن أكثر من كابوس رهيب سببته جلسته غير المريحة، ورأسه الــذي كــان يتدلى فوق صدره، وأشعة الشمس التي كانت تلهب بدنه.

ولكن سلمان التايه عقد العزم هذه المرة على التوقف طويلاً ليعيــد النظر في تفاصيل سيرته الذاتية كلها، منذ أول لحظة دخل يها المحتلون مدينة القدس، ونفخوا الأبواق في ساحات المسجد الأقصى، وحتى هــذه اللحظة التي يوشك عزرائيل أن يزوره فيها ولكن للمرة الأخيرة حتماً.

الأرض

قال سلمان التايه:

- وأين سنلتقي؟

رد عليه الرجل الذي جاء لرافقته:

- في المصرارة، في موقف التكسيات أمـــام مطعـــم العكرمـــاوي الساعة التاسعة صباحاً.

قال سليان:

- سأكون في انتظارك!

لم يكن سلمان قد اعتاد مثل هذا الموعد المتأخر، التاسعة صباحاً تعني بالنسبة له منتصف النهار، وصل القدس مبكراً، بعض المطاعم والمقاهي لم تكن فتحت أبوابها بعد، وحتى مطعم الحمص والفول هذا الـــذي اتفقـــا على أن يلتقيا أمامه لم يكن قد فتح أبوابه بعد، تمشى سلمان فـــي الـــساحة المعبدة التي تكتظ منذ الصباح البـــاكر بالباصـــات الـــصغيرة وســـيارات التاكسي التي تنقل الركاب إلى أريحا وبيت لحم والخليل، أيام زمان كانت المصرارة مجرد زقاق ضيق تحده الأسلاك الشائكة والأسوار من الغرب، هنا في هذا الموقع الذي يتمشى فيها سلمان كانت أسوار ضخمة وأســـلاك شائكة وبيوت مهجورة وخراب، لقد حولوها الآن إلـــى ســـاحات نظيفـــة وشوارع فسيحة تتوسطها وتحيط بها أشجار النخيل الباسقة، من أين جاءوا بهذه الأشجار التي يزيد عمر الواحدة منها عن أربعين عاماً؟

قال سلمان: لعلهم نقلوها من بئر السبع أو ربما مــن الأغــوار، أشــجار طاعنة في السماء، تبدو للغرباء وكأنها زرعت في عهد صــلاح الــدين الأيوبي أو في عهد السلطان عبد الحميد الثاني أو في عهد الجنرال اللنبي.

تطلع سلمان غرباً باتجاه صفوف النخيل الخمــسة المتوازيــة علــى امتداد الشارع الصاعد إلى النوتردام بمحاذاة سور القدس، وتساءل: هل يبدأ شارع يافا من هناك من قبالة الباب الجديد أم أنه يبدأ من هنــا مــن قبالة باب العامود؟ خطر له أن يسأل أحد السائقين، ولكنه عدل عن ذلك خشية أن يثير سؤاله الضحك، وعاد يتمشى باتجاه الشرق في ملاصــقة العمارة القديمة، عمار هندية تنتصب أمام باب العــامود فــوق الأدراج الصاعدة منه، توقف بالضبط أمام الباب الشرقي المغلق في هذه العمارة، وقد كان باباً للبنك البريطاني، في مواجهته تنتصب أسوار وقباب مدرسة شمدث، تبدو شاهقة تطاول في ارتفاعها الأبراج المحيطة بباب العامود.

استدار سلمان إلى الغرب إلى كنيسة النوتردام حيث ينتصب فوقهــا تمثال العذراء وهي تحمل المسيح على كتفها الأيسر، هذه الكنيسة تناهز هي الأخرى في ارتفاعها أسوار القدس من جهة الباب الجديد، وتــساءل سلمان: لماذا الكنيسة وكلية شمدث؟؟ ولكنه استدار نحو الشمال، حيــث كان يمتد الشارع الضيق المغلق، وهجمت عليه الذكريات، قبل ثلاثــين عاماً كان سلمان يربط حماره في زوايا الأسلاك الشائكة عند نهاية هــذا الشارع، ثم ينحدر درجات باب العامود جنوباً لأداء صلاة الجمعة فــي المسجد الأقصى، وتنهد قائلاً: رحم الله أيام الحمير، لقد استعاضوا عنها اليوم بالسيارات، آلاف السيارات أصبحت الآن تمــلأ شــوارع بلدتــه وأزقتها وليس شوارع القدس فقط.

لم يكن سلمان يدري أن الرجل الذي ينتظره منذ الصباح الباكر ليقوده إلى رجل الأعمال اليهودي الياهو في شارع يافا هو سمسار أراضٍ، كان الياهو قد زاره قبل مدة في الخريف الماضي وهو يقلم أشجار الزيتون في أرضه المطلة على مدينة القدس، كان الياهو يومها يتفقد الأرض المحيطة بأرض سلمان، لا أحد يدري حتى الآن كيف تمكن الياهو من شراء هـذه الأرض الخلاء الواسعة المطلة على القدس، اكتفى الياهو بطرح الـسلام عليه وإعلان استهجانه من اهتمام سلمان بالزيتون، قال الياهو:

- ما الذي ستدره عليك هذه الشجيرات القليلة من الزيتون؟

لم تكن أرض سلمان كبيرة، إنها ستة دونمات فقط ورثها أباً عن جد وزرعها بالزيتون، وهي قطعة الأرض الوحيدة التي بقيت له مـن إرث والده بعد أن قاسمه اخوته الأراضي الأخرى.

حين فتح الياهو باب مكتبه المطل على ردهة السكرتيرة، رحب بهما بحفاوة ظاهرة وأدخلهما إلى مكتبه، وأشار لهما بالجلوس، كانت المقاعد الجلدية السوداء بالغة الطراوة، جلس الياهو في مقابلهما تماماً إلى جوار مكتبه، وقال وهو يضغط زراً أحمر مثبتاً في الطرف البعيد من المكتب:

- نشرب شاياً أم قهوة؟

قال رفيق سلمان: نشرب الشاي!

وقال الياهو للسكرتيرة التي أطلت عليهم من الباب بتنورتها السوداء القصيرة وساقيها البضتين الممتلئتين:

- شاي

توجه الياهو بالخطاب إلى سلمان وبلهجة تعمد أن يلونها بالسخرية:

- كيف كان الزيتون؟

رد سلمان: كان موسماً رديئاً، ولكن هذه حال الزيتون سنة جيدة وسنة رديئة.

وتدخل السمسار: سلمان لا يسمع النصيحة، قلت له أكثر من مرة إنّ الزيتون لا يطعم خبزاً، وأن أية مهنة يمكن أن تدر عليه من الدخل في أيام أكثر مما يعطيه محصول الزيتون في سنة!!

قال سلمان: ولكن عجوزاً مثلي قضى عمره في الزراعة لا يستطيع أن يكون عاملاً، هذا إذا تمكنت من إتقان صنعة ما في مثل هذا العمر المتقدم.

كان سلمان فيما مضى مزارعاً بالفعل، يواظب على زراعة قطعة الأرض التي تمر بقربها مياه جارية، كان يزرعها طوال السنة بالباذنجان والخس والقرنبيط والفجل والبندورة والملفوف وغير ذلك، في موسم عطاء دائم، وغامت عينا سلمان حين هجمت عليه فجأة تلك الذكريات السوداء البعيدة، قبل أكثر من أربعين عاماً دب النزاع بينه وبين صاحب الأرض المجاورة له في موسم أسود، تماماً مثل الباذنجان الذي كان يملأ الأرض، ولم ينته النزاع إلا حين استل سلمان شبريته وطعن بها جاره، ظل يطعنه حتى هوى قتيلاً تختلط دماؤه بالتراب والباذنجان والمياه الجارية، كان نزاعاً دموياً على الأرض، مات فيه هابيل وبقيت الأرض، ولكن سلمان تركها منذ ذلك الحين لأخيه، وحرم على نفسه الدخول إليها أو المرور بقربها حتى لا تذكره بتلك الجريمة،

تنازل عنها لأخيه، واكتفى بهذه القطعة من الأرض في السفح العلـوي لهذا الجبل المطل على القدس، زرعها بالزيتون واختار كهفاً مجاوراً لها ليكون مكاناً لإقامته، وظل يلعن اليوم الذي تنازع فيه مع جاره على تلك الأرض التي حرّم على نفس أن يطأها إلى الأبد!!

قطع الياهو استغراق سلمان قائلاً:

- عندي لك حل أفضل من العمل، ومن كل المهن التي لا أعتقـد أنك قادر على اتقانها في مثل هذه السن!!

حدق سلمان في وجه رفيقه العربي، واسترجع ما كان يحدثه به وهما يصعدان شارع يافا وصولاً إلى مكتب الياهو، كان يقول لسلمان:

- اليهودي يريد أن يراك، لا أدري لماذا بالضبط، انه يؤكـد بـأن مقابلتك له ستكون مفيدة لك، ربما يعرض عليك عملاً في مكتبه، أوعملاً في إحدى شركاته أو معامله، ربما يريـدك مراسـلاً أو مندوب مبيعات، أو حمالاً في أحد المصانع.

ولكن سلمان كان يتساءل: ما سر هذه الشفقة التي دبت في قلب الياهو تجاهي، ولماذا يرق لحالي وهو الذي سخر مني حين زارني آخر مـرة في الأرض قائلاً بأن الزيتون لا يطعم خبزاً!! ولم تفصح عينا رفيقه عن شيء، رغم أن بريقاً ما فيهما كان ينبئ بمعرفته كل شيء.

قال سلمان وهو يحدق في وجه الياهو ويراقب الاضطراب البادي في حركة يديه:

- آمل أن أكون قادراً على القيام بالعمل الذي تريده!

قال الياهو: لا أريد عملاً، ولكن.. اسمع جيداً لما سأعرضه عليك، لا أريد منك جواباً اليوم، لديك اسبوع كامل للتفكير، ولا داعي لأن تـأتي إلى مكتبي لإبلاغي بقرارك، يمكن له ــ واشار إلى السمسار الجـالس إلى جانب سلمان ــ أن ينقل لي جوابك.

في تلك اللحظة فقط عرف سلمان أن رفيقه الذي جاء به إلـى هنـا سمسار أراضٍ وأن الياهو يريد الأرض، وواصل الياهو كلامه:

- اسمع يا سلمان، تعلم أن الارض المحيطة بأرضك أصبحت كلها لي، ستة عشر دونماً كلها لي، لقد أعددت المخططـات الكاملـة لإقامة ضاحية سكنية عليها، ولكن أرضك تخترق أرضي وتحول دون تنفيذ هذا المشروع، دونماتك الستة تقع في قلب المـشروع ولا بد من ضمها لأرضي لكي أباشر العمل، لقد تكلفـت حتـى الآن آلاف الدولارات، ولكن أرضك تعطل علي الاستثمار، مـد الياهو يده إلى فنجان الشاي، أخذ رشفة بطيئة وهو ينقل نظراته بين سلمان والسمسار، ولاحظ أن وجه سلمان يتغير فمـا يـشبه الخوف أو الغضب، فأسرع يكمل عرضه:
- اسمع يا سلمان، سأدفع لك أي مبلغ تطلبه وبالعملة التي تريـدها وفي أي مكان تريد، هنا، في قبرص، في القاهرة، في لندن، في أي مكان، فقط أريدك أن توافق، وبعدها يتم ترتيب كل شـيء، وأعود لأكرر لك، لا أريد جواباً الآن، يمكنك أن تفكـر وتقـدر الثمن الذي تريده، انني أعرض عليك شيكاً مفتوحاً.

ونهض الياهو منهياً الحوار ومنهياً الجلسة لكي يفوت علـى سـلمان

فرصة الرد السريع أو التفوه بأية كلمة، ونهض السمسار وهو يقول لسلمان:

- لا داعي للكلام الآن، يمكننا أن نواصل حديثنا في الطريق!

هذا السمسار الحقير، كيف وصلت به الوقاحة إلى هذا الحد!

كان سلمان يرتجف غضباً واندهاشاً وهو يهبط درجات المكتب دون أن يراها، ودون أن يلتفت إلى السمسار الذي كان يهبط الدرجات وراءه، حدَّث سلمان نفسه:

كيف سمحت لهذا الحقير بأن يقودني إلى هنا لأسمع عرض الياهو؟ كيف لم أفهم منذ البداية أن الياهو لا يمكن أن يريد لي خيراً، ولكنها بعيدة عن أحلامه بعد السماء عن الأرض!!

في شارع يافا سار السمسار مرتعباً إلى جانب سلمان، كان يحس أن النار تشتعل في عيني سلمان وفي صدره، وأنه غير قادر حتى على التلفظ بشيء، فآثر أن يسير إلى جانبه بصمت.

حين اجتازا الإشارة الضوئية على الشارع ما بين النوتردام والباب الجديد توقف سلمان، وحاول أن يسترد قدرته على الكلام، ثم قال للسمسار:

- كيف واتتك الجرأة على أن تفعل بي كل هذا؟ أي شيطانٍ سوّل لك بأن سلمان التايه يمكن أن يبيع أرضه؟ كل أموال الياهو لا تعدل عندي ذرة تارب واحدة، ليذهب مشروعه السكني إلى الحجيم، ليذهب الياهو وأمواله إلى الجحيم، لتذهب أنت إلى ألف جحيم!! هل نسيت أيها الساقط أنني قتلت عربياً ذات يوم من

أجل متر واحد من الأرض تنازعنا عليه. والله لو أعدت لـيّ هذا الكلام مرة أخرى لأذبحنك بالشبرية نفسها التي ذبحت بها ذلـك الجار في ذلك اليوم الأغبر!

وأمسك سلمان الشبرية المعلقة بحزامه وكأنه يريد أن يـستلها مـن غمدها.

وواصل كلامه:

- قل لالياهو بأنه لو جاءني ليعيد عرضه عليّ مرة أخرى فسأمزقه بهذه الشبرية شر تمزيق!!

حاول سلمان أن يجد تفسيراً لهذا الغضب العارم الذي اجتاحه، هـل هو الإحساس بالإهانة؟ هل هو محاولة متأخرة لتبرير تلك الجريمة التي اقترفها قبل سنين طويلة بسب متر واحد من الأرض؟ أم أنهـا محاولـة للتفكير عن تلك الجريمة؟ خامره شعور بالامتنان لله لأنه مد في عمـره لكي يكون بإمكانه أن يقف مثل هذا الموقف المشرف!!

حين التفت سلمان نحو السمسار، لم يجده إلى جانبه ولم يجده خلفـه، لم يجده في أي مكان، كأن الأرض قد انشقت وابتلعته!

- أين ذهب هذا الخسيس؟. إلى جهنم وبئس المصير!!

واصل سلمان طريقه باتجاه باب العامود، كانت أسوار القـدس إلـى يمينه تبدو شامخة تحف بها الخضرة الكثيفة، أما أشجار النخيل فقد بدت له وهو يطل عليها من علٍ باهتة صفراء يحيق الجفاف بسعفها المغبـر الملفوف بأربطة من الخيش اليابس.

كانت السيارات تزدحم عند الإشارة الضوئية التي تفضي إلى الشارع الفسيح المزدوج الممتد شمالاً باتجاه رام الله، هذا الشارع الذي شقوه على أنقاض البيوت العربية المهجورة التي كانت هنا، في المنطقة الحرام.

تساءل سلمان:

- لماذا أطلقوا عليه شارع رقم واحد؟ ترى أين سيكون شارع رقم اثنين؟ ثم همس لنفسه وكأنه يخاطب الياهو:
- لن تفرح يا الياهو أبداً، ولن يقوم مشروعك السكني إلا على جثتي!!

حذاء الشهيد

إحساس ما بالفجيعة كان ينتاب سلمان التايه هـذا الـصباح، حـزن غامض كان يهجم عليه، حدّث نفسه في محاول لاستيعاب هذا الانقباض:

- من أين يأتي الفرح، أوليست الأحزان هي زادنا اليومي؟

ومع ذلك فقد كان حزن هذا النهار ثقيلاً وجارفاً، حين انتهى الـدوام في الساعة الثالثة. غادر سلمان مكاتب الشركة مسرعاً في اتجاه السوق، قرر اليوم، وفيما يشبه الرد على أحزانه الطارئة أن يشتري لابنه طارق الحذاء الرياضي الذي طالما ألحَّ في طلبه، وكان سلمان يماطل شهراً بعد شهر، فالأحذية الرياضية باهظة الثمن وراتبه مندوبَ مبيعات في الشركة يكاد لا يغطي نفقات البيت الضرورية، ولكن طارق الصغير عزيز على قلبه، ويستحق أن يمنحه هذه الفرحة بالحصول على "بوت أديداس".

طارق هو أصغر أبنائه في الصف السابع، وهو الوحيد الذي تبقى في البيت بعد أن تزوجت البنات وغادر الابن الأكبر إلى الجامعة في حلب.

حين اقترب سلمان من المنزل راعه وجود حشد هائل مـن النـساء يتجمهرن في الساحة الخارجية لمنزله وعند المدخل، كتل مـن الـسواد وضجة مبهمة تختلط بأصوات تشبه العويل!!

- ما الذي حدث؟ اللهم اجعله خيراً، اللهم اكفني شر هذا اليـوم.. ولكن الصورة سرعان ما اتضحت لسلمان، تناهى إلى مـسامعه عويل زوجته، وكانت تندب طارق:

- قتلوه... قتلوا ولدي... حبيبي...

كان طارق مسجىّ بين أيدي النساء المعولات، رقيقاً شاحباً تطفو فوق وجهه ابتسامة خفيفة، يرتدي بدلته الرياضية البيضاء المقلّمة بالأخضر التي حوّلها النزيف إلى بقعة حمراء تصبغ كل شيء!!

قتلوه في ساحة المدرسة، كان الطلاب يتجمعون للخروج في مظاهرة، ولكنهم لم يخرجوا، لم يرم أحد منه جندياً بحجر، كانوا هتفون فقط، وكان طارق يحاول أن يرفع العلم..

تماسك سلمان، شق صفوف النسوة، اقترب من الجسم المسجى، قبّل جبينه وخدّيه، أطبق الجفنين والشفتين وتلمس الوجه والصدر والجسد المدّمى، كانت قدما طارق عاريتين، كان "بوت أديداس" ما يزال معلقاً بيد سلمان!

كيف غادرت سلمان دموعه فلم يذرف دمعة واحدة؟ من أين جاءه كل هذا الصبر وكل هذه العزيمة؟

ألقى بالحذاء إلى جانب الشهيد، وأحسّ بجسمه يتحول إلى هيكل عظمي يابس تماماً، لم يعد قادراً على مغادرة جسد ابنه المسجىّ، كانت رغبة عارمة تراوده في أن يستلقي إلى جانبه، يحتضن جسده، يضمه إلى صدره، يغسله بدموعه...

ولكنه نهض واقفاً، حدّق بذهول في وجه زوجته المعولة وكانه يراها لأول مرة، حدّق في النسوة المتحلقات حول الشهيد، ثم استدار بصمت مخترقاً صف النسوة المحتشدات!!

أخرجت الأم الحذاء الجديد، رفعته بين يديها، احتضنته، تساقطت

دموعها تبلله، انحنت فوق قدمي ابنها المسجىّ، وانحنـــت معهـــا نـــساء أخريات رحن يلبسن قدمي الشهيد "بوت أديداس" الذي لم يفرح به حيـــاً، وها هو يرتديه الآن ميتاً!!

ومن جديد احتضنت الأم قدميّ طفلها المسجّى، قدميه المدسوستين في الحذاء، أما سلمان فقد انزوى بعيداً وراء حائط المنزل القـــصي، وراح يستغرق في بكاء حميم، بكاء يلمؤه العويل والإحساس الفادح بالفجيعة!!



أوراق سـلمـان التـايه

جسر العـودة

ـ 1 ـ

رحلة العودة إلى الوطن عبر جسر اللنبي مرادفـــة للعـــذاب والإذلال، ففيها ينحشر الذاهبون إلى الوطن في الباصات مثلما ينحشر الـــدجاج فـــي الأقفاص المغلقة، فالرحلة من عمان إلى القدس كانت قبل حزيران 1967 تستغرق ساعة وبضع الساعة، أما اليوم وحتى بعد أوسلو فهي تـــستغرق من أربع ساعات في الحد الأدنى إلى 12 ساعة وربما أكثر من ذلك.

في رحلتي الأخيرة من عمان إلى القدس طالت مدة بقائنا في الأقفاص حتى بعد أن عبرنا الجسر الخشبي، قلت لنفسي، وأنا أراقب الناس فـــي صف الباصات المنتظرة:

- اللهم إنا لا نسألك رد القضاء ولكن نسألك اللطف فيه، لو كنـــت أملك على الأقل أن أحمل كتاباً أقطع به الوقت!!

قلت لعجوز كان يجلس إلى جانبي صابراً محتسباً وكأنه يذهب للقاء ربه:

- هل ثمة شعب يمكن أن يحتمل مثلنا هذا الذل؟

قال العجوز:

- لولا أننا نستحق ذلك، لما فعل الله بنا كل هذا!

ثم أضاف:

- الله غاضب علينا يا ولدي!

وهكذا تحولت معاناتنا في الباصات إلى مسألة كونية لا نملك لها رداً!!

كان الركاب قد نزلوا من الباصات بحثاً عن تغيير ما، أربع ساعات مضت وإذ بالإشاعة تسري بين الجميع، السبب هو خراب الحاسوب، خلل ما أصاب الحاسوب ونحن ندفع الثمن من عمرنا وطاقتنا وكرامتنا وكل هذا العذاب في الباصات وخارجها.

الحاسوب هو السبب، ولكن ما الذي منعهم من إيصالنا إلى الاستراحة بدلاً من إبقائنا في هذه الأقفاص التي ترشح حرارة وعرقاً وضيقاً وأعصاباً متفجرة؟

في هذه الأثناء كانت ألفة ما قد سرت بين ركاب الباص ولا سيّما في المؤخرة، كانت عائلة وربما عائلتان قد دب بينهما الانسجام، وكان لأحد الشبان صوت جميل ويبدو أنه اعتاد الغناء في مناسبات عائلية، فأخذ صوته يصدح بالغناء وبدأت الفتيات يرددن لازمة الأغنيات، واستبد الطرب باحدى الصغيرات، وكان لها صوت جميل أيضاً فأخذت تغني مع الفتى وترقص، وهكذا تحولت رحلة العذاب في هذا الجو الخانق إلى رحلة يعمها الغناء والطرب.

سائق الباص أعجبه صوت الفتى المغني فاستدعاه إلى المقدمة وناوله الميكرفون (الذي يستعمله عادة الدليل السياحي) وانطلق صوت الفتى عبر مكبر الصوت، وكانت الساعة قد جاوزت السابعة مساءً وألوان الليل الشهباء بدأت تهبط نحو التلال المحيطة بنا على الجانب الغربي من نهر الأردن.

كان الفتى ينتقي كلمات أغنياته، فبدأ بالموشح الاندلسي الشهير الذي تغنيه فيروز:

جاءت معذبتي في غيهب الغسق

كأنها الكوكب الدريّ في الأفق

فقلت نورّتني يا خير زائرة

أما خشيت من الحرّاس في الطرق

فجاوبتني ودمع العين يسبقها

من يركب البحر لا يخشى من الغرق

كنا فعلاً في بداية الغسق، وكنا نركب البحر، نردد لأنفسنا ذلك المثل الشعبي: يوم الطحان يوم، ومن يركب البحر نحو الوطن عليه أن يتوقع كل أنواع الغرق: الغرق في ذل الانتظار وسوء المعاملة، الغرق في الإهانات، الغرق في تحقيق المخابرات، وأخيراً الغرق في بحر من العرق وقيظ الأغوار!!

ثم انحرف الفتى المغنّي فجأة نحو أغنية شعبية لبنانية اشتهرت كثيراً وشاعت في الآونة الأخيرة، وهي أغنية "عالهوارة"، وهل نحن في شيء غير الهوارة؟

غنّي الفتى:

عالهواره الهواره ويا عيني عالهواره

جينا نزورك يا وطن وهيدي آخر زيارة

وهيدي آخر زيارة

قلت لنفسي: ترى هل تكون آخر زيارة حقاً؟ أم أن الفتى كان يأمل أن تكون آخر زيارة من مثل هذا النمط من الزيارات؟

جسر العـودة

ـ 2 ـ

كانت الحافلة المتجهة من نقطة العبور الأردنية إلى جسر اللنبي، وهي الأخيرة لهذا اليوم توشك على التحرك حين صعد ذلك الشاب بلهفة من يستدرك فرصة كادت تفوته، جلس إلى جانبي، وقال وهو يشير إلى جواز سفره الذي يمسكه بيده:

ما يزال الجواز ساخناً، فما إن استلمته من دائرة الجوازات حتى كنت أتجه إلى الجسر بسيارة خاصة كي ألحق بهذه الحافلة!

وتنفس الصعداء، كانت فرحة ما تغمر وجهه رغم أشباح الحزن المطلة من عينيه.

لم أكن راغباً في فتح حوار معه، فجو الحافلة كان مختنقاً بالحرارة التي تبعث على الضيق، وجاء هذا الرجل ليزيد ضيقي، بجلوسه إلى جانبي على الرغم أن معظم مقاعد الحافلة كانت خالية.

وأضاف: عدت إلى عمان يوم أمس من الصين بالطائرة!!

قلت لنفسي: وهل يمكن أن يعود أحد من الصين بغير الطائرة؟

واستطرد: أنني أعمل بحّاراً، وقد مضى عليّ في البحر أربع سنوات، كيف يمكن لأحد أن يطيق البقاء في البحر أربع سنوات متواصلة؟

قال: كنا ننزل في الموانئ اسبوعاً أو أقل ثم نعود إلى البحر، هل تعلم أن البحر أرحم من العودة إلى وطن مخرّب!!

قلت له: ولكنك تعود!!

قال: خشيت أن يفوتني قطار الزواج، ألا ترى أنني أوشك على عبور الثلاثينات، وفيها تبدأ (عنوسة) الرجل!!

لاحظت أن الرجل ماضٍ في حديثه رغم عدم اهتمـــامي بالاســتماع إليه، قلت لنفسي يبدو أن هدير البحر يحول دون حوار البحَّارة فيصيبهم بهوس الحديث والثرثرة حال نزولهم إلى البر!!

وأضاف البحّار: هذا الوطن حوّلوه إلى مزبلة كبرى، إلى بؤرة مــن التخلف، لولا رغبتي في الزواح من احدى بنات قريتي لفضلت البقاء في البحر إلى الأبد، ولم أسأله عن اسم قريته.

حين نزلنا من الحافلة عند المعبر المحتل فتحت السماء أبوابها، هكذا فجأة فيما يشبه المطر الموسمي، كنا نوشك على الغرق، وقد خيل إليّ أن البحر ما يزال يلاحق هذا الرجل ويلاحقنا معه.

عند نوافذ العبور المرقمة والمعلقة عليها أسماء المناطق الفلسطينية: أورشليم، نابلس، الخليل، رام الله، غزة، افترقنا، ذهبت إلى معبر القدس، وذهب البحّار إلى معبر نابلس.

ولكننا عدنا لنجتمع معاً في دهليز ضيق يشبه الزنزانـــة بانتظـــار ان يستدعينا ضابط المخابرات؛ كلاًّ على حدة، وحين خرجت مــن غرفـــة التحقيق كان البحار ما يزال في الدهليز ينتظـــر أن يـــستدعيه ضـــابط المخابرات ليسمح له بالعبور إلى الوطن.

ولا أدري هل عبر الرجل إلى نابلس، أم أنه عاد إلى عمان ليـــستقل الطائرة إلى الباخرة التي تركها في أحد موانئ الصين!!

– 3 –

أصر صديقي سعيد حمدان على استقبالي في استراحة القادمين من جسر اللنبي إلى الضفة الغربية، تقع هذه الاستراحة على بعد كيلومترين شرق أريحا، وفيها يتجمع القادمون من الجسر أو المغادرون إليه.

كان سعيد قد عاد لتوه من شيكاغو إلى قريته القريبة من رام الله لزيارة صهره المريض، وتفقد شؤون عقاراته وأملاكه في إحدى قرى شمال القدس.

حين نزلت من الباص كان سعيد يقف في انتظاري، ولكن لحيته الكثة التي يتخللها الكثير من الشيب جعلت عينيّ تتوهان لحظة عنه، وحتى تتكرانه.

- ما الذي فعلته بنفسك يا رجل، من أين جاءك كل هذا الشيب وأنت في هذا السن؟؟

ابتسم سعيد ونظر إلى نظرة ذات معنى، هل كان يقصد أن يقول إنها الغربة وشجونها، أم أنه يقصد الاحتلال وما جره على الناس ولا سيما أصحاب الأملاك الغائبين عنها في المنافي؟

بعد أن انطلقت بنا سيارته المستأجرة قال: سنذهب لتناول الغداء في أريحا.

اليوم أدخل أريحا لأول مرة بعد غياب دام سبعة وعشرين عاماً.

كانت أريحا في الذاكرة مدينة تعج بالناس، من أهلها ومن سكان المخيمات المحيطة بها، ومن المقيمين الآخرين، موسري المدن المجاورة الذين يملكون عادة بيتاً آخر في أريحا يقضون فيه فصل الشتاء أو نهايات الأسابيع طوال الشتاء والربيع.

ولكن أريحا كانت مقفرة، يتجول الحزن في شوارعها الخاوية، وفي مقاهيها ومطاعمها لم يكن ثمة أحد غير العاملين فيها أو زبائن يشغلون طاولة هنا أو هناك.

والخروج من أريحا عبر الحاجز المفضي إلى القدس ليس كالدخول إليها من معبر جلس اللنبي، فالخروج من الحمّام ليس كالدخول إليه، هكذا قالوا، وهكذا هو الأمر في أريحا التي تشبه كثيراً الحمّام التركي أو الغرفة الحارة فيه التي يسمونها "بيت النار".

على الحاجز العسكري للخارجين من سدوم، كان ثمة جندي سافل هوايته تعطيل الناس وتعكير مزاجهم. فحص أوراقي وأوراق سعيد وجواز سفره الأمريكي، وقرر أن السيارة غير مسموح لها بالعبور إلى القدس. انتظرنا حتى جاء الضابط المسؤول، تطلع في السيارة، ولفت انتباهه جريدة كانت ملقاة على التابلوه الخلفي، جريدة "شيكاغو صن تايمز"، طلب الضابط الجريدة من سعيد، ثم أخذ يتفحصها بلهفة غامرة وكأنه يقلب ضفائر أو ملابس حبيبة يقابلها فجأة بعد غياب طويل، في داخل الجريدة كان ملحقها الرياضي تزينه صورة لفريق شيكاغو بولز، قال الضابط:

- هل يمكن أن تعطيني هذا الملحق؟

قال له سعيد:

- من أين أنت؟

قال الضابط الاسرائيلي: أنا من دير فيلد Deerfield

قال سعيد: من مدينتة سكوكي بالتأكيد؟

وهز الضابط رأسه ايجاباً، وأضاف وهو يناولنا الجريدة ناقصة الملحق:

- سَغْ (كلمة عبرية معناها امشِ)

وعبرنا إلى القدس، كان جبل قرنطل يرمقنا بحزن، فيما بقايا أشعة الشمس الهابطة من ورائه تتدفق كليلة واهنة تخالطها ظلمة بدأت تتسلل من الأفق الغربي.

ولكن الطريق إلى القدس لم تكن سالكة تماماً، فهناك حواجز أخرى لا بد من المرور عبرها، وآخرها حاجز رأس العامود على المدخل الشرقي للمدينة المقدسة.

– 4 –

حين اجتمعنا لتقسيم الميراث لم نكن نعتقد أننا سنواجه كل هذه الصعوبات، فالميراث نفسه لم يكن كبيراً، قطعة ارض تزيد قليلاً من الدونمين مقام عليها بناء صغير كان يصلح سكناً للعائلة حين تم بناؤه قبل خمسة وثلاثين عاماً.

كانت الصعوبة في أن نلتقي نحن الورثة وعددنا ستة، أربعة منا كانوا شرقي النهر واثنان ظلا هنا تحت الاحتلال، ولذلك فهما يسيطران على الميراث، مات والدنا قبل خمسة عشر عاماً أما الوالدة فقد ماتت قبل خمس سنوات.

كنا نعتقد أن المسألة في غاية السهولة، حصر إرث على الطريقة الإسلامية، ولجنة خبراء لتخمين ثمن الأرض بما عليها من أشجار مثمرة وثمن البناء، ولكننا وجدنا أن أحد الورثة بنى له بيتاً فوق البناء القديم وأضاف بيتاً آخر ملاصقاً له، أما الأخ الثاني فقد أقام بيتاً له في جزء من الأرض يحاذي الشارع العام.

لأول وهلة اعتقدنا أن لجنة الخبراء ستقوم بحسم المسألة بسهولة ويسر، تخمّن ثمن الارض وثمن العقار، ويقم كل واحد من الأخوين بدفع الحصة المترتبة عليه للورثة.

حين قدّمت لجنة الخبراء تقريرها سارع الأخ الذي أقام منزله فوق البناء العائلي القديم وفي ما جاوره، إلى رفض تقرير اللجنة بحجة ارتفاع سعر التقدير، رغم أنه هو الذي اختار أعضاء اللجنة، ثم قام

بتعيين لجنة ثانية ثم لجنة ثالثة وأصبح لدينا الآن ثلاثة تقارير لثلاث لجان مختلفة قيل إنَّ واحدة منها لم تطلّع على تقرير الأخرى!

قلنا إن ذلك سيسهل الحل، وما علينا إلا أن نقوم بجمع أرقامم التقارير ثم تقسيمها على عددها، فيكون لدينا متوسط حسابي عادل يقبل به الجميع، ولا سيما أخونا الذي اعتدى على العقار وأقام منزليه عليه، وظل يسكنهما طوال هذه المدة أي ثمانية وعشرين عاماً بالتمام والكمال.

ولكن هذا الأخ رفض متوسط التقادير وحسم النقاش بقوله: لا بيع ولا شراء ولا حل!!

قلنا لأنفسنا نتسلح بالصبر والأناة والنفس الطويل، وانتظرنا إلى أن جاء الفرج، وأصبح بإمكان المرء أن يقطع النهر ويأتي إلى هنا سائحاً بعد أن كان يأتي زائراً بتصريح خاص من المحتلين.

أخيراً اجتمعنا، ولكن الاجتماع كان مشوباً ببعض الأقارب، بدأ الحوار هادئاً، ولكنه سرعان ما احتد فهذا يتدخل بكلمة وآخر يتدخل باقتراح، وثالث يقاطع بتعالٍ تفوح منه رائحة الوقيعة، إلى أن تحول الحوار إلى صياح، وهاجت النفوس وتوترت الأعصاب وتحول النقاش إلى شتائم مقذعة، وكان لا بد من رفع الجلسة بحجة تأخر الوقت وضرورة التوجه إلى النوم، وقررنا أن نعقد جلسة أخرى لا يكون فيها أحد من الأقارب!!

في هذه الجلسة عقدنا اتفاقاً بأن نكون أخوة طيبين، وبالنوايا الأخوية الطيبة، وبالتسامح، يمكن لأكثر الأمور تعقيداً أن تُحل.

بدأ أخونا صاحب البيتين بشرح الملابسات التي قادته إلى فعل ما

فعل، وهو إقامة بيتين في العقار المشترك، واحد لسكناه وآخر ما يــزال يؤجره لطبيب من القرية.

وقال: يعلم الله أنني أُحسّ بالندم الشديد لأنني فعلت ذلك.

قلنا: لقد هانت الأمور فالندم هو بداية الاعتراف بالــذنب، وبالتـــالي الاعتراف بحقوق الآخرين، والاستعداد لدفعها.

ولكنه أضاف ليس من حق أحد أن ينازعني في منزلي، فالأرض لكم أما المنزلان فهما من حُرّ مالي.

وحين سألناه: وماذا عن العقار القديم، قال: إنه لا يساوي شيئاً وأنـــه على استعداد لشراء هذا القسم (بـــأبخس الأثمـــان) أمـــا الأرض التـــي أصبحت غير صالحة لأي سكن إضافي فهي لكم وأنتم أحرار في فعل ما ترونه فيها.

احتد أخي الآخر، وأحس بأنّ الحوار مع هذا الجشَع المتجـسد فـــي مخلوق يربض أمامهم كالثعلب غير مُجد، فسارع إلى سحب سكينة، لـــم نكن نعلم طوال هذا الوقت أنه يحملها تحت حزامه.

صحنا به جميعاً بصوت واحد:

- مهلاً مهلاً فالأمور لا تحسم بهذه الطريقة ونحن أخوة.

قال أخونا وهو ما يزال يشهر سكينه:

- الذي يأخذ حقك خذ روحه!!

في هذه اللحظة سمعنا طرقاً خفيفاً على الباب، أصخنا السمع، فتكرر الطرق، قام أحدنا ليفتح، وكانت المفاجأة التي لا تصدق، كان والدنا يقف

على باب المنزل شبحاً شديد البياض، يداه شمعيتان، ووجهه شمعي، أما عيناه فكانتا تلمعان بدمع يكاد ينهمر:

قال والدنا:

- ما عهدتكم هكذا، ماذا تفعلون؟ وأين تذهبون من الله والناس؟ أكان لا بد أن تزعجوا منامي هناك؟.

أطرق أخي الذي يحمل السكين برأسه خجلاً، وظللنا نحدق في الوالد، مد يده إلى جيب سترته، وأخرج ساعته الفضية التي طالما فتحها أمامنا وعلّمنا بواسطتها معرفة الوقت، فتح ساعته وحدّق بها تحت وابل الضوء الذي انهمر منه علينا وقال وهو يطبقها ويعيدها إلى جيبه:

- لقد تأخر الوقت، حاذروا أن يصل خلافكم إلى حد القطيعة، ليس في الأمر ما يستحق ذلك، وانسحب الضوء وأغلق والدنا الباب وأطبق السكون، وسادت المكان ظلمة خفيفة.

رمقت أخي الجشع بطرف عيني، وحين لمحني أنظر إليه رفع يديه نحو السماء وقال:

- رحمك الله أيها الوالد الصالح، الفاتحة لروحه الطيبة!

وقرأنا الفاتحة جميعاً وعدنا إلى الصمت، كانت زيارة المرحوم لنا أكبر شأناً من الميراث كله، وأحسسنا جميعاً بمدى صغارنا وتهافتنا على الدنيا، كما أحسسنا بأن هذه الزيارة نذير شؤم، فليس يبعث الموتى من قبورهم غير شأن عظيم.

أسقط أخي الخنجر من يده، كان ذهول الصدمة ما يزال بادياً على

وجهه، ويداه ترتعشان بشكل متواتر، وعلى الرغم من أن قواه كانت شبه خائرة، إلا أنه نهض واقفاً وقال بصوت مرتعش:

- أنا مسامح، لا أريد شيئاً من هذا الميراث اللعين.

قال أخي الآخر: وأنا مسامح!

قلت لهم: تسامحون من؟ هذا الثعلب اللابد في ثياب ناسك!

قالا: نسامح من أجل روح والدنا، إكراماً لزيارته لنا

قلت لهم: ولكنني لن أسامح!

صحيح أن ليس هناك سلطة أو محاكم تفضُّ النزاع، ولكن أن نترك لهذا الوغد كل شيء فذلك أمر غير وارد على الإطلاق، بالنسبة لي على الأقل!!

وانفض اجتماعنا على غير اتفاق. ولا أحد منا يدري هل تم رفع الجلسة من أجل حل قادم، أم من أجل استئناف النزاع، ربما بغير الخناجر في المرة القادمة.

– 5 –

كان الجو بارداً وماطراً، واسراب اليمام البري يطاردها الهواء، فلا تلبث أن تغادر حافة سطح عمارة إلى حافة سطح عمارة أخرى، ثم تقفز من على سلك كهربائي إلى سلك كهربائي آخر.

من أين يأتي كل هذا اليمام البري؟ في منزلي السابق، في وادي الحجر بالزرقاء، اعتادت يمامة برية أن تصنع عشها على نافذة حمّام غرفة نومنا، منذ أكثر من خمس سنوات وهي تبيض وتفقس هناك، وتكبر فراخها ثم تغادر، تعود برية رغم ولادتها في المدينة على نافذة عمارة في الزرقاء.

في زيارتي الأخيرة ليافا طلبت من صديقي الذي كان ينقلني بسيارته عبر بقايا الوطن أن يمر بي على خرائب القرى العربية التي سلمت بعض منازلها من جرافات القادمين الجدد. كان الحمام هو الحياة الوحيدة اتي تفيض بها هذه الخرائب، أسراب من الحمام لا نهاية لها كانت تحط أو تحلق فوق خرائب البيوت.

قلت لصديقي: لا شيء أكثر التصاقاً بالوطن من الحمام، أصحاب المنازل غادروها ولكن الحمام لم يغادر، الحمام هو الكائنات الوحيدة التي لا تبرح مساكنها إلا إلى السماء أو إلى المذبحة، هذه الكائنات اللطيفة الودود يجب ألا تذبح، وتذكرت المعرّي وفرخ الحمام الذي طبخوه له، وحمامة نوح وغصن الزيتون، والحمام الزاجل، ثم حدقت

طويلاً في هذا الحمام الهاجع هنا، في هذه الخرائب الكنعانيـــة الهرمـــة، ربما منذ خمسة آلاف عام.

أما اليمام، هذا الطائر العصي على التدجين، فهو على النقيض تماماً، إنه يصر على أن يظل برياً!

تساءلت وأنا أراقب زوج اليمام الذي يمارس مطاردته الحميمة:

- لماذا يظل اليمام برياً؟؟

هذه الأنثى تضع بيضها حتماً هنا في هذا الحي، على حافة نافذة أو قرب مدخنة أو بين أعمدة التهوية الاسبستية.

كانت مطاردة اليمامتين تسترعي انتباهي كلما اقتربتا من مدى شرفة منزلي الغربية المزججة، استقرتا لحظة على سلك الكهرباء، وادخل كل منهما منقاره في فم الآخر، كأنهما يستغرقان في قبلة طويلة، كان منقاره الأعلى يدخل بعيداً في فمها، ومنقارها الأسفل يدخل بعيـــداً فـــي فمـــه، استمرا كذلك لحظات، ثم طارت الأنثى ولحق بها الذكر إلى شرفة أخرى أو سلك كهربائي آخر.

حين عدت من عملي بعد الظهر، كان الجو ما يزال ماطراً ومكفهراً، توجهت إلى غرفة النوم، ومن شباكها المطل على الشرفة الشرقية غيـــر المزججة ألقيت نظرة، كانت اليمامة ترتمي على بـــلاط الـــشرفة جثـــة هامدة، حدقت فيها بأسى، كانت هبات الهواء تحرك ريشها، راودني أمل مفعم بالحزن في أن تكون فيها بقية رمق من حياة، فتحت باب الـــشرفة، قرفصت فوقها، حدّقت، كانت قد فارقت الحياة، كان عنقها أزرق مدقوقاً، رفعت بصري باتجاه زجاج النافذة، فإذا ببقايا ريشها ما تـــزال عالقـــة

بالزجاج، قلت لنفسي: لقد أعمت المطاردة الجنسية بصرها فارتطمـت بزجاج النافذة فدقّت عنقها!!

برفق لا شعوري، وكأن اليمامة ما تزال حية، أمسكت بجناحها، ثـم طوحت بها بعيداً عن الشارع حيث الأكوام المتراكمة من زبالة الحي.

وحين أغلقت باب الشرفة كان ثمة قط أربد يتجول عبر أكـوام الزبالـة ويحاذر أن يبتل المطر!!

– 6 –

نهضت هذا الصباح مبكراً رغم الأرق الذي شدّني حتى ساعات الفجر الأولى، ربما الثانية صباحاً، أمضيت الليل وأنا أتخيل جو لقائي بها والحوار الذي سيدور، والحكايات التي سأرويها، والركن الذي سنختاره لجلستنا في صالحة الفندق الوطني بالقدس.

كنت قد التقيتها يوم الأحد الماضي في سيارة الأجرة المتجهة من رام الله إلى أريحا، الصدفة وحدها جعلتني أجلس إلى جانبها، تهيبت قليلاً قبل أن أدير معها حواراً، انتهى بأن نتبادل أرقام الهواتف لعلنا نلتقي ذات يوم.

معظم اللقاءات العابرة في السيارات أو الطائرات أو المطارات، وأحياناً في الندوات والمؤتمرات، تنتهي بتبادل بطاقات التعريف التي تحمل العنوان وأرقام الهواتف، ولكن نادراً ما يتصل أحد بالآخر، بل نادراً ما يتذكر المرء أصحاب هذه البطاقات حين يعود إليها بعد حين وهو (يعشّب) أوراقه الخاصة.

أما لقائي بها فسرعان ما تبعه اتصال، كنت كلما هممت بمهاتفتها راودني خاطر ما بالتريث لعلها تكون البادئة. وذلك ما حدث، فقد اتصلت مساء أمس وأبدت رغبة واضحة في أن نلتقي في صالة الفندق الوطني بالقدس.

بالنسبة لها لم يكن ثمة مشكلة، فالمسافة بين سكنها وبين الفندق الوطني تحتاج فقط إلى عشر دقائق من السير على الأقدام، أما بالنسبة

لي فالمسألة مختلفة تماماً إذ يتوجب عليّ أن أنهض مبكراً لأصل أولاً إلى المنارة وسط مدينة رام الله، ثم أركب سيارة الأجرة إلى القدس مروراً بحاجز الرام الشهير.

كان موعدنا في العاشرة، وقبيل التاسعة كنت أستقل سيارة الأجرة من رام الله إلى القدس، الوصول إلى باب العامود يحتاج في الأحوال العادية إلى عشرين دقيقة على الأكثر، فيكون لدي متسع من الوقت للوصول إلى الفندق الوطني ربما قبل وصولها بعشر دقائق على الأقل.

لم أكن أتوقع أن يحتاج (حاجز) الرام إلى كل هذا الوقت، فعلى غير عادة كان صف السيارات التي تنتظر العبور إلى القدس يمتد طويلاً ليصل إلى مفرق الرام، هل هو مزاج الجنود المكلفين بفحص الهويات والتصاريح، أم هو ازدحام غير عادي بمناسبة نهاية الأسبوع أم أنه حظ لقائنا العاثر؟

تجاوزت الساعة التاسعة والنصف، وما يزال بين سيارتنا وبين الحاجز رتل طويل من السيارات، مضت عشر دقائق أخرى ولم يصلنا الدور، ثم عشر دقائق أخرى، وها هي الساعة تقارب العاشرة، حين وصلنا كان تصريح السائق سليماً وكذلك هويات الركاب باستثناء راكب واحد لم يكن يحمل تصريح عبور إلى القدس، كان يحمل بطاقة رام الله ويبرز من تحتها بطاقة أخرى زرقاء تخص زوجته، ظناً منه أن بطاقتنها ستساعد في إقناع الجندي بالسماح له بالعبور، ولكن الجندي انتفض وصادر البطاقتين وأننزل الرجل من السيارة، تحرك سائقنا قليلاً فاسحاً الطريق للسيارات الأخرى في انتظار أن تنتهي مشكلة الرجل فيعود إلى مقعده ونواصل الإنطلاق إلى القدس.

- أي حظ عاثر هذا؟

قلت لنفسي وأنا أتمزق قهراً وغضباً، هل كتب علينا أن نتحمل أوزار الاحتلال، وندفع ثمن أخطاء الآخرين أيضاً؟؟

حين جاوزت الوقت العاشرة ببضع دقائق طلبت من السائق أن يترك الراكب لمصيره لأننا جميعاً مرتبطون بمواعيد، وأشرت بيدي إلى الركاب الآخرين لعلهم يدعمون موقفي، ولكن السائق تجاهل ندائي وظل يلتفت إلى الراكب العجوز، ولم نغادر الحاجز إلا بعد أن تجاوزت الساعة العاشرة والنصف، وحين صعدت درجات الفندق الوطني كان الوقت قد تأخر كثيراً عن موعدي معها.

جلت بعينيّ في أنحاء الصالة، ثم صعدت إلى الطابق العلوي، لعلها تكون في المطعم ولكن لا أحد، هبطت مجدداً إلى صالة الفندق لم يكن ثمة أحد أيضاً.

على طاولة في الزاوية البعيدة كان فنجان قهوة يبدو قد فرغ لتوه، تلمسته كان ما يزال فاتراً وعلى حافته بقايا أحمر الشفاه.

ترى كيف سأقنعها بأن الحاجز هو الذي أفسد علينا هذا الصباح، وأنه هو الذي أحال لقاءنا المنتظر إلى كومة من الرماد والحزن والإحباط؟؟

– 7 –

بعد أقل من عام من العودة إلى الوطن كان لا بد لي من البحث عن عمل، فتحويشة العمر التي كنت أظنها تكفيني دهراً تناقصت بشكل باهظ، هنا مقبرة النقود ومقبرة الأحلام كذلك، حين خيّروني بين البقاء في المنفى أو العودة إلى الوطن، قلت: لا شيء يعدل الوطن، والثروة التي أفنيت عمري في جمعها تكفيني لشراء شقة فخمة، وإكمال نصف ديني، والبدء بمشروع ما أتدبر منه معاش أيامي المتبقية.

كنت قد فقدت زوجتي في أثناء عودتنا من الكويت، في الطريق الصحراوي ماتت زوجتي كمداً على فراق "النقرة" وجارتها هناك، كانت الدموع تنسكب من عينيها كالمزاريب، هل كانت تبكي بيتها الذي تركته في "النقرة" أم كانت تبكي نفسها حتى قبل أن تموت؟

دفناها في الصحراء، ومضينا دون أن يكون لدينا متسع لمعرفة سبب وفاتها، ولكن الجميع جزموا بأنها ماتت بالجلطة حين تأكد لها بأن الكويت أصبحت بعيدة مثلما هو الوطن بعيداً!!

لم يكن البحث عن عمل هنا بالمسألة السهلة، فهوية الضفة الغربية التي أحملها أصبحت بعد الانتفاضة وإغلاق أبواب العمل الإسرائيلية في وجوه الناس، رمزاً للبطالة والجوع ومدعاةً للملاحقة والسجن.

قال لي صديقي الذي يحمل هوية القدس:

- تستطيع العمل معي في البلاط؟

قلت له:

- وكيف لي أن أعمل في البلاط وقد قضيت عمري كاتباً في بلدية الكويت؟

قال صديقي:

- إما أن تعمل معنا في البلاط أو تموت جوعاً.

وأضاف:

- يمكنني أن أعلمك الصنعة، بضعة ايام وتصبح معلماً، في البداية يمكنك أن تقوم بإعداد خلطة الاسمنت والرمل ونقل البلاط.

وافقت صديقي على مضض، ليس لأنني غير قادر على العمل، ولكن لأنني كنت أخشى الذهاب كل يوم إلى تل أبيب أو نتانيا أو حتى تلبيوت في القدس دون أن يكون لدي تصريح عمل.

قال صديقي:

- مقعدك معنا في السيارة سيكون في الصندوق الخلفي (الطمبون) مع العدة وملابس الشغل والأشياء الأخرى!

قلت:

- لا بأس، ما دام ليس هناك خطر من موتي اختناقاً كما حدث مع رجال غسان كنفاني.

ولكن الاستلقاء في الطمبون، كالفروج المشبوح على السفود، لم يكن سهلاً على الإطلاق، وحتى ولو لم تكن هناك أية أدوات أو أغراض أخرى.

في الصباح، وخلال نصف الساعة الأولى من السفر يظل الوضع

مقبولاً، ولكن الحرارة في الصندوق سرعان ما ترتفع ويصبح الجو خانقاً بشكل لا يطاق، ولكن ما الحيلة؟

كان إحساسي بالخوف وأنا أنبطح مقرفصاً في صندوق السيارة أشد من إحساسي بالإهانة، فلقمة الخبز قد تصنع الإنسان في مواقف أكثر رداءة من الاختباء في طمبون سيارة.

كانت الأجرة التي أتقاضاها لقاء عملي السري في البلاط لا تساوي نصف الأجرة التي يتقاضاها العامل المعلن، حامل هوية القدس الذي يجلس إلى جانب السائق غير هياب ولا وجل، فلا أحد يمكن أن يلقي عليه القبض ومن ثم يسوقه إلى السجن أو الغرامة.

كان وقوف السيارة عند حواجز التفتيش يعني بالنسبة لي ما هو أشد هولاً من كتم الأنفاس، انه يعني أن تتصبب عرقاً، وأن تقرأ سورة ياسين وقريش والإخلاص والفتح لعلّ الله يفتح عليك وتنطلق السيارة من نقطة التفتيش قبل أن يعثروا عليك!!

في كل مرة كنت أتوقع أن يفتح الصندوق فجأة، وينهالوا عليّ ضرباً بكعوب بنادقهم، أو ربما يطلقون عليّ النار إذا صدمتهم المفاجأة، إن اكتشاف رجل مختبئ في صندوق السيارة قد يكون وقعه عليهم أشد من وقع العثور المباغت على ثعبان في نافذة البيت.

لم أعد أذكر الآن عدد المرات التي نجوت فيها من التفتيش على الحواجز، ولكنني أذكر جيداً أن الغرامة التي دفعتها حين ألقوا القبض عليّ وساقوني إلى السجن، تزيد كثيراً عن المبلغ الذي دفعه لي صديقي، وأن الشلاليت والعصي التي أكلتها لا يعادلها أي مبلغ يمكن أن يدفعه لي أحد.

– 8 –

أصر صديقي على أن ينقلني معه من رام الله إلى القدس، وحين جلست إلى جانبه في سيارته التي بدت جديدة ومريحة، استأذنني في أن يمر قليلاً بقرية بيتونيا غربي رام الله، لقضاء حاجة هناك، ومن ثم نواصل إلى القدس عبر الطريق الجديدة التي استحدثوها بعد حزيران 1967.

في الطريق من بيتونيا إلى القدس مررنا بقرية الجيب، على جانبها الغربي أقاموا مستوطنة ذات بيوت حجرية ناصعة، بيوت متناسقة جملة، يبدو جمالها بيوتاً منفردة ومجموعة تنتظمها الشوارع والحدائق ومواقف السيارات.

قال لي صديقي: هذه مستوطنة "جبعات زئيف" وأضاف إنها تعني بالعبرية "تلة الذئب"، وكانت تبدو مطلة ومتحفزة باتجاه القرية العربية الصغيرة الوادعة، عبرنا تلة الذئب فإذا النبي صموئيل في مواجهتنا بمسجدها الشاهق العلو ومئذنته الهرمة، والنبي صموئيل تطل من عليائها على الجهات كلها: إلى الجنوب الشرقي منها تبدو مدينة القدس الجديدة وكأنها تحبو تحت قدمي هذه القرية الصاعدة نحو السماء!!

قلت لصديقي: لماذا تركوا النبي صموئيل؟

قال: لم يتركوها، انظر ها هي ذي مستوطنة جديدة ما تزال تقام هناك على أراضيها، لقد بدأوا بإقامتها حتى بعد أوسلو، ثم إن المسجد نفسه الذي هو رمز للقرية واسمها مشتق منه، يريدون أن يقاسمونا إياه، تماماً كما حدث في الحرم الإبراهيمي في الخليل!!

في هذه اللحظة كانت السيارة تعبر بنا غابة من المباني والأسوار الحجرية الهائلة، مدينة فسيحة لها جسور وأنفاق وأسوار وشوارع عريضة ومرافق ومدارس وكل شيء.

قلت لصديقي: هذه مستوطنة جديدة فيما يبدو؟

قال لي: نعم، إنها راموت، حين أقاموها هنا على الأراضي الغربية لبيت اكسا، قالوا إنها حي سكني جديد، ولكنك ترى أنها مدينة برمتها.

عبرنا راموت فإذا القدس الغربية تعبرنا بإيقاعها التاريخي، لقد امتد إليها عبق التاريخ من القدس القديمة، هي امتداد حديث للبلدة القديمة، امتداد له من العمر أقل من قرن، ربما ثلاثة أرباع القرن، ولكن رائحة القدس القديمة وإيقاعاتها الموغلة في التاريخ بدأت تمتد إليها.

وتذكرت رواية "ميخائيلي" لعاموس عوز، هذه هي القدس التي ادعّاها عاموس عوز وجعلها الوطن الملتصق بحنة وميخائيل.

قال صديقي:

- هنا كنت أتسكع قبل خمسين عاماً!

قلت له: ما اسم هذا الحي؟

قال: إنه موشيرم، هذا الحي يفضي إلى الشيخ جراح وإلى مندلبوم، تلك البوابة الشهيرة التي ظلت تشطر القدس الجديدة عشرين عاماً إلى أن أعاد الاحتلال توحيدها.

توقفت بنا الإشارة الضوئية في قلب موشيرم، إلى يميني تقف على الإشارة سيارة ينبعث منها صوت محمد عبد الوهاب يغني (جفنه علّم الغزل...) اختلست نظرة إلى السائق، كان كهلاً ربما في الستينات أو

أواخر الخمسينات، هل هو عربي؟ ثم اختلست نظـرة أخـرى، كانـت الطاقية السوداء المزركشة الأطراف تلتصق بمؤخرة رأسه!

إنه يهودي!

قلت لصديقي، وكانت عدوى الطرب قد امتدت إليه من غنـاء عبـد الوهاب الذي يصدح عالياً:

- هل تصدق؟

صرخ صاحبي بسائق السيارة اليهودي:

- شالوم.. ما هذا؟؟

قال سائق السيارة اليهودي:

- عبد الوهاب... انه عبد الوهاب!!

في هذه اللحظة بالضبط أعطت الإشارة الضوئية لونهـا الأخـضر، وانطلقت السيارات، ولكن صوت عبد الوهاب ظل يصدح مـن سـيارة جارنا اليهودي التي سبقتنا في طريقها شرقاً... ربمـا إلـى مـستوطنة أخرى أقيمت شرقي القدس القديمة!!

- 9 -

صباح الجمعة جلست في شرفة منزلي المطلة غرباً باتجاه "عطاروت"، كانت هوائيات أجهزة التلفاز تتشابك مثل غابة من الأشجار الحديدية اللامعة، ثمة نسمة باردة تتسلل عبر النافذة المفتوحة، بدت لي منعشة رغم ما يخالطها من روائح دخان مصاع عطاروت، هذه المنطقة الصناعية التي أقاموها جنوب مطار قلنديا.

تبدو ربات البيوت المجاورة وقد غمرهن هذا الصباح نشاط مفرط، فالغسيل ينتشر هنا وهناك، بقع ملونة قليلة البياض، لماذا تبدو الملابس هنا قاتمة الألوان أكثر من اللازم؟

هناك غُرابان شديدا السواد يطارد أحدهما الآخر عبر غابة الهوائيات المتشابكة، تقفز الأنثى من هوائي إلى آخر فيتبعها الذكر، مطاردة حثيثة ومتلاحقة، عبر دائرة فسيحة من الهوائيات، يحطان على نافذة عمارة لم يكتمل بناؤها، من أين تأتي الغربان إلى المدينة؟ في الماضي حين كانت الغربان تعبر سماء قريتنا كانوا يتشاءمون من لونها ومن نعيقها.

ربات البيوت يواصلن نشر غسيل هذا الصباح، بعضهن انتدبت ابنتها الصغيرة لهذه المهمة، غسيل يملأ السطوح والشرفات، ولكنه غسيل ملون قاتم تنشره البنات أو ربات البيوت.

تساءلت وأنا أتابع فتاة تنشر الغسيل على الشرفة المقابلة:

- لماذا لا يتطلع الناس حولهم إلى هذه البحور المتلاطمة من أكوام الزبالة؟ كيف اعتادوا التعايش مع النفايات إلى هذا الحد؟

انتهت الفتاة النشيطة من نشر غسيلها، كان قاتماً ومكفهراً، مثل سحنة عابسة مقطبة، انعكاساً أسود لهذه الأكياس البلاستيكية المحتقنة بالنفايات.

– 10 –

حين غادرت الشرفة كنت أحلم بيوم جمعة قادم، يغسل فيه الوطن صدره من أكوام النفايات، وتمتلئ شرفاته وأسطح منازله بغسيل أبيض، ناصع البياض!!

وعندها فقط يكون يوم الجمعة هو يوم الغسيل حقاً!!

حين غادرتها هذا الصباح احتجزتني وراء الباب، ضمتني إليها في قبلة سريعة، كانت تودعني ودمعة تطفر من عينيها، ففي هذا اليوم ستغادرني بعد لقاء دام أقل من أسبوع، هكذا تشاء ظروف الاحتلال، أن أكون داخل الوطن وأن تظل هي خارجه في انتظار أن يوافقوا على جمع شمل العائلة.

غادرتها هذا الصباح متوجهاً إلى العمل، أما هي فستغادر البيت قبيل الظهر متوجهة إلى عمان حيث بيتنا هناك والأولاد، وحيث بناتها وصديقاتها ومناخها الذي اعتادته منذ أكثر من ربع قرن.

عشنا هناك في المنفى، أنجبنا أطفالاً كبروا في الخارج وصاروا شباباً، البنات تزوجن والأولاد غادروا إلى الجامعات البعيدة، ما عدا الأصغر فهو ما يزال في مرحلة الدراسة الإلزامية.

ثلاثون عاماً مضت على زواجنا، افترقنا خلالها عشرات المرات، سافرت إلى مختلف أنحاء الأرض، وسافرت هي الأخرى، ولكننا لم نذرف دمعة واحدة في لحظة وداع حتى لو كان سفري أو سفرها سيمتد أسابيع عديدة؟

تساءلت وأنا أهبط درجات البيت مغادراً وعيناي تكادان تشرقان بالدموع: لماذا ضعفت زوجتي في لحظة الوداع هذه ولأول مرة في حياتها؟

كنت أبتعد عن البيت دون أن أجرؤ على الالتفات إلى الخلف حتى لا تفضحني دموعي، وحتى لا أزيدها حزناً إن هي لاحظت الحالة التي تنتابني.

حين عدت قبيل المساء، تمنيت وأنا أدخل البيت أن أجدها، أن تكون المواصلات قد عطلت سفرها، تفقدت الغرف كلها بحثاً عنها، المطبخ، غرفة النوم المطلة على الشرق، غرفة الضيوف التي تطل على الجانب الغربي، ثم خرجت إلى الردهة المطلة على الشارع المحاذي للمباني السكنية في الجانب الآخر.

وقفت أنظر عبر الشارع، مساء أمس كنا هناك نتمشى معاً في هذا الشارع، في مثل هذا الوقت بالضبط كنا نخرج للتمشي في هذا الشارع، ثم نعبره إلى الشارع الآخر المحاذي له الممتد ما بين رام الله والقدس، نسير عليه قليلاً، نشتري بعض الحاجيات من البقالة الوحيدة هناك ثم نعود لنتمشى قليلاً في هذا الشارع المحاذي للمباني السكنية المحيطة.

كنت أجوب الشارع بنظراتي، نمت طفلتان تعبرانه وهما منهمكتان في الحديث!!

لو أنها تكون هنا، إذن لنزلنا فمن فورنا غلى الشارع نفسه نتمشى فيه كثيراً قبل أن ندلف إلى الشارع الآخر أو نعود إلى البيت.

كان المساء يهبط رويداً رويداً، والشارع يتحول شيئاً فشيئاً إلى شبح رمادي، ليس بسبب الظلمة وحدها التي بدأت تحل، ولكن لأن عينيَّ كانتا تغرورقان بالدموع.

— 11 —

ما بين "المنارة" وسط مدينة رام الله المـزدحم بالباعـة والـسيارات والضوضاء والمشاه والعفاريت، وبين منزلي خلـف قـصر الـضيافة، جنوب مطار قلنديا، مسافة عشر دقائق أو اقل قليلاً بالـسرفيس أو أيـة واسطة نقل.

بعد الإغلاق الذي أعقب عملية بيت ليد أصبح هناك سرفيس خـاص بين رام الله وحاجز الرام، والسرافيس كلها يقودها قوم مجانين، تركبهم شياطين السرعة والشيكلات، يتسابقون أيهم يفوز بالعـدد الأكبـر مـن الركاب،[1] في المنطقة الممتدة ما بين مصنع العرق وسمير أميس تصل سرعة بعضهم إلى المئة كم بالساعة أو تزيد، والطريق شيء ما ضاعت معالمه بين الرقع والاسلفت المهترئ من بقايا ما قبل حرب حزيران.

في المسافة بعد مخيم قلنديا إلى مثلث الرام، وهي المسافة التي يقـع منزلي في المنتصف منها، يحلو لبعض السائقين أن يحصوا غلتهم مـن الشيكلات أو يحاسبوا راكباً توانى عن الدفع لهم، ويحلـو لبعـضهم أن يشغل مسجلة السيارة أو يغير الشريط الذي فيها.

حين كانت سيارة المرسيدس ذات السبعة ركاب التي نستقلها، توشك أن تعبر بنا مثلث الكسارات، بدأ السائق بإحصاء غلته فـي الـصندوق

---

[1] الشيكل أو الشاقل هو وحدة النقد الإسرائيلية التي يتعامل بها سكان الضفة الغربية وقطاع غزة إلى جانب الدولار والدينار الأردني.

الذي اعتاد سائقوا السرفيس أن يضعوه خلف ذراع الغيارات، في اللحظة نفسها التي بدأ السائق يحصي غلته مغفلاً الشارع أمامه، هجمت علينا شاحنة ضخمة من ذوات العجلات الكثيرة والامتداد الرهيب، وفي أقل من لحظة كنا قد تحولنا إلى حطام، السيارة والسائق والركاب الخمسة، وكل أحلامنا وخططنا ورغباتنا المبيتة، هكذا في نصف الكيلو الأخير بيني وبين منزلي، صرت بقايا مهشمة يختلط اللحم بالحديد والحديد بالإطارات والإطارات بالأرض والأجساد بالأرواح وكل شيء بكل شيء!!

كانت آخر جملة قلتها للسائق:

- أكان لا بد أن تعد الشيكلات؟

— 12 —

حين بدأت الإغلاقات الإسرائيلية للمناطق المحتلة في آذار 1993 لم أفكر بالحصور على تصريح عبور إلى القدس وسائر المناطق الإسرائيلية المغلقة، رغم الحاجة الماسة إلى ذلك معاشيّاً، لم أهرول مثل العشرات من أولئك السائقين الذين هرولوا إلى دوائر الحكم العسكري من أجل الحصول على هذه التصاريح.

قلت: أكتفي بالعمل حول رام له، بين رام لله والبلدات المجاورة، لعل الله يغنيني عن التصريح، ولكن الأمور تفاقمت وتوالت الإغلاقات واشتد بلاؤها على الناس جميعاً.

بعد عملية بيت ليد ازداد التنكيل بالناس والسائقين معاً، قالت لي زوجتي:

- اذهب وطالب بتصريح مرور لعلّ الله يفرجها علينا.

توجهت إلى الإدارة العسكرية في الرام مستعيناً بصديق لي، له صديق من الدروز العاملين هناك، أحسست من اللهجة أن هناك نية صادقة لمساعدتي، ولكنه قال:

الحاسوب معطل هذا اليوم، تعال غداً!

في اليوم التالي لم يكن الحاسوب معطلاً، ضربوا على أزراره واستدعوا رقم هويتي واسمي، وكانت دهشتهم أكبر من دهشتي، فلم يكن هناك في الحاسوب أي أسم لي أو رقم هوية.

قالوا لي: اذهب إلى الإدارة العسكرية في رام الله، هناك الحاسوب الرئيسي، وقد تجد اسمك ورقم بطاقتك.

في الإدارة العسكرية في رام الله استدعوا اسمي ورقم بطاقتي، ولكن عبثاً لم يكن هناك شيء، هكذا وجدت نفسي ضائعاً مغيباً لا وجود لي في قيود الحكم العسكري.

نصحوني بالتوجه إلى قسم إصدار البطاقات في الداخلية حيث الملجأ الأخير لحل هذا الإشكال اللغز.

في الداخلية استجوبوا ذاكرة الحاسوب واستدعوها لسنوات عديدة خلت، وكانت المفاجأة المذهلة: ذاكرة الحاسوب تقول إنني ميت، وأن اسمي قد شطب وأنني أدخلت في عداد الأموات في 9 أكتوبر 1984.

قالوا لي: أنك ميت ولا نملك أن نفعل لك شيئاً حتى إصدار شهادة وفاة.

قلت لهم: افرضوا أنني مت فعلاً وأصبحت عظامي رميماً، ولكن ها أنذا أعود إليكم بلحمي وشحمي وعظامي من بين القبور فما العمل؟

قالوا: أنت ميت، ولا نملك أن نفعل شيئاً لميت!

قلت لهم: اعطوني تقريراً بذلك، وأنا أُدبر أموري مع الإدارة العسكرية في الرام!!

قالوا: أنت ميت منذ عام 1984 ولا نملك الآن أن نعطيك حتى شهادة وفاة!!

وها أنذا أعود إلى زوجتي وأولادي في مخيم قلنديا بسيارة الأجرة نفسها التي ظللت أعمل عليها ما بين رام الله والقدس منذ عام 1965، أعود إليهم الآن ميتاً وليس لدي حتى شهادة وفاة!!

زائـــر الـمـســـاء



اليقظة المرعبة

ايها السادة، كثيرون منكم مروا من هنا وهم يضعون أصابعهم في أنوفهم، ويكتمون أنفاسهم تقززاً من الروائح الكثيفة المنكرة التي ظلت تتبخر عبر جدران هذه الحفرة، أما أنا فقد وجدت نفسي مكرهاً على مواصلة الاستلقاء، وربما إلى الأبد، وسط هذا الفيض الهائل من الأجساد المهشمة، السيقان والرؤوس والأذرع والجذوع الممزقة والأرجل المنتعلة والعارية، هذا المزيج العجيب من الركام البشري المتعفن صديداً ولزوجة وروائح كريمة منتنة.

سيارات كثيرة كانت قد جمعت كل هذه القطع البشرية وألقتها جميعاً في هذه الحفرة، حدث ذلك فجأة وبإتقانٍ عجيب. لعله لم يكن صدفة على الإطلاق، قبل أقل من ثلاثة ايام لم يكن ثمة حفرة في هذا الجانب من المدينة، أذكر أنني مررت من هنا ومن فوق هذه الحفرة بالذات، ليلة الثلاثاء الماضي، كانت ريح غاضبة تصفر بجذوع الاشجار ولشد ما دهشت ان بعض الغربان كانت تجوب سماء المدينة رغم تأخر الوقت واطباق الظلام، ولم يكن خافياً على أحد ولا حتى على الاشجار والأزقة وفوانيس الشوارع أن عيوناً كثيرة للموت كانت تطل من كل ناحية!! لعلها كانت اللامبالاة أو شيئاً شبيها بذلك.

أذكر الآن، أنني أحكمت اغلاق معطفي على صدري، وأنني مضيت عبر هذا الزقاق المعتم الذي أراه الآن يمتد إلى أقصى يمين هذه الحفرة، وحين ولجت باب غرفتي كانت كل الظواهر تومئ بانفجار عاصفة شديدة.

قلت لنفسي وأنا اهم باطفاء النور في غرفتي إن هذه العاصفة التـــي توالت نذرها لن تكون أكثر مدعاة للفزع من سابقاتها، صخب وضوضاء ربما امتدا إلى مساء اليوم التالي ثم تعود الاجواء إلى مثل ما كانت عليه من الحلكة والتلبد، وسمعت وأنا اقفل مفتاح الضوء وانقلب في ســريري إلى الجانب الآخر في مواجهة الحائط ارتطام الكتاب بالارض ــ كنت قد تعودت في مثل هذه الظروف ان استجلب النوم بالتثاؤب عبر صــفحات أحد الكتب النظرية المعقدة.

صباح اليوم التالي اجتاحني ذهول مطبق، كان ظلام غير عادي يلتهم كل منافذ الغرفة، لم تكن اشعة الخريف تتسلل كالعــادة عبــر شــقوق الستائر، شيء ما أكثر مما كنت اتوقع جعل كل ستائر غرفتــي خرقــاً مدلاة ممزقة الاطراف، كانت أصوات قوية ومرعبة تملأ رأسي وتغتال من كل الأزقة سكينة الصباح، وكان ثمة ضجيج مفزع يختلط بأصــداء أنني وولولات بشرية،عبرني إلى حين احساس ما بأنني ما زلت تحــت وطأة كابوس فظيع مثل تلك الكوابيس التي كانت تصيبني بعد مــشاهدة الافلام الحربية الرخيصة.

ما عدت اذكر الآن مقدار الجهد الذي بذلته لأتأكد انني فــي كامــل صحوي، تطلعت إلى الناحية الاخرى من السرير حيث الطاولة الخشبية الهرمة التي اعتدت ان أكوم فوقها كتبي، ولشد ما عجبــت اذ وجــدتها راكعة وقد تقصفت ارجلها وانهارت اكوام الكتب من فوقها على بــلاط الغرفة كالاحشاء المندلقة. عبرني في هذه اللحظة احساس ما بأن الجاحظ كان محظوظاً وبشكل يثير الحسد حين تطايرت روحه تحت أكوام الكتب ولم تذهب رخيصة تحت البساطير والاقدام، وسنجات البنــادق، وحــين امعنت النظر في زوايا الغرفة الشاحبة وجدت ان كل شــيء فيهــا قــد

ارتجف حتى النخاع، مشجب الملابس سقط أحد طرفيه، الطناجر والصحون والأكواب لم تسلم من لوثة هذا الارتجاج، فقد تراكمت فوق بعضها كما تتراكم الآن كل هذه الأجساد المهشمة من حولي في قعر هذه الحفرة.

لم يكن حب الاستطلاع وحده هو الذي دفعني إلى الخروج، كانت رغبة أُخرى ملحة تشدني للاندفاع في ذلك السيل من الأنين البشري الذي كان يتجاوب عبر مداخل الأزقة، أنين فاجع يعلن بحزن ساطع عن وجود بقية من حياة تحت ركام الانقاض التي خلفها هذا الزلزال الكبير.

كانوا يقولون، لا سيما حين يختتمون صلواتهم، إن الكوارث الطبيعية لا تطال هذه الارض التي بورك حولها، ترى هل الذي يحدث الآن مجرد طوفان أم أنه الزلزال؟! علمت أن الزلزال يهدم ولكنه ما يلبث أن يهدأ ليخرج الكثيرون ايحاء من تحت الانقاض! ولكن هذا ليس طوفاناً ولا زلزالاً على كل حال!!

لحظة سقطت على مدخل الشارع كانت كل الاشجار غبراء مشعثة تتدلى فروعها، وأعمدة الهاتف والكهرباء مقصفة ممزقة الاسلاك، وروائح الدخان والبارود تملأ كل شيء حتى أديم الارصفة المحترقة. وكانت اصداء الحريق الناشب في كل مكان تهدد حتى جثث الموتى بالاحتراق...

ايها السادة: وها انني اتحدث اليكم الآن من اعماق هذه الحفرة اللعينة، سيارة ما قبيحة كغراب، وسخة كناقلات القمامة، قامت بطرح بقايا جثتي وسط زحام الموتى في هذه الحفرة، لم يكن ثمة شيء سليم في جسدي عدا الرأس، اطرافي كلها بقيت فيما يبدو على مدخل الشارع

الذي يفضي إلى غرفتي، شيء ما، صاعق تماماً هشم أنحـــاء جـــسمي كلها، عدا الرأس! من منكم يستطيع الآن وبعد كل هذه الساعات الثقيلـــة والطويلة أن يتعرف على اطرافي؟؟

ايها السادة: من أعماق هذه الحفرة المليئة بالقطع البشرية اناشـــدكم! من يعثر منكم على قطعي الضائعة فليقلها هنا فــوقي، واذا حــدث وأن أُغلقت هذه الحفرة بعد فوات الأوان، فانني اتوسل اليكم ان تـــدفنوا كـــل أَطرافي في حديقة تلك الغرفة التي كنت أَسكنها، في الفناء الشرقي قرب النافذة تماماً إلى اسفل جذع شجرة العنب!

ترى هل روت لكم جداتكم ذات مساء حكاية الطائر الأَخضر؟ ان لم يكن ذلك قد حدث فرجائي ان تفعلوا ذلك، فربما اتيح لكم ان تسمعوا ذات مساء حكاية الطائر الأَخضر[1]!

---

[1] تقول الحكاية ان زوجة الاب قامت بذبح الابن اثناء غياب والده وأنها جعلت منـــه عشاء له حين عودته، وأن اخت الصبي قامت بجمع عظام اخيهـــا ودفنتهـــا فـــي حديقة البيت، وبعد أيام تحولت عظام الصبي إلى طائر أخضر جعل يحلق في فناء البيت وهو يغني:

أنا الطائر الاخضر

مرة أبوي ذبحتني

وأبوي أكل من لحمي

وأختي جمعت عظماتي

وحطتهن في الجنينة

ولما يطلع القمر

بصير الطير الاخضر

اللعبة الأخرى

أفاق (حمدان الطرشا) وهو يحس أن كابوساً ثقيلاً ينيخ على صـــدره فرك عينيه وحاول أن يعرف سبب يقظته. لا شك ان نعيق زوجته هــو السبب هذه المرأة اللعينة كالبومة العاقر، لقد افسدت عيشته وملأت حياته نكدا. رفع رأسه عن الوسادة وتطلع ناحيتها. كانت تنحني على برميــل الماء وقفاها يرتفع مثل عجل التراكتور. فكر حمدان الطرشا: ما أضخم ردفي زرعية وتساءل بدهشة: لماذا تكبر ارداف بعض النساء إلى هــذا الحد؟ بالنسبة لزرعية المسألة في غاية الوضوح... لقد عاشت نــصف عمرها مقطوعة على الخبز الحاف... وعندما وطــأت رجــلا (حــسن افندي) هذا البيت، صارت زرعية تربرب نفسها كالبقرية الهولندية، لعنة الله عليك يا حسن افندي... منذ أن دخلت هذا البيت وزرعية لا عمل لها إلا البصاق في وجهي.

استند حمدان الطرشا في فراشه، وامتدت يده إلى جانــب الوســادة، تناول غليونه، سحب متبغته ونكش فيها ثم ضربها على راحة يده. فــتح كيس (الهيشي) وحشا الغليون، وقبل أن يشعله تلبسه سعال جاف احتقن له وجهه، وتدلى لسانه، مما اضطره ان ينظف حلقه ويبــصق. قالــت زرعية بلهجة وعرة:

- لا شغل ولا مشغلة إلا التدخين والبصاق..

ولم يجب. فقد تعود على لسان زرعية السليط، كل صباح تكربجــه،

ملعون وجه والدك يا امرأة، الناس تسبح لله ولسانك يكنس المزابل. أه، لو استطيع قطع لسان هذه المرأة!

اشغل غليونه ثم رفع عنه البطانية وخرج.

كانت الشمس قد جاوزت أسطح المنازل، وشنقت نفسها فوق اسوار حظيرة ابو الدبس، وكانت الاغنام قد غادرت الحوش الكبير، ولم يبق الا الجديان تقفز فوق المذاود. وفجأة احس حمدان الطرشا، أن سعادة رعناء ترقص في صدره. لو أنه بقي يعمل عند ابي الدبس، لكان عليه أن يستيقظ قبل ثلاث أو أربع ساعات، يحلب الاغنام، ثم يربط الجديان في الربق، ومن ثم يأخذ الحليب إلى المدينة ليعود بعدها ويلحق بالراعي وهمس لنفسه: ما العن العمل! أكبر نعمة في العالم ان ينام الانسان حتى الظهر لا سائل ولا مسؤول. وأحس بغتة أن مشاعر حزينة، تهجم على صدره وايقظه صوت زرعية:

- ما بالك لا ترد يا حمدان؟
- ماذا تقولين يا امرأة؟
- ان شالله طرش يلخمك.
- ما لك يا ولية؟ الله يلعن كل من فطس من أهلك.
- خد الطاسة وهات الحليب.

ملعون ابوها قتلها البطر.. كانت لا تجد الخبز الحاف واليوم لا تفطر الا على الحليب. سحب حمدان الطرشا نفسا من الغليون واستدار إلى الداخل، كان فراش (صفية) ما يزال ملطوعاً على المصطبة بجانب فراش أمها. طاف بذهنه سؤال كريه: هل تكون صفية ذات يوم كأمها؟

وهل تكون طويلة اللسان؟. لا يمكن ابداً! ولكن ربمـا علمتهـا بـذاءة اللسان! واحتار حمدان الطرشا ماذا يعمل؟ وتساءل لماذا لا يتبلي الله هذه الحيز بون بالخرس؟. انها لا تتعب من الرغي، ولو بقي يناقرها حتـى يوم يبعثون، لبقي لسانها كمطرقة الحداد لا يهجـع ولا يتـرك النـاس يهجعون! وتساءل بتفلسف ربما كان حظي ينام في مزبلة يوم تحوشـت على هذه المرأة. قال لها:

- الحق علي أني لممتك. كان يجب تظلي ضائعة على البيـادر، يَضْرِبُكِ الرجال على قفاك.

صفق حمدان الطرشا الباب وخرج. لا فائدة، لم يبق لي في عين هذه المرأة اي احترام منذ ان دخل حسن أفندي هذا البيت. حتى صفية لم تعد تأبه بي. ليلة أمس طلبت منها أن تفرش لي على المصطبة وكأنهـا لـم تسمع. يا ويلك يا حمدان، لو كان الله يريد أن يسعدك لكان أعطاك ولداً، يكون رجلاً على قد حاله، يحترمه الناس، ويحترمونك لأجله. كل الغلط انك تركت العمل عند ابي الدبس، عنفصت مثل الحمار الادبر، اغـواك الشيطان، كنت ولله مستوراً وابن حلال، لا يمـضـع سـيرتك رديء او مليح، زرعية هي أساس البلاء. قالت. قالت: يا حمدان اذهب وتاجر في الكبريت والسجاير حتى لا نظل، لا فوقنا ولا تحتنا. وفعلاً طربت على كلمة سجاير، قلت في نفسك: من يدري، ربما كانـت تجـارة الـدخان احسن، وبكره ربنا يفتحها، وتفتح دكان وتبيع كـل شـيء... العجـوة والقطين والشعير والقمح والدخان الهيشي، تملأ غليونك منه عندما تشاء وتصير صاحب مال، ويقول عنك الناس حمدان افندي، وركبك الشيطان، ورحت إلى ابي الدبس:

- يا معلمي، يا عم ابو الدبس، اريد ان اتركك.. اعطني حسابي.

وقال ابو الدبس:

- يا حمدان الطرشا لا ترفس نعمتك. بكره تندم.

وأخذت خمسة اوراق حمراء جديدة. خمسة وعشرين ديناراً. وقال لك ابو الدبس:

- اسمع يا حمدان.. نصيحة لوجه الله، فكر مئة مرة، قبل أن تصرف قرشاً، بكره التجار يضحكون على ذقنك، وتصير مثل "تيس عاهرة". وضحكت بسخرية، وقلت باستعلاء وأنت تصر على النقود، يلعن ابوك يا ابو الدبس.. ولله لا نجح والعن اصلك. وفعلاً ضحك الرجال على لحيتك. ضيعت فلوسك. أول يوم ربحت وثاني يوم اتعسك الله، وذهبت تبيع الدخان في المقهى، قال لك حسن افندي: اقعد يا شيخ اشرب فنجان قهوة على حسابي، وقعدت وأنت لا تصدق. كتفت نفسك واقعيت بكل احترام، ما كنت تعرف أن حسن افندي يريد ان يسحب رجلك بفنجان القهوة.

- اقعد يا رجل، الدنيا زائلة، فض عن بالك وجرب حظك.

- كيف أجرب حظي يا سيدي.

- العب معنا الورق.

- وكيف العب الورق يا سيد؟

وعلمك حسن افندي (الدقة والرقصة)... هذا ولد سباتي، وهذا أس بستوني وهذه عشرة ديناري. علمك حسن افندي كيف تضرب (صلد)

وقال لك هذه اللعبة اسمها "الشكت" وتلك اسمها "الصفر".. وتعلمت يا حمدان. وصرت قمرجياً اربعة وعشرين قيراطاً. أول يوم تشاركت مع حسن افندي وربحت، قلت لزرعية كل شيء. انبسطت قالت لك: كل يوم شارك حسن افندي. كل الحق عليك لوكنت سمعت كلامها، ما كنت وقعت على وجهك ونسيت يا حمدان تجارة الدخان، صرت تقعد مع حسن افندي وتدخن سجاير، وخسرت الربح ورأس لمال، قال لك حسن افندي: ولا تهتم يا حمدان، اليوم خسرت وبكره تربح. قلت أنا خايف من زرعية.

- ومن هي زرعية؟
- زوجتي يا سيد
- ولا يهمك... انا ارضيها...
- هذه لا يرضيها ربنا يا سيد!

وجاء حسن افندي للبيت، ولعب الفأر في عبك، وانتقلت القهوة إلى البيت، وصار اللعب عليك وعلى أهل بيتك. ومن يومها يا حمدان صرت بحق وحقيق مثل "تيس عاهرة".

وصل حمدان بيت أبو الدبس وقرع الحلقة المربوطة على البوابة العريضة، فيما مضى كنت تدفع الباب وتزعق على الاغنام لتدخل ثلاثاً ثلاثاً... كنت رجلاً نظيفاً يحترم نفسه والناس يحترمونه، لا من يطعن في وجهه ولا في قفاه أما اليوم فأنت رجل ساقط خدام بالمؤونة، قواد لحسن افندي والعاهرة التي تربرب نفسها في بيتك على حساب دم وجهك. ومن يدري أنها ترفسك غداً برجلها مثل المشاية العتيقة. والله لو كان حسن افندي وافقها على ذلك لكنت اليوم مرمياً في الشوارع مثل الكلب الهامل. كل الحق على لحيتك. رضيت بالدخان والقضامة واللحمة والبندورة التي

كان يحضرها حسن افندي معه وهو يزورك كل ليلة. كنت تقول: حسن افندي رجل طيب. أكله الندم لأنه لهف نقودي ويريد أن يرد لنا ما اخذ، وما كنت تعرف أنه كان ينام مع البقرة الهولندية، كان يقول لك اذهب إلى المدينة، واحضر لنا زجاجة نبيذ ورطل لحم، لم تكن تعرف ما هو النبيذ، كان النبيذ النوم مع زرعية. ويوم قالت لك صفية: أن امي تخلع ملابسها أمام حسن افندي يا ابي، كنت تقول: كل الناس يخلعون ملابسهم يا ابنتي وكنت تسكت يا جبان يا نذل، ولله يحق لزرعية أن تركبك وتضع بردعة بين كتفيك ايضاً لانها تعرف أنك سقيطة وقواد، كنت تقول لنفسك: فخار يكسر بعضه، نريد أن نعيش، ثم ماذا تخسر أنت؟ زرعية مبسوطة وحسن افندي رجل غني، والناس يقولون أنني اتسلى معه بلعب الورق، ثم إنهم لا يسألون من أين يعيش حمدان الطرشا وأسرته فها هي صفية تخدم في بيت حسن افندي وتعيلهم، ما كنت تعرف أن الناس يتشممون الفضائح كما تتشمم القطط رائحة (الزفر) في بيوت الفقراء، لو كان عندك دم ما كنت تأتي لأخذ الحليب.

ونادت زوجة ابو الدبس من الداخل، وصوت خطواتها يقترب من البوابة.

- من هناك؟
- حمدان
- انعم وأكرم!!
- .....
- خير؟ ماذا تريد؟؟
- لا. لا شيء، جئت فقط لأخذ الحليب!

- ومن قال لك أن عندنا حليباً؟ طول عمرك عائش على الحليب يا (مقلعط) لا يعجب أم شدوق الا البيض المسلوق، يا رجل استح، اذهب واختبئ.

- يا ستي...

- حسن افندي قال لنا لا تعطوهم حليباً.

وانصفق الباب في وجه حمدان الطرشا، وأحس أنه أصغر من ذبابة وود لو تنشق الارض فتبتلعه، أو على الأقل تبتلع الطاسة الفارغة التي في يده. الا أنه عاد وأحس بنشوة: تستأهل زرعية! لا حليب بعد اليوم، واستدار عائداً إلى زرعية. كانت الطريق أمام عينيه اضيق من الشعرة. ماذا جرى حتى قطع عنهم حسن أفندي الحليب؟ ليذهب الحليب في ستين داهية، ولتذهب زرعية في ستين ألف داهية. أنا لا اريد حليباً ولا ما يحزنون. البقرة الهولندية ستذوب اردافها التي مثل حجر الطاحون! ولكن حسن افندي لماذا عملها؟ لعله قرف من زرعية. ودخل باب الحظيرة دون أن يدري ونهرته زرعية.

- لماذا لم تحضر الحليب يا سقيطة؟

- هذه البقرة المنتنه لسوف يذوب شحمها من الغيظ، وقال بتشف:

- لا حليب بعد اليوم... لقد أمرهم حسن افندي ألا يعطونا أي حليب!!

- أنا عارفه أنك رديء، حتى نصف كيلو حليب لا تقدر أن تحضره.

- يا امرأة قلت لك أن حسن افندي منعهم!

- عزارئيل يمنع روحك، كيف تحسب نفسك رجلاً وأن خاسئ!

- أنا رجل رغماً عن ابيك.
- لا يا شيخ!
- ولله إنْ لم تخرسي يا امرأة لأكسر رقبتك والعن اجدادك.
- خيبة تخيبك. ان كنت رجلاً امنع حسن من... وصمتت.
- ولكنه عرف ماذا أرادت أن تقول.

وانخرس حمدان. أحس ان خنجراً ينغرس في اعماق قلبه، ان كنــت رجلاً بحق فامنع حسن افندي من أن ينام مع البقرة الهولنديــة.. امنــع حسن افندي من أن...! هذا صحيح، ان حسن افندي يريدك ايــضاً يــا صفية؟ مستحيل، هذه العاهرة لا تحلم الا بمثل هذا. انها تخاف أن يتركها حسن أفندي مثل قنطار لحم معفن، ولكن ما يدريني أن حسن افندي ابن كلب. ان صفية تبقى في بيته طوال النهار وفي الليل يأتي إلى بيتــي... صحيح. لماذا كان يضحك مع صفية أول امس وامسك بخدها؟ ان حسن افندي واحد منحط، انه يريد ان يلعبها مع صفية! هذا لن يكون!!

- علامك انخرست يا سبع الرجال؟
- صحيح لماذا انخرست؟ أنا اخرست؟ لن يكون هذا؟
- اسمعي يا زرعية! حسن افندي لن يدخل البيت هذه الليلة، لــن يدخل البيت من الآن فصاعداً على الاطلاق والا قتلته... هــل تفهمين.. والا قتلته!
- والذي يسمعك يصدق... الا تستحي يا رجل من الكذب؟ صحيح أن الذين استحوا ماتوا.
- فعلاً ماتوا، وأنت يا حمدان الطرشا يجب أن تموت، أو تمنــع

حسن افندي من دخول هذا البيت. أما أن تقتل هذه البقرة اللعينة أو تقتل حسن افندي، ليذهبا إلى الجحيم، كل شيء الا صفية.

رمى الطاسة في الركن وتكوم على الحصيرة. كان يحس بأن قنطاراً من المهانة والذل يتكوم فوق ظهره، رأى صفية سمينة، عريضة الارداف، تضطجع فوق المصطبة، وقد كشفت عن ساقيها، وحسن افندي يريد أن يهجم عليها. أحس بأن خنجرا يلوب في احشائه. ايضا ابنتك؟!

كنت كالكلب تريد أن تموت في جوعك، ولا تعمل. لم يعجبك أن تخدم ابا الدبس وتعيش بشرف. اردت أن تعمل نفسك باشا، يلعب القمار ويدخن السجاير. لم تكن تدري أن العمل ولو في مرحاض اشرف لك من أن تسقط هكذا في عيون الناس.

كانت زرعية قد انتهت من العجن. رمت على صحن العجين طبقاً من القش... ومسحت يديها، وقبل أن تنهض وثب على المصطبة كالملسوع ووقف فوق رأسها وصرخ:

- اين الخنجر؟
- هيء.. هي.. لماذا، هل تريد أن تتفرج عليه؟
- قلت أين الخنجر؟
- قالت وهي تقهقه: هناك في الصندق!!

تلك الليلة نامت القرية نوماً مؤرقاً، مليئاً بالكوابيس وحين اطلت شمس يوم جديد، كان حمدان الطرشا جثة ممزقة أمام الزقاق وقد انغرس في صدره خنجر ملوث بالدماء.

(القدس – 1966)

العبيط

بصعوبة بالغة تماماً ومنحوسة تماماً وصل الأستاذ محمود الحجل ساحة مدرسة القرية ذات الغرف الثلاث بأبوابها الخشبية المهترئة ونوافذها الفاغرة كابواب جهنم.

من على الدرجات التي ترتقي إلى إحدى الغرف، القى الأستاذ الحجل نظرة مشبعة بالندامة والاسى على خطواته الممهورة في الثلج على امتداد الطريق الطويل، بين القرية والمدينة، راوده شعور ما بأنه سيكون المغفل الوحيد الذي يجتاز كل هذه الكميات الهائلة من الثلج ليصل إلى مدرسة لا طلاب فيها ولا معلمين!

منذ اربعة أيام والثلوج تتساقط بلا انقطاع، والجو يزداد بردة وتلبداً، واذا كان الاستاذ الحجل قد استمرأ خلال الايام الثلاثة الاولى مسألة تعطيل المدرسة والجلوس مع زوجته وأطفاله حول مدفأة الكاز الصغيرة في زاوية البيت، الا أنه وفي نهاية اليوم الثالث بدأت تطارده الهواجس من مغبة ابقاء المدرسة مغلقة، لا سيما وأنه المسؤول الاول عن ذلك ما دام هو المدير!

والحقيقة أن لقب مدير لم يكن يعني بالنسبة لمحمود الحجل الشيء الكثير ذلك لأنه يدرك تماماً بأن تنصيبه مديراً على اثنين من المعلمين لم يكن الامر الذي يستحق أن يثير الكثير من الغرور، ولكن احساساً فاجعاً بالمسؤولية كان يؤرقه دائماً، ستة صفوف ومعلمان ومراسل كثير الشغب

والتغيب، وبعداد الرؤوس يكون المجموع 122 انساناً وهذه ليست بالمسألة السهلة، أن تحمل مسؤولية 122 مواطناً ليس مزاحاً بالتأكيد.

عالج الاستاذ الحجل اقرب الابواب اليه فانفتح تلقائياً، وانهالت أكداس الثلج المتراكمة على طرف الباب العلوي وتدفق من الداخل تيار صاخب البرودة واحس الحجل بأن خطواته تكاد تتجمد، وأنه يعبر دهاليز ثلاجة كبيرة محشوة بركام هائل من الهياكل الخشبية المتصالبة.

حين استيقظ الاستاذ الحجل صبيحة هذا اليوم، تطلع من نافذة بيته الوحيدة في محاولة منه لرصد إمكانية الذهاب إلى المدرسة، لا سيما وأنه قد استمع في النشرة الصباحية للأخبار نداء طالبوا فيه المدرسين والطلاب بضرورة التوجه إلى مدارسهم، وأن نشرة احوال الجو بشرت بانحسار موجة الثلج وعودة الدفء، كان العالم خارج النافذة يتراءى للاستاذ الحجل صفحة واحدة بيضاء، امحت فيها كل تضاريس القرية وتعرجاتها وقذارة ازقتها وحواريها، وخطر له ان كل هذا الاستواء الابيض الطازج لن يكون بمقدروه أن يحجب، ولو للحظات قليلة كل معالم السواد والاعوجاج في هذه القرية.

مصيبة هو هذا الثلج: لن يكون بمقدوري ان استمر في تعطيل المدرسة على عاتقي كل هذه المدة!

وتساءل: هل سيذهب احد من الطلاب إلى المدرسة؟

وحتى لو لم يذهبوا هل يتسامح احد من المسؤولين معي لو حدث أن زار المدرسة فجأة ووجدوها مغلقة؟

ان أهون احتمال يمكن أن اواجهه هو أن يحسموا من معاشي كل أيام التعطيل!

وتصاعدت هواجِسُه إلى ابعد من ذلك: من يـــدري ربمـــا حملـــوني مسؤولية تعطيل المدرسين الآخرين؟ الا أن احساسه الفاجع بمدى الكارثة التي ستحل براتبه جعله يحزم امره بضرورة التوجه فوراً إلى المدرسة.

الآن فقط يستطيع الاستاذ محمود الحجل، أن يفـــسر الـــشعور بعـــدم الارتياح الذي خالجه وهو يغادر المنزل صبيحة هذا اليوم، ها هي الريح الباردة تصفر بشدة في عظامه وتكتسح كل مفصل في جـــسده، وحـــين أوشك موعد الدوام الرسمي على الانتهاء، كان ما يزال وحيـــداً يجلـــس على أحد الادراج الخلفية في غرفة الصف ورغم أنه فـــضل أن يختـــار لمجلسه اقصى الادراج الخلفية، ليكون بمنأى، ولو قليلاً عـــن تيـــارات الصقيع التي تحرث ارجاء الغرفة من كل جانب الا أن ذلك لم يغن شيئاً، فقد كانت الغرفة تبدو وكأنها بلا جدران وأن الصقيع يغمرها مـــن كـــل اتجاه، كان يقف بين الحين والحين، يحرك اطرافه بشدة ويطقطق برجله على الموطئ الخشبي في أسفل المقعد، وكان يلقي بين الفينة والاخـــرى نظرة تملؤها الفجيعة على أكوام الغيم التي تتـــراكض خـــارج الـــشباك ماضية نحو الشرق وهي تسح خرقها الثلجية المتناثرة، ويعود ليـــنكمش على نفسه كما يتكور الكلب المبتل فوق دفء الموقد المنطفئ.

هذه اللحظة فقط، ادرك الاستاذ الحجل أنه ذهب ضحية خطأ ما وأنه لا محالة متجمد في مكانه: ما الذي فعلته بنفسك يا ابن الحجـــل؟ لمـــاذا قادتك قدماك إلى هذا العراء المرعب؟ إلى هذه العلبة الرهيبة من علـــب الاسكيمو؟ ما الذي جاء بك إلى هنا لتموت؟

هل كانوا سيشنقونك حقاً لو أنك ظللت هذا اليوم قابعاً في الدفء بين

اطفالك؟ المعاش؟ هل كان أحد منهم سيكلف نفسه عناء المجيء إلى هذه القرية النائية ليجازيك بخصم معاشك؟؟

كانت كل اطرافه ترتعد وتصطك بعنف، ولم يستطع ان يسكت ارتقاصة فكه السفلي حتى باسناد ذقنه على خشبة المقعد، كأن رعشة البرد تضرب كل انحاء جسمه وتصل إلى أعمق شرايين دماغه.

تلاشى فجأة من اعماقه كابوس الرعب الذي كان يجثم فيها، كابوس الاحساس المضخم والمشوه بالمسؤولية وضرورة المجيء إلى المدرسة خوفاً من اقتطاع راتبه، تلاشى جبل الرعب الذي كان جاثماً فوق صدره، وأدرك، بعد فوات الاوان، أنه المغفل الوحيد في هذا العالم، وحين هم بمغادرة المقعد سقط مرة واحدة، كجذع شجرة هرمة يتقصف تحت وطأة ريح شديدة.

سقط يابساً متخشباً، وظلت اطرافه تعانق مساند الادراج الخشبية الكالحة المتصالبة كشواهد القبور.

خماسية صغيرة لتـشرين

ـ1ـ

طلب اليهم قائد السرية أن يغادروا إلى بيوتهم على نوبات ليودعــوا ذويهم. ورغم هدوء لهجته التي ابلغهم فيها أن السبب في ذلك هو تبديل مفاجئ لمواقع تمركز القوات فقد أحسوا أن في الأمر شيئاً أكثر من ذلك. إلا أن صابر ظل يعتقد أن المسألة لا تعدو أن تكون تحركاً عادياً كغيره من التحركات السابقة، به ينتقلون إلى موقع جديد، يقضون فيه شهراً أو عدة شهور، لا فرق، يحفرون الأرض ويقيمون المتاريس، ثم لا تلبــث الأوامر أن تصدر لهم بالتحرك إلى مكان آخر.

وتساءل صابر بلهجة تشوبها اللامبالاة المطلقة وهو يــستلقي علــى فراشه تلك الليلة في المعسكر، فيما اذا كان هناك أي سبب يدفعــه إلــى المغادرة حين يأتي دوره في الغد، فمعظم اصدقائه في القرية قد تبعثروا، وربما لن يتاح له ليلة واحدة اخرى لكي يشاركهم احدى جلساتهم المعتادة في المقهى أو في أحد البيوت. ووالدته كان قد ودعها قبل ثلاثة أيام فقط، وليس هناك أي شوق يحدوه للعودة إلى البيت لرؤيتها من جديد. الا أنه أحس قبل أن يغفو أن دافعاً ما يشده إلى الذهاب لرؤية القرية والتجــول في أزقتها وشوارعها، ولم يدر لماذا هجم عليه بغتة الحنين إلى جلــسة أمام دكانة أبي صالح يستعرض فيها وجوه العائدين من رعاة وفلاحــين

وصبايا المدارس اللواتي يذهبن إلى المدينة، وقفز أمام ناظريه مرة واحدة وجه فاطمة مشرقاً يملؤه الحنان.

حين وصل إلى القرية في صباح اليوم التالي بدا وكأنه يعبر شوارعها لأول مرة، وأحس وهو يستنشق دخان الطوابين وروائح الزرائب والأزقة أنها روائح قريبة إلى نفسه بالحاح، ورأى وجه فاطمة يتداخل مع الحارات وأكوام البيوت حتى بدا وكأنه هو بعينه وجه القرية النائمة الحنون.

ـ 2 ـ

أوصدوا وراءهم باب الشقة الأنيقة في الدور الثالث وبدأوا على الفور باعداد المائدة، كانوا قد تجمعوا لتوهم وفق موعد سابق، واشتروا من الاسواق نصف المغلقة لوازم جلستهم من أطعمة وخمور وأوراق اللعب.

قال خالد وهوم يضع بساط اللعب علَى الطاولة:

- اين مذياعك يا سعيد؟

ورد عليه سعيد من المطبخ وهو يغسل كاسات الشرب:

- انه في غرفة النوم على السرير.

قال خالد: لا بد أن البلاغ رقم 21 قد أذيع الآن!

- هل سمعتم آخر بيانات الجبهة الشمالية؟

قال علي وهو منهمك في فرز اوراق اللعب:

- لقد أسقطوا اثنتين واربعين طائرة منذ صباح هذا اليوم!

علق محمود الذي كان يرتمي شبه مُنْهَكٍ على الأريكة قرب الباب:

- أخشى أن يكون هناك بعض المبالغة في أرقام الطائرات التي يعلن عن اسقاطها، الأمر الذي اذا صح يشير إلى بداية المصاعب على الجبهة.

قال خالد: أنا على ثقة تامة من صحة البلاغات!

وأضاف سعيد وهو يفتح المذياع:

- قليلاً من الصمت. دعونا نستمع ونلعب بهدوء يا سادة:

وبدأت معركة اللعب.

ـ 3 ـ

ثلاث ليال متتالية لم يغمض لصابر ولا لأحد من رفاقه فيها جفن، لقد زحفت دروعهم لتحتل مواقعها على الجبهة التي لم تعد ساكنة كما كانت طوال الأيام الكثيرة التي انصرمت. كان عليهم خلال اليومين الماضيين أن يتمركزوا في خطوط الجبهة الخلفية بانتظار أن يتم تبديلهم مع مراكز الهجوم المتقدمة.

وبرغم كل ما عاناها صابر ورفاقه من سهر (خضخضة) الاليات المتواصلة لاجسادهم اثناء سيرهم الثقيل فقد ظل حماس دافق ينتشر في أبدانهم ويبرعم في عروقهم نشاطاً وحرارة.

في الساعة الواحدة من صباح هذا اليوم بدأوا في احتلال مواقع الهجوم المتقدمة، في البداية هبط على صدره نوع ثقيل من التحسب والوجوم، ولكنه سرعان ما تخلص منه وهو يرى أن مشاعر مشابهة

اجتاحت رفاقه الآخرين من طاقم الدبابة، وأن موجة من الاندفاع الغامر الذي لا يعرف الحدود قد حلت محلها.

وحين سئلوا عن مدى استعدادهم كان جوابهم ان كل شيء جاهز للحظة الحسم، وأنهم جميعاً في غاية اليقظة والترقب.

وتقدموا وسط ضجيج مرعب من أصوات الانفجارات وزعيق جنازير الدبابات.

ـ4ـ

جاوزت الساعة الحادية عشرة مساء وما زالوا يتحلقون حول طاولة اللعب وصوت المذياع ينطلق بهدوء مفعم بالغباء، يقذف في مسامعهم أناشيد لم يعودوا يتابعون منها شيئاً، ولم يعد أحد منهم يعلق بشيء على البلاغات العسكرية. ففي غمرة الانهماك في اللعبة فقدت اذانهم حتى مجرد القدرة على الاستيعاب. وكانت حواسهم قد تخدرت تماماً بفعل الكحول. وخلال جلستهم الطويلة غادر بعضهم مرة أو مرتين إلى المطبخ ومرات إلى الحمام. وفجأة تنبهوا إلى أن موعد افتراقهم قد فات. قال علي وكأنه يفطن لتوه:

- يا إلهي، لقد أضعف موعدي مع سناء اللعنة عليكم وعلى اللعب.

وبسرعة فائقة حمل أشياءه عن الطاولة وصفق الباب وراءه بعنف وهو يخرج.

ـ5ـ

كانت أم صابر تجوب أرجاء القرية بساقين منهكتين، وعيناها ذاهلتان لا تستقران على شيء، تسمع الأخبار ولا تقوى على مواصلة البقاء في مكان واحد لحظة واحدة، كان كيانها كله مشدوداً إلى المعركة وكأنها تقاتل في الجبهة.

كانت تلتقي بتجمعات أناس هنا وهناك في الأزقة وعلى مداخل البيوت، وترى وجوههم جميعاً ضاحكة مستبشرة، فلا تلبث أن تستبشر معهم لحظات قليلة ثم تعاودها كآبة سوداء تمسك بقلبها دون أن تدري لذلك سبباً.

كانت موقنة بأن ولدها ورفاقه هم الذين يصنعون كل هذه الفرحة المزغردة على وجوه الناس، ولكنها كانت تخشى ألا يعود إليها ولدها مرة أخرى.

(ان ولدها ليس وحده الذي ذهب إلى القتال فمثله عشرات الالاف من الشباب) وحين تعود اليها تلك الكآبة اللعينة كانت تقول:

- (ولكنه ولدي الوحيد)!!!

ثم تروح تعزي نفسها من جديد: (انه يصنع لكل هؤلاء الناس هذه الفرحة النادرة... لا شك في أنه سيعود اليها وعلى وجهه مثل هذه الفرحة) وكانت تراه كلما حدقت في مداخل القرية يعود فاتحاً ذراعيه يريد احتضانها وفرحة غامرة تملأ كل كيانه.

الثلج

منذ سنوات طويلة لم يسقط الثلج، كان الأطفال يتلهفون لرؤية المدينة سهولاً بيضاء مستوية، فطالما تحدث الكبار عن روعة الثلج حين يخرج الناس إلى اسطح البيوت والشوارع يلعبون بالثلج، يصنعون منه تماثيل ودمى، ويتقاذفون كراته فيما بينهم، وتصبح هذه الكرات البيضاء ادوات للغزل والتواصل بين الشبان والفتيات.

منذ سنوات وهم يَحْلُمُون بأن يستيقظوا ذات صباح ليجدوا الثلج وقد غمر المدينة، وكساها حلة بيضاء زاهية وأحال الاوراق الخضراء على اغصان الاشجار شعراً أشيب جميلاً.

كان صابر يتمنى وهو يستمع إلى هذه الاحاديث المشوقة ان تجود السماء هذا العام بالثلج، وحين سقطت الامطار هذا الشتاء أيقن صابر أن الثلج قادم لا محالة. كل مساء حين تسد الغيوم السوداء الافق الغربي وتبدأ الرياح العاتية بالهبوب، كان صابر يندس في فراشه قرب والدته ويحلم بأن يستيقظ وقد سد الثلج مداخل الزقاق.

ولقد صحا اكثر من مرة في الليالي الممطرة وأطل من نافذة الكوخ التي تضربها الرياح والمطر لعله يجد الدنيا وقد ابيضت من الثلوج.

هذا المساء كان ثمة اجماع بأن الثلج قادم، ولذا فقد تزود أهل الحي والجيران بما يحتاجون من مؤن ومحروقات، الطحين والارز والسكر والعدس، وبعضهم اشترى بضعة ارطال من الخبز والخضار واللحوم،

أما ام صابر فقد اشترت قليلاً من الارز وبضعة ارغفة من الخبز وملأت الوعاء الوحيد لديهم بالكاز ولم يكن لديها ما يكفـــي لـــشراء اللحـــوم أو الخضار.

حدث صابر نفسه:

- اريد فقط أن ارى الثلج.

قالت له أمه:

- احكم اغلاق النافذة والبس معطفك الصوفي فالثلج قادم.

مثلما توقعوا تماماً، كانت المدينة هذا الصباح افقاً فسيحاً من البياض الناصع، كل الشوارع والازقة والسطوح مساحات ممتدة من الثلج، أمـــا الاشجار وأعمدة الهاتف والكهرباء فقد كانت هي النقاط السوداء الوحيدة التي تبدو من بعيد.

كل الاولاد كانوا قد نزلوا إلى الشوارع، او صعدوا إلـــى الـــسطوح، ولكن حرب الكرات الثلجية لم تبدأ مبكرة. فالناس حين يلتقون مـــع الـــثلج يحسون لأول وهلة برهبة مفاجئة، أو يأخذهم شعور ما بأن هذه الاشـــياء البيضاء المستوية والطرية الملمس يجب ألا تخدشها الايـــدي أو تلوثهـــا النعال، ولكن هذا الاحساس ما يلبث أن يتلاشى حين تبدأ أول يد بتمزيـــق هذا الاستواء الاسفنجي الهش، وهكذا تبدأ الحرب خافتة في أول الأمر ثـــم تشتد رويداً رويدا، تبدأ أولاً بين الصغار ثم تمتد إلى الشبان والفتيات وما تلبث حماها أن تصل إلى الكبار، فالرجال تستهويهم النساء على السطوح المجاورة فيصبحن هدفاً للكرات البيضاء المضغوطة جيداً والفتيات يجدن متعة فائقة في التضارب مع الشبان الذين يتجمعون في الساحة والشوارع.

ولكن الحماس المتوهج ما يلبث أن يفتر فيلبي الناس نداء الدفء والطعام.

ربما كان صابر هو الأقل حظاً في الاستمتاع ببهجة الثلج خلال الساعات الاولى من صبيحة هذا اليوم، فكل أولاد حيّهِ عاشوا دونما شك هذه المتعة البكر، بعضهم تدحرج فوق الثلج وبعضهم حمله في جيوبه كرات صلبة كأنها الحجارة، وبعضهم اغراه بياضه وهشاشته فراح يلتهمه بشراهة. ولكن معظم هؤلاء حين انسلوا إلى بيوتهم بعد أن انهكهم اللعب والجوع والصقيع، كان في انتظارهم الدفء والموائد الشهية، معظمهم وجد ملابس اخرى بدلاً من ملابسه المبتلة، أما صابر فكان اقلهم حظاً من كل النواحي، فلا ملابس اخرى غير مبتلة ولا مائدة زاخرة على قدر هذا الجوع والجهد. الا أنه لم يكن الوحيد الذي نام ليلة الثلج الاولى في ظلمة مطبقة حين لم يستطع بياض الثلج الناصع أن يكون بديلاً للكهرباء. ومع ذلك فلم يحزن صابر كثيراً فقد كانت البيوت كلها تغطس في الظلام. ولم يحزن صابر حين راح أهل الحي يتحدثون عن انقطاع الاتصال الهاتفي مع المدينة، فهو آخر من يعنيه مثل هذا الاتصال، ثم لم يحزن صابر كثيراً حين بقيت الطرق مغلقة طوال اليوم التالي، فما الذي يعنيه من هذه الطرق حتى ولو ظلت مغلقة سنة بكاملها، ولم يحزن صابر حين ظلت البقالات الكبيرة موصدة لأن اصحابها لم يتمكنوا من الوصول اليها، فليست لدى والدته اية نقود يمكن أن تشتري بها شيئاً من البقالات الكبيرة أو حتى البقالات الصغيرة.

ولم يحزن صابر لأن والدته لم تجد ما تقدمه له من طعام في اليوم

التالي غير لقمة من الخبز وقليل من الارز، فهو يعلم أن اطفالاً آخـــرين في احياء اخرى فقيرة قد لا يجدون تلك اللقمة من الخبز.

لم يحزن صابر لكلك ذلك، ولكنه حزن بشدة حين تبين له أن مدينتـــه الكبيرة عجزت تماماً عن الاحتفاءبالثلج، كما عجزت عن الاحتفاظ ولـــو ليوم واحد صغير بتلك الفرحة الغامرة التي يبعثها الثلج في العيون حين تطل صباحاً من النوافذ، فاذا الأرض كلها امتداد ناصع مشرق وزهـــرة بيضاء مفعمة بالنظافة.

إعلان براءة

كان الشيخ بهلول يتمتع بامتيازات عريضة تتعدى في كثير من الأحيان امتيازات المختار، وقليلون جداً هم الذين يعرفون على وجه اليقين متى وكيف اصبح هذا الرجل شيخاً لهذه القرية، فكل ما يعرفه الناس أن الشيخ بهلول قد اصبح جزءاً من قريتهم، شأنه في ذلك شأن الاشجار او الازقة او شواهد القبور التي كان الشيخ عادة ما يجلس عندها يقرأ القرآن في شهر رمضان أو الاعياد. أما اجيال الاولاد المتتالية فكلها تمر بلا استثناء في مرحلة تقليد حركات وعبارات الشيخ بهلول التي يظل يرددها في الموالد النبوية والمواسم الدينية، حتى إنَّ منظر الاولاد وهم يتحلقون في حارات القرية يتمايلون وهم يصيحون: الله حي.. الله حي.. قد اصبح جزءاً هاماً من الالعاب التي يمارسها الاولاد جيلاً بعد جيل.

واذا كان للمختار، كما يقولون، في كل عرس قرص، وفي كل طوشة "بلصة"، وفي كل صلحة منسف طبيخ، فقد كان للشيخ بهلول في كل مأتم قرصان: الطبيخ وأجور التغسيل والتكفين والصلاة، وكانت له مصادر ارتزاق اخرى لا يصلها الا هو والراسخون في العلم، ففي مقابل كل ورقة يصفطها بشكل مثلث، ويخربش عليها بالفحم مربعات ودوائر ورموز، كان يتقاضى عشر بيضات او نصف ريال، وكانت بعض العجائز يعطينه في مقابل الحجاب المهم ديكاً او دجاجة قد انقطعت عن

البيض، وأحياناً يكتفي من بعض النساء الفقيرات برغيف من الخبز او بقليل من الخضار والفواكه.

ثم إن الشيخ بهلول كان دائم التقرب من المختار، والتمسح بأذياله والجلوس إلى جانبه في كل مناسبة لأن ذلك كان يتيح له الوصول إلى مناسف الطبيخ من أدسم جوانبها ويعطيه مجال التفضل الدائم بعد المختار في الشاي والقهوة وغير ذلك.

وقد كان المختار هو الآخر يرتاح لوجود الشيخ بهلول إلى جانبه، اذ لا يعدم الشيخ ان يتلو آية من القرآن أو حديثاً يدعم به حجج المختار اذا لاحظ أنها بحاجة إلى مثل ذلك، وأحياناً كان الشيخ يختتم احدى خطب المختار ببيت من الشعر حتى انه اصبح يوماً بعد يوم جزءاً اساسياً من حاشية المختار وظلاً له او كما قال عنه محمد الازعر: انه الذاكرة المتنقلة للمختار، والمعين الذي لا ينضب من الآيات والاحاديث والأقوال في كل مسألة. وقد كان ذلك يغيظ محمد الازعر إلى حد جعله يقول كلما رأى المختار والشيخ قادمين إلى مجلس:

- جاء المختار وظله!!

وكان الشيخ يرد عليه:

- ايوه ظله، وانت انفلق!

ويكاد الازعر ينفلق حقيقة، ولكنه يكتم غيظه ويظل يترصد للشيخ لعله يوقعه في مطب ما، وما من أحد يجهل الاحقاد الكامنة بين المختار، ومحمد الأزعر، بسبب تنافسها القديم على المخترة، وما أصاب محمد الازعر بسبب ذلك من نكسات متتالية جعلته يصاب اخيراً باليأس من الوصول إلى هذا المنصب، ويكتفي بالنيل من المختار، والطعن عليه

كلما سنحت له الفرصة، وكان غيظه يزداد كلما لاحظ أن الشيخ بهلول يسعف المختار في كثير من الأحيان بأحاديث وأمثال لا تخطر على بال احد، ولم يسبق للازعر ان سمع بمثلها على الاطلاق، ومن ذلك أن المختار كان يتحدث ذات يوم عن ضرورة اقامة وليمة لكل ميت، حتى ولو كان اهل الميت "على الحديد" ويشحدون اللقمة، وحين احس المختار بأن ذلك غير معقول، وبأنه وقع في ورطة صعبة، التفت إلى الشيخ بهلول وهو ينتظر ان يخلصه من هذا المأزق، فقال بهلول على الفور:

- أي والله، صدقت يا ابا الفهد، جاء في الحديث: ما من أحد يموت له ميت ولم يولم له الا ظلت روحه تحوم فوق النار.

وعندها اصاب محمد الأزعر ذهول طويل عقد لسانه، فمن أين أتى بهلول بهذا الحديث، ولكنه قال:

- يا شيخ بهلول، هل أمر الله بتشليح الميت كفنه؟

- اعوذ بالله! من قال هذا؟

- أنت تقول فاذا كان أهل الميت ينامون على الحصير فمن أين لهم حتى يولموا لك ولمعالي المختار وليمة؟

- ليس لنا وانما للفقراء، وحتى تبرأ روح الميت، ثم انهم يستطيعون ان يستدينوا؟

- افرض أن أحداً لم يعطهم!

- لا حول ولا قوة الا بالله!

- يا شيخ بهلول! لا يكلف الله نفساً الا وسعها! حرام عليك أن

تكذب في امور الدين! وانكسف الشيخ بهلول ولكنه تخلص من ورطته بأن قال:

- لا استطيع أن احضر لك الكتاب الذي ورد فيه هـذا الحـديث، ولكنني اعتقد أنه جاء في كتاب "الافتاء في أمور الموت والحياة وفي سن التكفين والدفن والصلاة" للامام ابي حمد محمد بن ابي الحسين الدينامور ي.

وبذلك استطاع الشيخ بهلول أن يحسم الموقف لصالحه، وظل محمـد الازعر فاغراً فاه وهو يجترُّ غيظه الاليم، ويتمنى لو كان باستطاعته أن يكشف الاعيب بهلول وتلفيقاته، وحدث نفسه: ترى أين يمكـن العثـور على هذا الكتاب؟ ولم يخطر بباله أن يتساءل، اذا كان هناك أصلاً كتاب يحمل هذا الاسم!!

وحين أكمل المختار خطبته التي ساهم الشيخ بهلول فـي منطقتهـا وترصينها، دعا جميع الحاضرين للتوجه إلى بيت علـي ابـو غليـون ليشاركوه في عزاء أخيه ويتناولون عنده طعام المأتم.

وحين نهضوا جميعاً كان محمد الازعر ما يزال جالساً ينكش تـراب المقبرة بعود كان في يده وهو يتوعد بصوت مسموع:

- ذات يوم سوف تقع يا شيخ بهلول وستكون وقعتك أكثر تعاسـة من وقعة الثور الهرش.

لاحظ أهل القرية منذ مدة وجيزة، ان تغيراً مفاجئاً وغريباً قد طـرأ على مجريات امور الشيخ بهلول، وقد أثار هذا التغير المفاجئ الكثير من التساؤل واللغط في اوساط القرية، فقد أخذ الشيخ يهتم بهندامه، ويغسـل جبته بين الحين والحين، ويحمل في صدر قميصه مشطاً عريضاً ومرآة

مستديرة وملقطاً للشعر، ومقصاً صغيراً مدبباً يقولون انه اشتراه بثلاثة قروش من سوق الدراويش بالقدس، ثم إن الشيخ بهلول اصبح يصبغ لحيته بالحناء، ويداوم على تمشيطها وتنظيم اوضاعها حتى راح بعض الناس يتندرون قائلين: ان الشيخ بهلول يتشبب ويبحث عن زوجة، الا أن بعض الرجال كانوا يستهجنون هذه الاقاويل، والبعض الآخر كان يلوذ بالصمت، وقد حدث أن تهكم محمد الأزعر على الشيخ بهلول ذات يوم قائلاً:

- الا ليت الشباب يعود يوماً!

الا ان بهلول ظل على صمته فاضاف الازعر قائلاً:

- ما رأيك يا شيخ بهلول لو اعرتك كتاب "عودة الشيخ إلى صباه"

فانتفض الشيخ بهلول وقال:

- اعوذ بالله... اعوذ بالله، ما هذا الكلام يا رجل؟

- لا داعي للحياء! اذا كان هذا الشيء في خاطرك يا شيخ بهلول فأنا على استعداد لان ازوجك احلى بنات القرية!

فرد عليه الشيخ بهلول:

- معاذ الله! لم يبق في العمر بمقدار ما مضى، ولله ما نريد الا الستر وحسن الختام.

فرد عليه الازعر مناكداً وغير مقتنع بما قاله الشيخ:

- كم من لفة تحتها شيطان!

قال الشيخ وهو ينفض صدر جبته:

- الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

وفي بعض الاحيان كان الاولاد عندما يقابلون الشيخ بهلول في احدى الحارات الجانبية يصيحون:

- شايب، وعايب.

ورغم أن ذلك كان يؤلم الشيخ أكثر مما يؤلمه انتفاخ بطنه قبل صلاة العشاء في رمضان، الا أنه ظل يتحمل ذلك وقد صمَّمَ في قرارة نفسه أن يقطع السنة هؤلاء المناكدين عن طريق الوعظ والارشاد، فكان دائماً يردد بعد كل صلاة.

- خذوا زينتكم عند كل مسجد، أو يقول: ان الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده. حتى ولو كان دونما مناسبة.

وقد واجه الشيخ بهلول الكثير من المتاعب من أجل توطيد اركان مشيخته في القرية، فهو يعلم أن المشيخة الحقيقية لا تتم الا ببناء جامع للقرية، بالاضافة إلى الزاوية الصغيرة التي اقامها الناس قرب المقبرة من اجل وضع الموتى فيها لتغسيلهم وتكفينهم والصلاة عليهم، وقد كان الشيخ بهلول يمارس امجاده في هذه الزاوية، ويضيء فيها دائماً مصابيح الزيت ويسطو على التبرعات التي كان يضعها بعض الناس عن ارواح موتاهم من اجل شراء الحصر وقناديل الزيت، وقد اتخذ الشيخ بهلول من هذه الزاوية مقراً دائماً له بعد وفاة زوجته الحاجة مسعدة، فمن كان يريد أن يقرأ له الشيخ بهلول سورة عن روح ميت، أو يريد من الشيخ ان يصنع له حجاباً ضد "الهدباد" أو من كانت تريد أن يصنع لها حجاباً ضد الدوخة أو وجع الرأس، أو حجاباً من أجل أن يتعلق بها قلب زوجها كانوا يبحثون عن الشيخ بهلول في مقره الرسمي بزاوية المقبرة.

الا ان الشيخ سئم هذا المقر واراد أن يكون له مقر جديد بعيد عن

المقابر والموتى وروائح التغسيل والاكفان، ومنذ ذلك الحين أخذ الشيخ بهلول يشن حملة متواصلة من الوعظ والارشاد من أجل أن يقوم أهل القرية ببناء جامع يصلون فيه، ولا سيما في الاعياد بدلاً من أن يصلوا على رؤوس الجبال أو يتكبدوا مشاق السفر يوم العيد للصلاة في المسجد الاقصى.

وقد استغرب بعض الخبثاء هذه الحملة المسعورة المفاجئة التي بدأها الشيخ بعد وفاة زوجته، الا أن بعض الطاعنين في السن فسروا ذلك بانصراف الشيخ بهلول الكلي إلى الدين وانهماكه في حب الله.

شخص واحد فقط كان يعرف السبب، انها وطفاء، الارملة الشابة التي مات عنها زوجها حسن ابو غليون بعد أن لدغته الافعى وهو يحصد في الصيف الماضي، فقد ذهبت ارملة ابو غليون إلى الشيخ بهلول ليقرأ لها القرآن على روح المرحوم، ولما بركت امامه في الزاوية نسيت ان تستر نفسها جيداً، فكانت عينا الشيخ بهلول تسبحان مع ساقيها وحتى طرف سروالها، وهو يتصنع الاستغراق في قراءة القرآن، وقد تخربش مراراً وهو يقرأ تلك السورة فقد غامت الدنيا أمام عينيه وهو يراقب انفراجة فخذي وطفاء الاملسين البيضاوين، وأحس أن قلبه يصعد إلى دماغه وأن موجة من الجنون تركض في عروقه، وحين انتبهت وطفاء وهي تحس بأن صوت الشيخ قد أخذ يتقطع سترت نفسها، فتنهد بهلول بلوعة مسموعة شبيهة بلوعة الحمار حين تسحب من رأسه العليق، ولكنه ظل يطيل ويطيل في قراءة السورة ثم انهمك في سورة أخرى لعل وطفاء تعود إلى جلستها الاولى، ولما لم يحدث طلب اليها ان تعود في اليوم التالي، ووعدها أن يقرأ لها سورة على روح المرحوم مجاناً ولوجه الله تعالى.

وقد فوجئت وطفاء في اليوم التالي عندما بدأ الشيخ يسألها عن

أحوالها ويقص عليها بعض الاحاديث، من نحو إن لجسدك عليك حقـــاً، ولم تفهم وطفاء بادئ الامر مقاصد الشيخ، ولكنه صار يضع يده علـــى ركبتها متظاهراً بالانهماك في التحدث اليها، ثم أخذت يده تـسبح قلـيلاً قليلاً إلى فخذها وقال:

- يا صلاة النبي ان لك فخذاً مثل بطيخ أول تشرين، ثم قال:
- لقد خلق الله للناس اجساداً ليستمتعوا بها.....

وعندما دخل أحد الاولاد إلى الزاوية فجأة سحب الشيخ بهلـــول يـــده بسرعة عن فخذ وطفاء، وبدأ يقرأ بصوت مسموع:
يا أيها الذين آمنوا إنا خلقناكم من ذكر وأنثى... الخ.

ولما خرج الولد امتدت يد الشيخ بهلول فجأة إلى تكويرة بطن وطفاء وقال وهو يتلمسها:

- ان بطنك طري مثل العجين الفطير.

ومن يومه والشيخ بهلول يرتع في بحبوحة وطفـــاء ويحنـــي لحيتـــه ويمشطها ويغسل جبته وعمته بين الحين والحـــين. الا أن شـــيئاً ظـــل يضايقه، وهو خوفه من مداهمة أحد الناس له ذات ليلـــة، ناهيـــك عـــن مناكفة محمد الازعر له من وقت لآخر، وقد كانت هذه المناكفة تخيفـــه وتقرص امعاءه وخاصة عندما قال له محمد الازعر:

- لو أنك يا شيخ تعمل حجاباً لوطفاء لعل الله يرزقها بزوج بـــدلاً من أن تظل تقرأ القرآن على روح ابو غليون.

فانهلع الشيخ بهلول وكاد قلبه يهوي، لكنه لم يلبث أن رفـــع صـــوته على محمد الازعر:

- يا رجل! اتق الله! هل تريد أن تمنع الناس من قــراءة القــرآن على ارواح موتاهم؟

وغادره وهو يقول: لا حول ولا قوة الا بالله!!

واخيراً نجح الشيخ بهلول في تغيير مقره الرسمي، فبعد عمليات اقناع متواصلة وخطابات طويلة وعريضة اقتنع الناس بضرورة بناء جــامع، ونقل الشيخ بهلول مقره الرسمي اليه، وبقيت الزاوية مكاناً مستوراً هادئاً للالتقاء مع ارملة ابو غليون التي ظلت تزور الشيخ بهلول مــن وقــت لآخر بدعوى انها تريد ان يقرأ لها القرآن على روح المرحوم.

حين طرق محمد الازعر باب المختار هذه الليلة، كانت الاشاعات قد ملأت القرية عن علاقة منحطة قد نشأت بين الشيخ بهلول وارملة حسن ابو غليون، وقد تعمد المختار بادئ الامر ان يضع في احدى اذنيه طينة وفي الاخرى عجينة وأن يلوذ بالصمت، وقد حاول أكثر مــن مــرة أن يفاتح الشيخ بهلول بهذه المسألة الا أنه لم يجرؤ علــى ذلــك خــشية أن (تفقع) بينه وبين بهلول، وتنقطع الحبال الكثيرة التي تربطهما، فقد كــان كل منهما يقوم بالترقيع على عيوب الاخر، وحين فاتحه محمد الازعــر قبل أيام في هذا الموضوع سارع المختار بلفلفة النقاش، وأعلن أن محمد الازعر حاقد على الشيخ ويريد تلويث سمعته أمام الناس، بل إن المختار اضاف في حماسة جوفاء ان حذاء الشيخ بهلول انظف من كــل الــسنة السوء التي تحاول أن تمضغ سيرته وقال:

- ان الشيخ يختلي بالناس في الزاوية ويقرأ لهم القرآن أو يكتــب لهم الاحجبة، ولم يسبق أن تحدث عنه أحد بسوء.

الا أن المختار سمع وهو يعود إلى بيته قبل يومين أحد الاولاد يقول

لولد آخر: لقد رأيت الشيخ بهلول يقبّل وطفاء في الزاوية ولمـــا رآنـــي صار يقرأ القرآن:

فقال الولد الآخر وهو يضحك:

- وهل كنت تظن أنه سيعمل لك مولد؟

قال محمد الازعر:

- الشيخ بهلول طلعت رائحته يا مختار!
- يا رجل وحد ربك، لا تتحامل كثيراً على الشيخ.
- أنا لا أتحامل، ولكن هذه مسألة تحتاج إلـــى حـــسم، والا فـــان فضيحة أكبر من مولد سوف تقع في البلد.
- أنا مقتنع بأن الشيخ بهلول بريء من هذه التهمة!
- أنت حر في قناعتك، ولكن عرسة الشيخ بهلول سيكون لها كثير من الطبل والزمر في البلد وعليك أن تقدر العواقب.
- أية عواقب يا رجل؟
- بكره اولاد ابو غليون يذبحون الشيخ ويذبحون وطفـــاء! هـــل يرضيك هذا؟
- يا ليتني ما سمعت منك هذا الكلام!
- تسمعه مني أحسن من أن تسمعه من غيري!

وحين غادره محمد الازعر دبت في صدره الهواجس العاطلة، وأيقن أن الأمر أخذ يتسع حتى يكاد يفلت من يده، وقرر أن يتوجه من فـــوره إلى الجامع لمقابلة بهلول وقال لنفسه: العيب دائماً يـــزداد ولا يـــنقص، وهذه الاشاعة اصبحت تدب بين الناس كما يدب الطاعون.

وجد المختار الجامع مضاء ولكنه لم يجد الشيخ، فانتظر لعل الشيخ أن يكون قد خرج لقضاء حاجة، وعندما طال به الامر توجه إلى الزاوية وهو يحدث نفسه: ولله (قفشتك) الليلة يا شيخ بهلول!

وحين اقترب من الزاوية خلع حذاءه وسار ببطء وعلى رؤوس أصابعه وذهل حين وجد الزاوية مطفأة والظلام مطبقاً تماماً، وكانت العادة ان تظل الزاوية مضاءة بسراج من الزيت، وحين اصبح المختار قريباً من الباب اخرج من جيبه علبة الثقاب، وكما يقفز قط هائج قفز المختار إلى الداخل وأشعل عود الثقاب.

في الطرف السفلي من الزاوية والى يمين الباب لمعت على ضوء الثقاب فخذان كأنهما عمودان من ثلج سرعان ما ذابا واطبق الظلام، وهم الشيخ بهلول أن يخطف نفسه خارج الزاوية لولا يد المختار التي امتدت بسرعة لتمسك به وصاح المختار:

- الى أين يا شيخ بهلول؟
- المختار!!!
- نعم المختار؟ ومن كنت تظن؟
- الحمدلله... الحمدلله...
- ماذا تفعل هنا يا شيخ بهلول؟ اظنك تقرأ القرآن على روح المرحوم!

وأشعل المختار عوداً آخر من الثقاب، كانت وطفاء تقف مواجهة الركن الجنوبي وهي ترتعد، قال المختار:

- لا تخافي يا وطفاء، الذي ستر لا يفضح!

استرد الشيخ بهلول انفاسه وقال للمختار:

- وللّه يا مختار أن لها مذاقاً احلى من الشمام والـذ مـن اللحـم المشوي!
- قال المختار:
- ولماذا لم تخبرني بذلك من زمان يا خبيث؟
- ما فات بالامكان تعويضه يا مختار!!
- سوف نجرب!!

قال بهلول:

- أنا ذاهب إلى الجامع وأرجو أن أراك هناك.

وحين وصل الشيخ بهلول كان الجامع ما يزال مضاء فخلـع جبتـه ولفته ونام بهدوء.

وفي صباح اليوم التالي دعا المختار إلى اجتماع عام فـي الجـامع لكافة رجالات القرية حذرهم فيه من مغبة القيل والقال، وزعم أن بعض الالسنة الدنيئة قد حاولت مؤخراً أن توسخ سمعة الشيخ بهلول الرفيعـة بتلفيق بعض الافتراءات والتهم الباطلة حوله، وبينما كان المختار يواصل القاء خضبته البليغة واعلان البراءة التامة للشيخ بهلـول كـان محمـد الازعر يغادر الاجتماع وقد تأكد له أن كلا من المختار والـشيخ ينقـر على دف واحد، ومضى وهو يحدث نفسه:

- غدا سوف أكشف هذه اللعبة القذرة، ولسوف اثيرها في القريـة فضيحة شعواء تأكل الاخضر واليابس.

وواصل مسيرته في اتجاه المقبرة.

الـــوطـن

ذلك الصباح كان ماطراً او بارداً، ومع ذلك فلم يترك لي الصغار في البيت فرصة للاستغراق في النوم حتى ساعة متأخرة من الضحى، وهو ما ارجوه واستمتع به عادة في يوم عطلتي الاسبوعية.

وقد اصبح يوم العطلة بالنسبة لي في الآونة الأخيرة مبعثـــاً للـــشقاء والارهاق بما يفوق ارهاق العمل، فان لم تكن الزوجة قد أعدت برنامجاً للزيارة تلبية لما يسمونه بالعلاقات الاجتماعية، فإن الاولاد يكونون قـــد هيأوا انفسهم للخروج في رحلة، ليس مهماً الجهة التي نتوجه اليها، ولكن المهم أن يخرجوا، أن يذهبوا إلى أية جهة لا فـــرق بـــين عجلـــون او الاغوار.

ذلك الصباح وجدت نفسي البي رغبة العائلة في الذهاب إلى الاغوار فبرودة الجو وكون المطر رذاذاً خفيفاً لا يعيق السفر، ولأنهم هيأوا كـــل شيء للرحلة، كل ذلك دفعني إلى الموافقة وتجاوز رغبتي فـــي البقـــاء أطول مدة ممكنة في الفراش اطالع الصحف والمجلات أو أنهمـــك مـــع رواية أو ديوان شعر.

حين انتهت العائلة من اعداد تجهيزات الرحلة وترتيب الاغراض في صندوق السيارة الخلفي، ادرت المحرك وانطلقنا دون أن أجد رغبة في تفقد شيء مما يتعلق بالزيت أو الماء أو البطارية كما يفعل معظم الناس بسياراتهم ولا سيما في أيام العطل.

في الطريق، وبعد أن قطعنا بضعة كيلومترات، بدأت انتبــه لأصــوات غريبة تنطلق من السيارة وتعلو على صوت الراديو، اصوات مواء متقطعة ومتلاحقة تنطلق من مقدمة السيارة ومن جهة المحرك بالذات، حتماً انهــا قطط تموء، اغلقت راديو السيارة واصغيت في محاولة للتأكد واصغت معي العائلة برمتها، انها بالفعل اصوات قطط تموء في مقدمة السيارة.

توقفت وفتحت غطاء المحرك، وكم كانت دهشتي عظيمة حين وقع بصري على زوج من القطط الصغيرة تحتضن الواحدة منهما الاخــرى فوق البطارية تماماً. يا للعجب كيف وصلت هاتان القطّتان إلى المحرك وما الذي دفعهما للبقاءفيه والالتجاء إلى البطارية بعيــداً عــن اخطــار المروحة وحرارة المحرك والاخطار الاخرى؟

اوقفت محرك السيارة وأخذت أحاول طرد القطتين عــن البطاريــة ولكنهما سارعتا بالهبوط إلى اسفل المحرك ثم اســتقرتا فــوق قطعــة الصفيح الواقية من الصدمات الارضية، وحاولت بالحركات والــصياح اخراجهما من موضعهما ولكن دون جدوى، فاســتعنت بعــصا طويلــة مددتها نحو القطتين وحركتها يمينا وشمالاً، ولكن عبثاً تمترست القطتان في الغطاء السفلي للمحرك وباءت كل جهودي لاخراجهما او انزالهمــا من السيارة بالفشل، ولم أجد مناصاً من مواصلة رحلتي بصحبة القطتين اللتين تقعيان اسفل المحرك في غطاء الكارتير.

بعد أن قطعت بضعة كيلومترات اوقفت السيارة، وعاودت الكرَّة من جديد لإنزال القطتين، وجدت أنهما عادتا لاحتــضان بعــضهما فــوق البطارية، وفي اللحظة التي فتحت فيها غطاء المحرك انحدرت القطتان إلى الاسفل إلى الموضع السابق الذي تمترستا فيه ورفضتا النزول.

كان لا بد لنا من مواصلة رحلتنا إلى الاغوار برفقة القطتين، وحين وصلنا إلى المكان الذي اخترناه للجلوس وتناول الغذاء، انزلنا حاجياتنا وانتشر الاولاد يلعبون وأخذت أراقب القطتين لعلهما تغادران السيارة ثم انصرفت إلى اعداد الغذاء.

وحين حانت مني التفاتة نحو السيارة رأيت القطتين وهما تغادرانها، وظللت ارقبهما حتى لاذتا بالفرار بعيداً. قلت لنفسي لعلهما أحستا بالامان هنا واختارتا هذا المكان للنزول فيه والبحث عن مخبأ جديد أو عائلة جديدة تلحقان بها. ثم شرعنا في تناول الغذاء وانشغلت العائلة بالرحلة ونسيت أمر القطتين.

حين بدأ الاولاد يجمعون متاع الرحلة وينقلون الحاجيات إلى صندوق السيارة فوجئنا تماماً ونحن نشاهد القطتين تعدوان نحو السيارة بسرعة خاطفة، وتتجهان إلى اسفلها ثم تقفزان إلى الغطاء السفلي للمحرك حيث كانتا تربضان طوال الطريق من عمان إلى الاغوار!!

هذه المرة لم أحاول مطلقاً انزال القطتين او طردهما، فَهُما قد احستا أن رحلة العودة إلى عمان على وشك أن تبدأ فعادتا مسرعتين لامتطاء السيارة.

طوال الطريق كنت أقود السيارة وأنا شارد الذهن أفكر في هاتين القطتين اللتين أصرتا على مرافقتنا في هذه الرحلة، وها هما تعودان معنا إلى عمان.

حين وصلنا البيت واوقفت المحرك لمحت القطتين تغادران السيارة حتى قبل أن يتمكن أحد منا من النزول.

اعترتني دهشة شديدة وتملكني العجب، كيف عرفت القطتان أننا

وصلنا، هل للضاحية التي نسكنها رائحة مميزة؟ وأخذت أفكر: لا شك في أن القطتين تتخذان من السيارة (اسفل المحرك) مكاناً تهجعان فيه في ليالي الشتاء الباردة، ولعلهما قد أخذتا على حين غرة، حين تحركت بهما السيارة فجأة ولم تتمكنا من مبارحتها، وها هما تغادرانها فور وصولنا مباشرة، وتساءلت: لماذا اصرت القطتان على العودة؟ لماذا رفضتا مغادرة السيارة حين توقفنا مرتين لانزالهما، لماذا عادتا من الاغوار رغم أنها مكان مناسب لفصل الشتاء على الأقل؟ يا لله كم أنت عزيز أيها الوطن حتى على القطط التي لا تملك منك شيئاً أكثر من المأوى؟

أحزان محمّد الماحي

اخيراً استيقظت الآمال في صدر محمد الماحي بان يحظى بـــاحترام اهل قريته، فقد سلخ عمره وهو يتمنى أن يسمع كلمـــة واحـــدة نظيفـــة يذكرونه بها، ورغم كل محاالاوته لاسترضائهم ودفع طلبات المقهـــى أو أجرة الباص عن بعض المتنفذين منهم، كلما سنحت له الفرصـــة الا ان جهوده كانت تضيع هباء.

وفي كثير من الأحيان كانت تعتري الماحي احزان شديدة تجعله يعتقد بأن المنحوس منحوس ولو علقوا على قفاه فانوس، وكانت أَحزانه تنتهي دائماً بالسباب والشتائم لأهل القرية جميعاً:

- تافهون، يجب ان اعلمهم ذات يوم كيف يحترمونني، صـــحيح انهم ضبطوني ذات يوم وانا أسرق دجاجات الحاجـــة مـــسعدة، وضبطوني وانا اسطو على زيتون علـــي الـــشيخ، وداهمنـــي المختار في تلك الليلة المنحوسة وانا اتلصلص قرب مقثاة أبـــو زغلول،... وحين قطعت على نفسي عهداً الا أعود لمثل ذلك لم يصدقوني، ولكن ما العمل وانا لا اطيـــق ان اشـــتغل يـــومين متتالين في مكان واحد؟؟

ومحمد الماحي رجل كثير التأنق، يلمـــع لحيتـــه وحـــذاءه، ويلـــبس البنطلونات الضيقة ويدخن السجاير الفاخرة في مواسم العز، ولا يـــستقر

في عمل واحد على الاطلاق، فقد كان يهرب من كل عمل يتاح له بعد ان يكون قد اختلس أو افسد أو تناقر مع الذين يشغلونه...

- لقد أصبحت الثقة بي امراً يشابه الجنون أو المغامرة الطائشة!! ولكن هل انا الوحيد الهامل بينهم؟ هل المختار أو الشيخ بهلول احسن مني؟؟ كان الماحي يصعد عشية هذا اليوم درجات باب العامود بعد أن امضى نهاره يلعب الورق مع زعران مقهى الباشورة، فاليوم هو عطلته، وغالباً ما يقضي عطلاته يلعب "الهاند" في المقهى أويتسكع في شوارع القدس اليهودية يستعرض افواج السيقان العارية، او يتبطح في حدائق ماميلا يسترق النظرات إلى العشاق اليهود وهم يتبادلون القبلات في زوايا الحديقة، وحين ارتقى آخر درجات باب العامود، صادفه المختار وقال له وهو يناوله ورقة مطبوعة:

- انت مطلوب للمقابلة في المسكوبية*... والله صرت خطيراً يا ابن الماحي!!

احس الماحي باهميته لاول مرة في التاريخ! فاسند قامته بكبرياء عظيمة، وتطلع بطرف عينه إلى المختار، وامال برأسه قليلاً دون أن يتكلم، كان يريد أن يقول:

- آن لكم ان تعرفوا ان ابن الماحي ليس ساقطاً!!

---

* المسكوبية في القدس العربية المحتلة منذ عام 1948 وهو مبنى الكنيسة الروسية الذي اتخذت منه المخابرات الاسرائيلية مقراً لها حيث تجري التحقيقات والاعتقالات للمناضلين العرب.

كان الماحي قد طلب الزواج من حمدة احدى فتيات القرية، فتاة لا اب لها ولا اعمام ولا اخوال، مقطوعة من شجرة كما يقولـون، والمـاحي مثلها مقطوع من شجرة، بل وأكثر من ذلك، فقد ماتت امه منذ سـنوات بعيدة، احس من يومها ان النحس الحقيقي قد رافقه، كان الماحي يعمـل نادلاً في مقهى الباشورة، ويرى كل يوم مئات الصبايا يخطرن من أمام المقهى فيتقطع قلبه شبقاً، وحين لاحظ عليه معلمه ذلك قال له:

- لماذا لا تتزوج يا محمد الماحي؟

ولم تبرح فكرة الزواج رأس الماحي فظل يجمع قرشاً فوق قـرش، ويقتنص من هنا وهناك، ولكنه حين ذهب إلى ام حمدة يطلب يد ابنتهـا انتفضت وصرخت في وجهه:

- (روح تغور) هل انت اهل للزواج يا مصدي؟

فضربها الماحي، وجرها من شعرها في حارات القرية حتى تجمعت عليه النسوة والاولاد، فولى هارباً صوب المدينة، ورغـم ان المختـار ضربه أكثر من عشرة كفوف في المقهى وتسبب في طرده من عمله، الا أن أهل القرية ظلوا يلاحقونه بشتائمهم وبصقاتهم اينما ذهب.

ثم حاول الماحي ان يصلح اموره، ويعمل (كـونترولاً) فـي بـاص القرية، فقد كان يحس برغبة لعينة تلح عليه كلما صعد الباص ان يقـف قرب مقعد السائق، يستعرض وجوه الجالسين وكأنه يـذكرهم بوجـوده، وان عليهم أن يحترموه، واذا اضطر يوماً للجلوس كان يبادر إلى تـرك مقعده لأول رجل أو امرأة ليس احتراماً لهم ولكن اشـباعاً منـه لهـذه الرغبة، وحين رفض المختار والقائمون على شؤون الباص ان يـشغلوه

جابياً فيه اصابه غم شديد، واقسم بانه سيظل يقف في الباص كل سفرة، يتطلع إلى وجوههم ووجوه نسائهم كما يحلو له، ويغيظهم ويقهرهم.

ولكن المختار هو الذي قهره ومسح به الارض، واجبره على الجلوس في مؤخرة الباص مثل الكلب، فقد لاحظ الماحي يوماً بعد يوم ان معلمة القرية ترمقة باعجاب أو هكذا خيل اليه، فأخذ يهندم نفسه، ويضع تحت ابطه كتاباً عريضاً و سميكاً اشتراه بخمسة وستين قرشاً، وجعل يقف قرب السائق على مرأى من المعلمة، وكان يتظاهر أحياناً بمحاولة القراءة في اثناء سير الباص، ولكن فرحته لم تتم، فقد قطع المختار انفاسه حين قال له ذات يوم على مسمع من المعلمة:

- من اين استعرت هذا الكتاب يا ابن الماحي؟

- ....

- الذي يراك يحسب انك فيلسوف اعظم من سقراط!! اذا كنت تهوى حمل الكتب فعندي كتب لا يحملها حمار.

ضحكت المعلمة وانغرست السكين في وجه الماحي، فحرّم على نفسه حمل الكتب أو الركوب في الباص اذا كانت المعلمة فيه.

حين استدعته الدولة للانخراط في سلك الحرس الوطني، ايقن الماحي ان الفرصة قد حانت لاقناع الناس بانه رجل على (قد حاله) وبأنه سيحظى بالاحترام، تعمد الماحي ان يكون جندياً مطيعاً وخادماً نابهاً لكل رؤسائه ومن هم أعلى رتبة منه، وقد استطاع بالفعل ان يفتح صفحة جديدة في حياته، فما انقضى عليه عام الا وقد اصبح عريفاً ومسؤولاً عن عشرة انفار!! (يا للعظمة! الماحي مسؤول عن عشرة انفار من رجال قريته! غداً سأكون ضابطاً ومسؤولاً عن القرية بأكملها! وسوف

اعلم المختار وبطانته كيف يحترمون الماحي، وكيف يركعون سجوداً عند مقدمه!).

وفي ايام العطل والاجازات كان الماحي يلبس ربطة عنق كاكية من تلك الربطات التي اعتاد الضباط ان يلبسوها، وكان يحمل في يده عصا سوداء رفيعة، ويتجول في شوارع القرية كأنه جنرال، وكان في بعض الاحيان يتجرأ ويصل في تجواله إلى المدينة، يحتسي الشاي في مقهى الباشورة، ويقف في الباص كعادته، ينبه كل الجالسين إلى أن الماحي اصبح عريفاً أو فلنقل ضابطاً أو ما يشبه ذلك.

واستبدت اوهام العظمة بالماحي يوماً بعد يوم، وزادت معه الأمور حتى جاوزت حدها، فاشترى ملابس ضباطية ونجوماً، وصار يذهب إلى المقهى، ويجعص هناك متباهياً أمام الجالسين برتبته العسكرية المزيفة، وكان ينهمك احياناً في أحاديثه ويتكلم مثل ضابط حقيقي، وحتى يوم جاءته الشرطة العسكرية وجرته إلى السجن كان ما يزال يعتقد انه ضابط حقيقي، وان المختار والقرية والشرطة العسكرية قد تآمروا عليه ليضعوه في السجن ويهدموا اركان عظمته.

وحين سقطت الضفة الغربية بيد الاسرائيليين كان الماحي يلوب شوارع القدس مثل الكلب الهامل، ويرتاح آخر النهار وهو يحمل معدته الخاوية في مقهى الباشورة، ولا يجد في جيبه ثمن فنجان الشاي الذي يتحتم عليه ان يشربه، وفي احيان كثيرة كان الماحي يزوغ من وجه المعلم، ويغادر المقهى دون أن يشرب شيئاً، ولكنه حين اصبح مراسلاً في فندق الامراء عادت اليه عظمته الضائعة، فصار يلبس القمصان المكوية، ويدخن سجاير "التايم" الفاخرة، ويضع اوراق النقود الحمراء في

جيب قميصه الابيض اللامع، ويجلس في المقهى يلعب الورق ويتحــدث عن اخطاء عبد الناصر في الحرب الأخيرة.

اما أهل القرية فقد ظلوا مصرين على ان الماحي تافه وحقير، وانــه يتاجر بالحشيش، ويسير مع القوادين والعاهرات، وقد اكد احــد رجــال القرية انه رأى الماحي يسير ذات ليلة في شوارع يافا وبــصحبته فتــاة يهودية شقراء، وأكد آخر انه رآه يصعد ذات ليلة درجات باب الساهرة ومعه شاب وفتاة يهوديان، وكان بعضهم لا يستبعد ان يعمــل المــاحي جاسوساً لليهود، لا سيما وانه بدأ يتعلم اللغة العبرية مؤخراً.

(المختار يعتقد بلا شك انني صــرت جاسوســاً! مجنــون، كلهــم مجانين!!)

كان المختار قد ابتعد عن الماحي بضع خطوات، تطلع الماحي إلــى الورقة، لم يستطع ان يتبين منها شيئاً، ما عدا نجمة الشرطة الاسرائيلية ذات الزوايا التسع المطبوعة في رأسها، صاح الماحي بالمختار:

- يا مختار

- مالك يا ولد؟

- اسمع انا لست ولداً يا مختار

- طيب فهمنا، وماذا تريد يا ابن الماحي؟

- ابن الماحي ليس جاسوساً كما قد تظنون؟

ابتسم المختار وقال:

- ومن قال انك جاسوس؟

- متى سأذهب للمقابلة؟

- غداً.

قالها المختار، ولوى وجهه وانصرف.

توجه الماحي من فوره قاصداً المقهى (هناك سأريهم الورقة، وسأقول لهم أن محمد الماحي مطلوب للمقابلة في المسكوبية! وسيشعرون لاول مرة انني اصبحت رجلاً ذا شأن، ولكن... ماذا تريد الشرطة مني؟ هل تراهم يريدون حقاً ان يشغلونني جاسوساً؟ ام ان احداً من أهل القرية قد وشى بي فعلاً وأخبرهم أنني كنت أحد افراد الحرس الوطني قبل عام 1967؟ ليكن ما يكون وليحبسوك يا ابن الماحي فقد يقتنع أهل القرية فعلاً، ولأول مرة، بأنك رجل تستحق الاحترام.

وحين أوشك الماحي أن يدخل المقهى صدمته أبوابه المغلقة، لقد نسى ان الوقت قد تأخر به كثيراً، وان آخر باص يغادر إلى القرية قد مضى، وان احداً لن يتاح له ان يرى الورقة التي جاءته والتي قد يصبح بسببها رجلاً يحظى بالاحترام، تحسس الماحي بلوعة صادقة ابواب المقهى المغلقة، وعاد يجرُّ خطاه التاعسة بينما وقع اقدامه يتناثر عبر الازقة والشوارع العتيقة.

(القدس – تموز 1968)

زائـر الـمسـاء

حين عدت إلى الفندق في ساعة متأخرة من الليل، سـلمني موظـف الاستقبال مفتاح الغرفة ومعه ورقة مطوية ومشبوكة داخل حلقة المفتاح، سحبت الورقة ودسستها في جيبي دونما حماس، فقد كنت مقتنعاً بأنهـا رسالة وضعها لي صديق جاء لزيارتي في الفندق ولم يجدني، ثم انني كنت مرهقاً بعد مشوار طويل من السير على الاقدام في شوارع دمـشق القديمة التي طالما راودني الحنين إلى المشي فيها منذ كنت طالبـاً فـي الجامعة قبل أكثر من خمسة عشر عاماً.

وصلت غرفتي في الطابق الرابع واستلقيت بكامـل ملابـسي برهـة لاسترداد انفاسي، فقد كان مصعد الفندق عجوزاً وكثير العطب وحدث أن تعطل وأنا بداخله حين كنت أهم بالنزول مساء أمس، فـآثرت ان اصـعد السلالم سيراً على الاقدام تحسباً من عطل مفاجئ قد لا يكـون اصـلاحه سهلاً كما حدث في المرة الماضية. كانت الرسالة على النحو التالي:

الاخ العزيز...

جئت لرؤيتك والسلام عليك في الساعة السابعة مساء اليوم (تـاريخ اليوم بالارقام) ولكنني لسوء الحظ لم أجدك سأعود لزيارتك مرة أخرى غداً في نفس الموعد وكلي أمل أن تنتظرني واسلم.

وكانت الرسالة تحمل توقيع (ابو صالح)

ترى من يكون ابو صالح هذا؟ وأي شيطان يقدر على بعث صاحب

هذا الاسم في ذاكرتي ذات الثقوب القابلة لاضاعة اي شيء حتى الأشياء الكبيرة.

وضعت الرسالة جانباً في محاولة جادة، ولكنها يائسة، للتعرف على الصديق أبي صالح، ثم تناولتها مجدداً وحدقت في الخط فمن يدري لعلي اتذكر صاحبه، فلا مناص أن يكون ابو صالح أحد الاصدقاء المقربين، لقد جاء لزيارتي ثم ها هو يعد بالعودة مرة أخرى، ولا بد أن يكون هناك أمر هام يريد الاستفسار عنه، ولكن الخط لم يرشدني إلى شيء فتركت الورقة تسقط من يدي إلى جانب السرير، وحاولت أن أعطي جسدي قليلاً من الاسترخاء وأن اترك لذاكرتي مهمة اعادة ترتيب الاشياء.

مضت لحظات حاسمة من الاستغراق الحاد والتذكر المنظم، ولكن عبثاً، ليس هناك أي أثر يمكن أن يقود إلى صاحب الاسم، ليس ذلك فقط ولكن ذاكرتي تحولت إلى ما يشبه الحجر الأصم، فقد ضاعت منها كل الاسماء التي تشتمل على حرف الصاد مثل صابر وصبحي وصادق وكأن صاعقة ما قد انقضت على ذاكرتي ومسحت منها كل الاسماءالتي تدخل الصاد في بنائها.

مكثت كذلك برهة من الزمن، ثم قررت أن اتناسى الموضوع ببعض المطالعة اقطع بها الوقت بحثاً عن النوم، ولكن ابو صالح تحول إلى شبح يحوم حولي ويجردني من أيّ بادرة للاسترخاء أو الهبوط في هوة الفراغ المريح، وأحسست أن موجة من الارق تغزو مفاصلي وتسبح عبر اطرافي فنهضت من فوري وقررت ان استعين بالقلم والورق لتنظيم ذاكرتي واعادة ترتيب الاسماء فيها.

حاولت أن أحصر علاقاتي الاجتماعية المتعددة في حقول لعلي أجد أبا صالح في واحد منها، حصرت حقل المعلمين (لقد نسيت أن أخبركم بأنني اعمل معلماً) ولكنني لم أجد معلماً واحداً اسمه صالح او ابو صالح، ثم اتجهت إلى حقل الاقارب ولم أجد احداً، ثم حاولت أن أحصر حقل المعارف والاصدقاء والجيران وكان لبالغ دهشتني أنني لم أجد أحداً، واخيراً كان من العبث أن أحاول اللجوء إلى حقل الطلاب فهو حقل شاسع، وذاكرة المعلم لا يمكن لها أن تستحضر الطلاب بالوجوه فكيف يمكن أن تستحضرهم بالاسماء.

وظللت اغرق في هذه الدوامة جزءاً كبيراً من الليل، وحتى الساعات القليلة التي غفوتها كان ثمة كابوس يحلق فوقها ويمزق اوصالها اسمه ابو صالح.

قبل أن يحين الموعد الذي حدده لي الرجل في رسالته وهو السابعة من مساء اليوم، جلست في صالة الفندق، ففي هذه الحالة يتحتم عليه أن يكون البادئ في التعرف علي، وبذلك اعفى نفسي من مغبة مواجهة الاحراج فيما لو أنه كان السابق إلى المجيئ وكان علي أن أتعرف عليه.

في تمام الساعة السابعة كان رجل نحيف طويل أشيب الفودين وكأنه في بداية كهولته يدخل صالة الفندق ويتجه من فوره الي، نهضت بدوري استقبله مرحباً في محاولة للتظاهر بأنني اعرفه وعانقني الرجل بحرارة رددت عليه بمثلها، وأنا ما أزال اداري ذهولي، قلت له:

- اهلاً يا ابا صالح.
- اهلاً بك يا استاذ.

ولم تقدني هذه العبارة إلى معرفة اي شيء جديد، ولكن كلمة استاذ

جعلتني اعتقد بأن الرجل ينظر الي باعتباري معلماً، وبالتالي فقد يكـــون من اولياء امور الطلاب الذين قابلتهم بحكم ذلك مرة واحدة ذات يوم.

قلت محاولاً معرفة المزيد.

- اين أنت يا رجل؟

- سبحان الله ألا تعرف أين أنا؟ الكل يعرف أنني في الجنوب منذ عشر سنوات وأنني تركت المدينة والاهل لالتحق بالمقاتلين.

لم أجد ما أقوله للرجل فأنا مازلت أجهل حقاً من يكون ومن هم أهله وما علاقتي بالأمر كله، قلت له:

- وكيف حالك؟

وتفرست ملياً في ملامحه، كان يبدو متعباً ولكنه صلب وحاد، وذقنه غير الحليقة والمليئة بالشيب تنم عن مدى انشغاله عـــن نفـــسه وعـــدم اهتمامه بها، نظر الي بشكل خاطف وكأنه يستغرب تفرسي في ملامحه أو بلاهة سؤالي وقال:

- نحن في أحسن حال، وكما ترى فانه لا وقت لدينا حتى لنـــسأل انفسنا مثل هذا السؤال.

وهكذا كان الرجل يغلق أمامي الأبواب، وكلما حاولت أن أجد منفـــذاً لأتعرف عليه من خلاله كان يغلقه، احببت لو أنه يسألني عن أحوالي أو عن أحوال الناس في المدينة فلعل ذلك يعطيني فرصة للتعرف عليه من بعض اسئلته او تعليقاته الجانبية ولكنه واصل حديثه:

- يبدو أنك لم تتذكرني حتى الآن هل نسيت صالح الورداني؟؟

وفجأة لمع الاسم في ذاكرتي كأنه البرق، انه صالح احمد الورداني، يا لله كيف تخونني الذاكرة إلى هذا الحد؟ وكيف غاب الرجل عن ذهني كل هذه المدة؟ ولم اتمالك نفسي من اعلان الدهشة، فقد اعترفت ملامح وجهي بذلك، ولكنني خجلت من الاعتراف للرجل بأنني اتذكره الآن لأول مرة.

كان ذلك في مدينة القدس قبل سنوات طويلة خلت، كنت يومها معلماً في المدرسة الرشيدية، وكان صالح احمد الورداني واحداً من تلاميذي النجباء، فقيراً ولكنه مجتهد، كان في الصف الثاني الثانوي العلمي، لم يكن الأول في صفه ولكنه كان نموذجاً للطالب الجاد الانطوائي المليء بالحزن والفقر والصمت، لم يكن هناك ما يستدعي التعرف على ولي امره، ففي اغلب الحالات يكون الطلاب الكسالى والمشاكسون هم الذين يقوم المعلمون باستدعاء اولياء امورهم، أما صالح فقد جاء والده ذات يوم ليعتذر عن تغيبه قائلاً:

- إن صالحاً مريض وارجو أن تعفيه من الدوام هذا اليوم... ربما كان بامكانه أن يداوم غداً، ولم أعد اذكر الآن ما اذا كان صالح قد تغيب يوماً أو يومين أو اكثر ولكنني أذكر أنه كان في نهاية العام من الاوائل المتفوقين. ثم رأيت أبا صالح مرة أخرى بمحض الصدفة، كان ذلك في عمان بعد ثلاثة أعوام من النزوح، كنت اعبر شارع السلط متجهاً إلى موقف سرفيس جبل الحسين حين وجدت الرجل هناك في انتظار السرفيس، كان يرتدي ملابس الفدائيين في حين يبدو وكأنه قد شاخ فجأة، وأن السنوات الثلاث التي مرت على رؤيتي له في المرة الاولى تبدو وكأنها

عشر سنوات، بادرني الرجل بالتحية وبادرته بالسؤال عن صالح، فأعرض عني ملياً وأكفهرت ملامحه، وبدا كأنه يكابد موجة عارمة من الحزن والانقباض، قال لي وهو يكاد يبكي:

لقد قتلوه، الم تعلم بأنهم قتلوا صالحاً، قتلوه يوم الاثنين، أول أيام حرب حزيران، لقد خرج من البيت برغم كل توسلات والدته، وفي شارع صلاح الدين قتلوه، زخة رصاص مزقت جسده، واجتاحت الرجل ارتعاشة مفاجئة واختنق صوته بالنشيج، وكأنه يروي لأول مرة قصة مصرع ولده، وطوال الطريق حتى بعد أن ركبنا السرفيس ظل الرجل يروي لي تفاصيل مأساته، وكيف علم بمقتل ولده ثم انطلق ليحمل جثته إلى البيت، وكيف أنه رفض حتى بعد انتهاء الحرب أن يتوجه إلى المقبرة في باب الساهرة لدفنها رغم الروائح الكريهة التي تنبعث منها، ثم روى لي كيف أنه كان يرى ابنه يقف على بوابة البيت بانتظاره عند عودته مساء كل يوم، واستمرت هذه الظاهرة إلى حد أنه لم يعد يحتمل استمرار ذلك فقرر تغيير منزله، ولكنه عدل عن ذلك وقرر الرحيل إلى الضفة الشرقية للالتحاق بالعمل الفدائي.

تلك كانت المرة الثانية والاخيرة التي اقابل فيها الرجل، وها هو يجلس أمامي الآن، ولا شيء فيه قد تغير رغم مرور عشر سنوات على لقائي معه باستثناء تكاثر الشيب في فوديه وذقنه غير الحليقة.

قلت له:

- ارجو المعذرة يا ابا صالح فالأيام لم تترك لنا شيئاً نتذكره، انه الركض الدائم وراء لقمة العيش حتى المستقبل اصبح بالنسبة لنا وهما ما دام الحاضر هو الكابوس الدائم.

تطلع إليّ أبو صالح وفي عينيه اشفاق حقيقي، ثم ابتسم، وقال:

- أهكذا هي حياتكم حقاً؟ يا للعجب! نحن في الجنوب نواجه الموت في كل لحظة ولكننا مع ذلك نحيا حياتنا، حاضرنا كله امتلاء وعطاء، والمستقبل لا يشغلنا كثيراً ولا نعبأ به، لأننا على يقين بأن ما نفعله هو الذي سيصنع لنا المستقبل، قد لا تصدق أن عائلتي التي ما تزال تعيش في عمان لا تشغل بالي أكثر من لحظات عابرة كل شهر حين ابحث عن أحد المسافرين إلى عمان لأرسل لهم بعض النقود.

ثم تطلع الي وابتسم.

وقلت له:

- ولهذا جئت تبحث عني يا ابا صالح.
- نعم وقد عرفت انك هنا بمحض الصدفة وأرجو ألا يضايقك ذلك.
- بالعكس، يسعدني جداً أن أقدم لك الخدمة التي تريدها.

وحين نهض ليغادر الفندق شد على يدي بحرارة وقال:

- قل لها أن الثأر لصالح لم يعد يهمني كثيراً، وليس هو الذي يدفعني لمواصلة القتال، فالشباب من أمثال صالح يسقطون كل يوم على ارض الجنوب نواريهم التراب ونواري معهم احزاننا، لا وقت لدينا للحزن ما دام الوطن هو الماضي والحاضر والمستقبل.

وبسرعة عجيبة كان الرجل ينطلق مبتعداً وأنا ما أزال اغرق في الذهول، ارنو إلى خطواته الواثقة، وأحس بأن زوبعة جارفة قد بدأت تثور من حولي كأنها الاعصار.

مطـــر آخــر الليـــل



تـنويـه

إلى الاصدقاء د. ضياء خضير وناجح المعموري وجاسم عاصـــي الذين حفزوني لجمع شتات هذه القصص وإصدارها في كتاب.

إلى الصديقين د. إبراهيم خليل و د. محمبد عبيدلله اللذين اطّلعا على المخطوط وكتبا عنه قبل نشره.

إلى الصديق فاروق وادي الذي أشرف على تصميم الغلاف.

إليهم جميعاً أتوجه بالشكر والامتنان.

آه... آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق"

"الإمام علي بن أبي طالب"

الساحة

لا أحد يعرف كيف تجمعنا في هذه الساحة، هي ليست معسكر اعتقال كما أنها ليست مكان إقامة طبيعي، الناس فيها يبدون متشابهين يتكلمون اللغة نفسها رغم اختلاف لهجاتهم، فهم حتماً لا ينتمون إلى مدينة واحدة أو عشيرة واحدة أو حتى قطر واحد، عائلات كاملة لا حصر لها، جيران وأصدقاء وزوار ومغتربون كلهم يحاولون الخروج من هنا، يتدافعون باتجاه الأسوار، وكأنهم يستجيبون لقوة طاردة غير منظورة. كل شيء كان يبدو غريباً ومستهجناً، لم يكن ثمة متسع من الوقت لكي يدير أحد حواراً مع أحد، حتى الآباء والأمهات كانوا يزجرون أطفالهم بصمت، يرفعون سباباتهم أمام شفاههم طالبين منهم السكوت والكف عن التدافع.

قلت لجاري الذي تكوَّم مع أسرته إلى جانبي:

- كيف وصلت إلى هذا المكان؟

قال لي:

- لماذا لا تسأل نفسك عن هذا؟ لو كان والدي على قيد الحياة لما وجدت لديه جواباً عن هذا السؤال!

ثم غادرني إلى ناحية اخرى من الساحة، كنا نرتعد خوفاً، فهناك إحساس غريب يجتاحنا بأن خطراً ما يتهددنا، الأطفال وحدهم يضجون بالصراخ في رغبة محمومة لتمزيق هذا الصمت الثقيل!

ساحة شاسعة لا افق لها، من الجانب الغربي تتاهى إلينا هدير البحر وصوت ارتطام أمواجه بهذه الجدران التي تغلق علينا كل منافذ الأفق. أصوات أخرى كانت تختلط بالهدير تشبه أصوات حمحمة الخيول وصليل السيوف، تشوبها صيحات الرجال يتواثبون أو يطارد بعضهم بعضاً، أما الجانب الشرقي فكان يغرق في صمت عميق كصمت القبور.

لم يكن ثمة طعام ولا شراب، وكأن الزاد لم يعد ضرورياً لكل هذه الأفواه المحتشدة، ومع ذلك فإن أحداً لا يشكو الجوع أو العطش، حتى الأطفال كانوا مستسلمين للذهول أو للصراخ لعلهم يظفرون بالخروج من هذا المكان.

كان الليل يختلط بالنهار، لا أحد يدري متى ينتهي الليل أو متى يبدأ النهار، والحقيقة أن نهارنا في هذا المكان لم يكن يختلف عن ليلنا، المصلون وحدهم كانوا يميزون الأوقات، ولا يعبأون كثيراً فيما لو اختلط زمن المغرب بزمن العشاء أو زمن الظهر بزمن العصر، حتى القبلة كانوا يصطلحون على اتجاهها على اعتبار أن الاساس هو النية كما يقولون.

قالت زوجتي والأطفال يتدافعون من حولنا؟ كيف يمكن لنا الخروج من هذا السجن؟

قلت: لها إنه ليس سجناً، فنحن لسنا وحدنا كما تلاحظين، وما يحدث لنا يحدث لهؤلاء الناس جميعاً، ونحن لسنا أفضل منهم.

قالت زوجتي: دعنا نحاول، دعنا نفتش في هذه الأسوار عن باب ما، عن نافذة أو دهليز نهرب منه إلى ملكوت الله.

في هذه اللحظة ازداد اللغط وسرت في الجموع موجة من الاضطراب

والتدافع، سيل عارم من البشر يندفع كله باتجاه السور بعيداً عن بوبات السجن التي انفتحت كأبواب جهنم.

في البداية لم أتمكن من رؤية شيء، فالغبار الذي أثاره الهاربون والفوضى والصراخ المرعوب لم تترك مجالاً لرؤية شيء باستثناء الأبواب التي انشقت عن كل هذه الفوضى المرعبة. وحين انتهى التدافع كانت جثث الأطفال تملأ الساحة، اطفال داستهم الأقدام ولم يتمكن أهلوهم من تخليصهم، كانوا يفرون مثلما تفر قطعان الجواميس البرية حين تطاردها الأسود.

وانقشع الغبار عن أبواب عديدة لم نكن نراها، من أين جاءت هذه الأبواب؟ من فتحها؟ ولماذا لم نهتد إليها ونحن نبحث عن طريق للفرار؟

في هذه الأبواب وحولها كان رجال مقنعون قبيحو المنظر كالشياطين، يقفون وقد اشرعوا سيوفهم، كان بعضهم يشهر قضباناً من الحديد، خناجر وسواطير وكل أدوات القتل الأبيض، وخطر لي: كيف يمكن للسلاح القاتل أن يكون أبيض؟

لم نكن نرى أيَّ تفاصيل لهؤلاء المقنعين، التفاصيل الوحيدة التي اتضحت لنا هي أنهم يتهيأون للدخول في معركة، ومن الواضح أن معركتهم ستكون معنا، مع الجموع التي لم تجد لها ملجأ سوى هذه الجدران الصلدة التي تجعل من ذبحهم حقيقة مؤكدة، هي ليست معركة على أية حال، فلن يقاتل أحد أحداً، إلا على طريقة الكف الذي يلاطم المخرز، أو العنق الذي يصافح السيف، كانت المسافة بيننا وبينهم تضيق، هم يزحفون إلينا ثابتي الخطى، يلوّحون بسيوفهم وسواطيرهم، ونحن نرتجف رعباً، البعض منا لم يعد يقوى على الوقوف، بعض

النساء أُغمي عليهن، صمت مرعب لا يقطعه سوى وقع خطوات المقنعين، وولولات خافتة تنطلق على وهن من الصفوف الخلفية التي تحاول أن تندس في الجدران بأجسادها الكليلة الواهنة.

لم أحاول معرفة عددهم، ولم أكن أملك القدرة ولا الغربة في ذلك، وماذا يفيد معرفة عددهم، هل يمكن لأحد الوقوف أمامهم أو التصدي لهم إلا كما يتصدى الخروف لسكين الجزار؟! لم أكن في الصَّف الأمامي، كنت أندس بين الأجساد المرتجفة في الصف الثاني، أولئك الذين وقفوا أو بركوا في الصف الأول المواجه للمقنعين لم يكونوا أبطالاً ولا هم اختاروا هذا المكان، حظهم العاثر جعله يواجهون المقنَّعين دون أن يجدوا مهرباً، فالأجساد كانت متراصة بطريقة لا تسمح حتى للهواء باختراقها.

كنا نراقب تقدمهم نحونا بعيون خاشعة وأفواه جافة وفرائص مرتعدة، وحين تقع عيوننا على سيوفهم أو سواطيرهم نشيح عنها بنظراتنا، ننكس رؤوسنا إلى الأرض كي لا نرى الموت، عمليات الذبح كانت تتم عبر التاريخ بعد ربط الأعين، أو جعل المذبوح يستدير إلى الجهة الأخرى كي لا يرى الساطور وهو يجز رقبته، الآن فقط أدركت مدى رحمة الجزار حين لا يجعل الذبيحة ترى الساطور الذي يمزق رقبتها، حتى الخراف يحاول الجزارون تجنيبها رؤية السكين وهي تجز أوداج من يسبقها في الذبح، كانوا يحرصون على أن لا تفسد لحومها بدم الرعب الذي يسري فيها حين ترى ذبح غيرها!

أما هؤلاء المقنعون فلم يرحموا أحداً، لم يهتموا لعيوننا الجاحظة التي تكاد تغادر محاجرها رعباً، أشار المقنع إلى الرجل الذي يقف أمامي

مباشرة بأن يتقدم، مجرد إشارة بالسيف أن تعال، استلق على ظهرك بصمت، وأشرع رقبتك للسيف أو للساطور، تقدم الذي أمامه خطوة أو خطوتين ثم انهار على جانبه الأيمن، ولكن المقنع دفعه بالسيف لعله ينقلب على ظهره، كان الرجل قد انهار تماماً وفقد حتى القدرة على الاستلقاء فانقض عليه المقنع، داس بقدمه على مؤخرة رأسه ودفع بالسيف غميقاً في منحره فشخب الدم، وكان الدم يشخب من عشرات الرقاب التي كانت تحزُ في الوقت نفسه، وهاج المقنعون، علا صراخهم ولم يعودوا يجدون متسعاً من الوقت لإصدار الأوامر لنا بالاستلقاء على الظهر أو الجنب، كنا ننبطح دون أوامر وكانت السيوف السواطير تمعن في حز الرقاب.

حين أصبحت في مواجهة المقنع حاولت أن أحدق في ملامحه، كانت رأسه كرة سوداء فيها ثقبان، تطل منهما عينان تبرقان بوحشية، لم أر مثيلاً لهما في حياتي ولا في مماتي، انبطحت أمامه بشجاعة وملامح سعادة غامضة تجتاح كياني، ربما لأنني سأذبح قبل زوجتي وأطفالي، فذلك يريحني من رؤيتهم يذبحون أمامي، كنت أتساءل لماذا نستسلم للذبح بهذه السهولة؟ ولماذا لم يخطر ببال أحدنا ذات يوم أن يتسلح بسيف أو ساطور أو ماسورة حديد يهش بها عن نفسه؟ هل كان ذبحنا بين هذه الجدران حتمياً وبهذه الطريقة؟

وحين انفصل رأسي قريباً من جسدي ظلت عيناني تحدقان في أطفالي وهم يساقون للذبح!

عمان ــ تشرين الثاني 1993

المدينة

حين حَلاّ في المدينة الكبيرة كانا يافعين، لقد تـرك كلاهمـا القريـة لأسباب متشابهة أقلها البحث عن لقمة الخبز، مازالاً يذكران جيداً كيـف التقيا، كان كل منهما يبحث عن مكان يبيت فيه، التقيا على طريقة الصدفة القسرية التي يلتقي بها المئات من الكادحين كل صباح، ينتظرون في قاع المدينة أرباب العمل يأخذونهم إلى الورش، أحياناً قد لا يطول الانتظـار، وغالباً ما يمتد إلى مالا نهاية، فإذا ما انتصف النهار تأخـذ تلـك الكثـرة البشرية الرثة في التلاشي التدريجي، تذوب في الشوارع والمقاهي، وفـي كل مكان يمكن أن يتسع لمثل هذه الحثالة التعسة من البشر.

القادمان الغريبان لا يختلفان كثيراً، يتـشابهان إلـى حـد الجنـون، فالسحنة واحدة والجوع واحد، والأحلام المقموعة واحـدة، والأمـراض واحدة، وحتى الأمنيات الصغيرة بوجبة ساخنة أو رداء غيـر مهتـرئ واحدة كذلك.

تلك الليلة كان كل منهما يبحث بطريقته الخاصة عن مكان يأوي إليه، كم هو قاس وموحش ليل الأرصفة، كم هو ثقيل وطويل، وليالي التشرد كلها متشابهة، ولكن ليالي الشتاء هي الأشد وطأة.

لم يعد النوم في مساجد المدينة ممكناً بعد أن أغلقوها بعصي الحراس ومزاليج الأبواب الحديدية العالية، ولم يعد النوم على قوارع الأرصـفة ممكناً بعد أن أغلقوها بالعسس على اختلاف أنواعهم ومراتبهم.

في تلك الليلة الشتوية العاصفة التقيا في قاع المدينة، لم يكن ثمة غير أكوام النفايات وخطى بقايا العابرين، ومواء قطط تتعارك في الأزفة المعتمة، لم يكن صعباً أن يفهم أحدهما لغة الآخر.

قال الأول:

- هل جربت المبيت في مداخل البنايات؟

لثوان قليلة استولت الدهشة على الآخر، إذ كيف لم يخطر ذلك بباله من قبل، قال:

- وهل تعتقد أنهم يتركونها مفتوحة؟

قال الأول:

- ليس كلهم، ولكنهم الطريقة الوحيدة، حتى هذه اللحظة، للهروب من عصي العسس وسياط البرد والليل. وأضاف:

- ولكن الفنادق من هذا الطراز لها طقوسها وترتيبها، عليك أن تبحث عن البنايات ذات الأدوار الأقل عدداً، وفي المناطق الأكثر ازدحاماً بالسكان، فذلك يضمن لك الانزلاق بسرعة إلى الشوارع الرئيسة، عليك أن تكون آخر الداخلين إلى البناية وأول الخارجين منها، ثمة بنايات لها جوانب خفية معتمة تحت الدرج، جوانب، ضيقة حميمة تخفيك عن العيون وتمنحك الدفء والحماية.

سنوات عديدة مرت تنقّل فيها القادمان الغريبان من بناية إلى أخرى، البنايات التي كانت شابة ونظيفة أصبحت الآن هرمة ومتسخة، والمدينة كبرت كثيراً، أحياؤها التي كانت ذات يوم جديدة ونائيسة لا يسكنها إلا

علية القوم والخاصة، أصبحت الآن قديمة يزحف نحوها الفقراء المعدمون، الشوارع التي كانت تتسع للسيارات والمشاة وباعة العربات أصبحت الآن خاضعة لتقسيم صارم، بعضها للمشاة والبعض الآخر للسيارات في اتجاه واحد، البنايات التي كانت مساكن فخمة تحولت الآن إلى متاجر تعلوها الفنادق الرخيصة أو المساكن الشعبية التي يطل من شبابيكها ومن سطوحها غسيل قاتم أو فاقع الألوان.

بنايات كثيرة، طالما اتخذ القادمان الغريبان من مداخلها سكناً، تمت إزالتها لتوسيع شارع هنا أو إقامة جسر هناك، وحتى الساحات الصغيرة التي كانت خالية أو تعمرها بقايا الأشجار ويتخذ منها المشردون مأوى نهارياً مشمساً لهم، تلاشت هي الأخرى لتنتصب فيها البنايات أو تمتد عبرها الأرصفة والشوارع الجديدة الفسيحة. كل شيء هنا تغير، أنواع السيارات وألوان البضائع وكمياتها، في حين ظلت المدينة تخرج عن نفسها، وتمتد في كل اتجاه، شوارع جديدة وبنايات ناصعة، وقصور ذات قرميد متعدد الألوان، حدائق ونوافير مياه، وفي قاع المدينة كل الأشياء تغيرت أيضاً، سحن الناس ولغاتهم وملابسهم وأسعار الأطعمة والأشربه، كل شيء، صحن الفول ورأس الفجل والبصل، وحتى الرغيف المحشو بالفلافل.

ومع ذلك فأنت ترى الناس في أغلبهم يمشون في الأسواق، يشترون البضائع يساومون ويدفعون، وبعضهم يستورد الخادمات من شرق آسيا وإفريقيا. وفي قاع المدينة، تجدهم يأكلون الفول ويشربون الشاي القاتم في كاسات الماء الكبيرة، تتسرب من بين أيديهم فرص العمل اليومي ويظلون يبحلقون في السماء كأنهم يرصدون مسيرة الشمس.

لم يكن هذان القادمان بدعاً بين الناس، فهما ليسا الوحيدين القـادمين من أقاصي الريف إلى قعر المدينة السوداء، وها هو جيل من الذكريات المدببة الكالحة كالكوابيس أصبح يشد أحدهما إلى الآخر، بـؤس كـذلك البؤس الذي يجمع الفقراء على (طبلية) واحدة من الأطعمة الرديئة.

وتظل المدينة تمعن في اتساعها، اتساع صحراوي فظ، يضيق كلمـا كبر، ويزداد وحشية وهمجية كلما ازداد نظافة وتألقاً.

كانت المقبرة هي الملاذ الأخير، هكذا، لم يكن أمامهما مناص مـن اللجوء إلى المقبرة، والمقابر غالباً ما تقام على الأطراف البعيدة للمدن، وحين يتخطاها الاتساع يقوم أهل المدينة بإنشاء مقابر أخرى جديدة على الأطراف أيضاً، لا أحد يدري لماذا؟ هل هي رغبة الموتى؟ أم هي خشية الأحياء من مواجهة موتاهم صباح مساء؟

لم يكن بد، ومن غير جزيرة الموتى الصغيرة في قلب هذه المدينـة يمكن أن يتسع لجسدين منهكين؟ فحين تـشتد بهمـا ضـائقة البنايـات الفسيحة، ليس ثمة غير سور المقبرة ملاذاً أخيراً، كل ليلة، قبل منتصف الليل أو بعده، وحين يغلق آخر المقاهي أبوابه، كانا يتسللان عبر البوابة المهجورة للمقبرة، يتكوران على جسديهما مثل كلبَين فوق رصيف مُبتل.

لبضعة أيام ظل سور المقبرة هو الموضع المفضل للرقود، ثم أخـذ القادمان يتسللان إلى الداخل قليلاً قليلاً، وهما يحاذران أن يجدا نفسيهما فجأة وجهاً لوجه أمام حارس المقبرة، ورغم هذه المخـاوف فقـد كانـا يكتشفان، ليلة بعد ليلة، أن جو المقبرة، رخام القبور،أو ترابها المحشـو، حجارة الشواهد، أوراق الصبار ذات الأشواك اللاسـعة، بقايـا أكاليـل

الزهور الملقاة فوق القبور، كل ذلك أكثر دفئاً وألفة وأقرب إلى نفسيهما من شوارع المدينة وبناياتها المشرئبة هنا وهناك كمصائب الفقراء.

ليلة بعد ليلة كانا يكتشفان أن ثمة لغة خفية يتداولها الموتى، حواراً مهموساً يدور بين سكان القبور، إنه ليس أصواتاً مبهمة أو متشابكة، كتلك التي تملأ أذنيك وأنت تعبر الأسواق أو تقبع في أحد المقاهي الشعبية المكتظة، وهو ليس صوتاً ينبعث من اسطوانة مشروخة أو شريط تسجيل معطوب، إنه حوار حقيقي يدور بين سكان القبور من الموتى، حوار عن الأحياء، عن دنياهم وقضاياهم الكبيرة والصغيرة، وعما يواجهه الأحياء فيها من محن وكوارث.

كان القادمان يستمعان لهذه الحوارات ما بين مكذبين ومصدقين، حتى استبد بهما الأرق وتلبستهما الهواجس والكوابيس، وأصبح النوم بالنسبة لهما أشد وبالاً وأكثر مدعاة للرعب من الارتماء فوق الأرصفة، لفترة ما ظنّا أن مساً من جنون قد أصابهما، أو أنهما انضما إلى عالم الموتى دون أن يكونا قد فارقا الحياة.

هاهم الموتى يتحدثون عن الأوطان التي ضاعت، وعن المواطنين الذي تحولوا إلى بطون ممتلئة، أو حتى فارغة، تسعى بها الأقدام، عن الرؤوس الخاوية والأدمغة التي تحولت إلى أمعاء.

كان الموتى يلتقون ليلاً فيما يشبه حلقات السهر، تتعالى أصواتهم كصليل السيوف أو صهيل الخيول المتعبة، يستبد بهم الضجيج حيناً، ويخيم عليهم الصمت أحياناً، وحين تتضح معالم الأصوات المتداخلة، يكون الحديث عن جثث تسعى في شوارع المدينة، ليس بينها وبين القبور غير أمتار من كفن وشهادة وفاة.

تحدث أحد الموتى ذات ليلة عن مدن كثيرة متشابهة، لهـا شـوارع فسيحة معمورة بالأضواء المتلألئة والسيارات الفارهـة، مـدن تجـوب سماءها الغربان، ويربض فوق بناياتها البوم، يقرع الغزاة أبوابها بينمـا أهلها يقتتلون ويذبحون بعضهم بعضاً من الوريد إلى الوريد، مدن يحتلها الخوف وتملأ قلوب ساكنيها أحقاد قبلية عمياء.

ميت آخر تحدث عن مـدن تغـص شـوارعها بـالجوع والـذباب والطوابير، أهلها عراة صفر الوجوه، يساقون إلى الموت بسلاسل، ومن لم يقتله الظمأ قتله الجند بعصيهم الطويلـة أو ببـساطيرهم اللامعـة أو ببنادقهم سريعة الطلقات.

ميت ثالث تحدث عن أناس يشبهون القطعـان، يمـلأون الـشوارع والبيوت، يأكلون ويشربون ويتناسلون كالأرانب والفئران، ولا يعرفـون من أمور الدين والدنيا غير البيع والشراء والاسـترخاء أمـام أجهـزة يسمونها التلفاز.

وعادة ما كانت خطابات الأموات تنتهي بضجيج غامض وأصـوات تشبه التعارك بالأيدي والمناكب، وكأن الموتى يرومون الحركة ولكـنهم لا يقدرون!

قال الأول لصاحبه:

- هلم بنا ننجو بأنفسنا، فمن الواضح أن هؤلاء الموتى سيبرحون قبورهم ذات ليلة، ومن يدري فقد يزحفون إلى شوارع المدينة!

أجابه الثاني:

- وما علينا نحن إن زحفوا؟ هل ثمة ما نخـشاهُ مـن غـضبهم؟

وحتى لو دمروا هذه المدينة، فهل لدينا فيها ما نخسره؟ بل لماذا لا ننضم إليهم؟

قال الأول:

- لست معك، أعطني هذا المتاع، ودعني أبحث عن مقبرة أخرى لا يثور فيها الأموات.

ثم حمل متاعه ومضى في اتجاه المدينة النائمة.

في الليلة التالية، وعند منتصف الليل، استيقظت ضجة الموتى، كانوا رهطاً كبيراً تنبعث منهم هتافات غاضبة، بعضهم كان يلوح بقبضات الأيدي، وآخرون بأشياء مدببة تشبه العصي، كانوا يتدافعون نحو البوابة وهم يهتفون:

- أيتها الزلازل، أيتها البراكين، هذه المدن السفاح لا تستحق الحياة.

- هؤلاء ليسوا من أصلابنا هؤلاء ليسوا أبناء هذه الأرض!

- إنهم غبار أحذية الغزاة!

- فلتحترق هذه المدن الذليلة لتذروها الرياح قبل أن يحتلها الغزاة الآخرون!

وتدافع الموتى، كان سور المقبرة ينهار من تحت أقدامهم، وحين حاول حارس المقبرة أن يغلق الأبواب داسوه بأقدامهم، وانطلقوا كالموج الزاحف عبر شوارع المدينة.

لم يتوان القادم الغريب لحظة عن الانضمام إليهم، شَهَرَ عصاه كالرمح، وأطلق لنفسه العنان، كان يحس بأنّ بركاناً هائلاً يتفجر في أعماقه، وأن موجة عارمة من الغضب تتدفق فيه، كيف عاش كل هذه السنين دون أن يطلق صرخة احتجاج واحدة؟ كيف يظل هؤلاء الأحياء؛ وهو واحد منهم، عاجزين عن تفجير لحظة كهذه في سماء المدينة الغارق في الغبش؟ كانت العاصفة تشتد، وواجهات الأسواق تتهاوى على إيقاع الصراخ الهائل المتدفق، وكانت المدينة تتحول إلى أكوام من الغبار والعويل والدم.

- لا شيء يمكن أن يوقف هذا الزحف!

قال القادم الغريب لنفسه، وهو يمضي بينهم!

- هذه المدينة المتسربلة بالنوم يجب أن تموت هلعاً أو تغمرها صحوة ناصعة.

كان امتداد الشارع يفضي إلى قلب المدينة، حيث التفرعات الكثيرة لشوارع أخرى تصب كلها في الساحة الرئيسة، هناك انبثقت فجأة جحافل الموت، كانوا يمتطون الدبابات، وبعضهم كان يختبئ خلف شباك تشبه الدروع، يحملون العصي والبنادق والقنابل والمسدسات وكل أدوات القتل!

كانوا في انتظار المسيرة يشهرون كل ذلك السلاح في وجه الموتى، ويرتعدون، وحين التحم الفريقان تحولت الساحات خلال ثوانٍ قليلة إلى جحيم، نار ودخان وأصوات صاعقة مرعبة، وكان ذلك المشهد هو آخر ما وعته ذاكرة القادم الغريب.

صباح اليوم التالي، كانت صحف المدينة تتحدث عن ظاهرة غامضة جرت في الميدان الشرقي منها، على مسافة قريبة من المقبرة، وحارت الصحف، وكذلك الناطق الرسمي، في هذه الظاهرة، فقالوا أنها تشبه الزلزال، ولكنها ليست زلزالاً، قالت الصحف إن حصيلتها كانت خسائر مادية باهظة ومصرع مواطن مجهول وجدت جثته مهشمة على الرصيف تحت أنقاض أحد الجدران المنهارة.

عمان ــ حزيران 1992

الوليمة

وصلت متأخراً، حين فتحوا لي الباب كان الجو مختنقاً بالدخان ورائحة الأنفاس والكحول، هبوا واقفين لاستقبالي وصافحوني بحرارة زائدة خلت أن للخمرة اثراً في تأجيجها. لمت نفسي لأنني تأخرت إلى هذا الوقت، كانت صحون المازات قد نضبت والمنافض قد امتلأت بأعقاب السجاير وزجاجات المشروب المتنوعة قد قارب على النفاد، بل أن بعضها قد نفد تماماً.

لم يفسحوا لي مكاناً فالمقعد على الطرف الشمالي المجاور للسفرة كان شاغراً في انتظاري.

قلت في محاولة للاعتذار: لقد استغرقني البحث عن البيت وقتاً طويلاً، إنها الذاكرة السيئة التي طالما خذلتني في استحضار الأماكن.

قال أحدهم: بل قل إنك لم تعد حريصاً على حضور لقاءاتنا. مرة التقينا في هذا المكان؟

قال آخر: ربما أن المسألة برمتها لم تعد تثير اهتمامه، هل نسيت أنه لم يحضر أخر لقاء لنا؟

في هذه اللحظة كنت أبحث عن كأس نظيفة، أخذت أبحث في الخزائن والرفوف والجوارير، هذا الجارور يبدو أنه خصص للملاعق، وهذا الجارور للسكاكين والثالث لفناجين القهوة، وفناجين الشاي، هنا

مزيد من السكاكين، هنا سواطر أخرى أشد لمعاناً وأكثر رهافة. ليس ثمة مكان للكؤوس، يبدو أنهم استنفدوها كلها هذه الليلة.

كان المطبخ نظيفاً، وليس ثمة رائحة لأي طعام، المنضدة التي تتوسط المطبخ كانت تشبه كثيراً خشبة الجزار، صماء ثقيلة من خشب الزان أو البلوط، كانت تغص بمجموعة هائلة من طناجر وأوان كبيرة خالية فاغرة أفواهها، ثمة سواطير متعددة، بلطة كبيرة، سكاكين ذات رؤوس مدببة مثل تلك التي يستعملها الجزارون في فصد اللحم عن العظم. حركة ما خارج المطبخ أثارت موجة من الخوف في قلبي، تطلعت خارج الشباك، كانت أغصان الشجرة الملاصقة للبيت تتحرك وتصدر عنها خشخشة غريبة، حدقت قليلاً عبر الظلام، كان طائر ما أسود اللون يربض هناك، خلت أنه يرمقني بنظرات ثاقبة، تراجعت عن الشباك وعاودت البحث عن كأس نظيفة احتسي بها بعض المشروب، ولكن عبثاً، ليس ثمة أية كأس هنا، قررت تناول العشاء دون أي مشروب.

إلى جوارهم في غرفة الصالون كانت السفرة مهيأة تماماً، الأطباق والملاعق والشوك والسكاكين، حتى الفوط كانت مزمومة على شكل وردة حمراء تنتصب داخل الصحون. الطعام وحده لم يكن موجوداً، ربما تركوه في الفرن ليظل ساخناً، ولكن لا رائحة لأي طعام، ربما اعتمدوا أحد المطاعم لإرسال العشاء لهم في ساعة محددة، بعد حين سوف استجلي حقيقة هذا الأمر.

عدت إليهم وقد ازداد صخبهم، وأخذت أصواتهم تزداد حدة وارتفاعاً، قال أحدهم وهو يشير بيده إلى مقعد في الزاوية بدا لي كالحاً أو مغبراً.

- ما بالك لا تجلس؟ هذا هو مقعدك ما يزال شاغراً!

جلست أتصفح وجوههم وقد استبد بها السكر، فداخلني خوف غريب، قلت في محاولة لبث الشجاعة في نفسي: ليست هذه هي المرة الأولى التي أشاركهم فيها جلسات المشروب، ولكن عيونهم تبدو حمراء تقدح شرراً قلت:

- كفاكم مشروباً، أين هو العشاء؟

قال أحدهم:

- هل أنت جائع إلى هذا الحد؟ لماذا لا تشرب شيئاً.
- لم أقل لهم أنني لم أجد كأساً نظيفة، ولم أشأ أن يدور في أذهانهم أنني أتجنب المشروب كي أظل محتفظاً بعقلي. قلت:
- لقد شربت كثيراً وأنا في طريقي إليكم، تناولت زجاجتين من الجعة، وأخشى أن أحتسي نوعاً آخر من المشروب، هل لديكم جعة؟

قال أحدهم وهو يشير إلى المطبخ.

- أبحث في الثلاجة لعلك تعثر على علبة أو اكثر.

توجهت من فوري إلى المطبخ، فتحت الثلاجة ونظرت في رفوفها، فجأة انبعث صوت الخشخشة إياها، قلت: لعلّ هذا الغراب اللابد فوق الشجرة يتحسس من دخولي المطبخ، تناولت علبة الجعة وعدت إليهم بينما الصوت خلف النافذة يزداد علواً وكأن الطائر يهم باقتحام النافذة والانقضاض عليّ من خلف الزجاج.

قلت وأنا أرتمي فوق الكنبة:

- هل لاحظ أحد منكم ذلك الطائر الأسود على أغصان الشجرة خلف النافذة؟

- لم يندهش أحد لسؤالي، بل لم يعبأ به أحد، ولكن الجالس بجواري أشار لي أن أصمت، فالأمر لا يحتمل السؤال.

كانوا جميعاً يحدقون بي، عيونهم تشتعل غضباً أو سكراً، استبد بي الخوف، تماسكتُ وكأن الأمور تجري على نحو طبيعي.

- فيم تحدقون بي هكذا؟ أو لم يسمع أحد منكم ذلك الصوت المخيف الذي ينبعث من وراء النافذة، وكأن شيئاً ما يقضم الأغصان؟

هب اثنان منهم باتجاه المطبخ، وبقي الآخرون يحدقون بي، صمت رهيب كان يطبق على الأنحاء، لحظات وعاد أحدهما من المطبخ وهو يحمل حبلاً كذلك الذي يستعمل في نشر الغسيل، حبل من النايلون المتين، أحمر اللون، يصلح لسحب سيارة، أما الثاني فقد خرج يحمل ساطوراً طويلاً وسكيناً مدببة الرأس، من تلك السكاكين التي كانت مبعثرة فوق طاولة المطبخ.

توقف الرجلان ملياً، حدقا بي ثم استعرضا الوجوه المكفهرة ذات العيون الحمراء، نهض أحدهم، وركل بقدمه منضدة صغيرة كانت تحول بينه وبين الوصول إليّ، تحطمت الكؤوس والمنافض الزجاجية وتبعثرت أعقاب السجاير والزجاج المحطم في كل الأنحاء، تقدم باتجاهي، وكان حامل الحبل يقف في تلك اللحظة ورائي تماماً.

أحسست بالحبل يلتف حول جسدي وكأن الرجل يحاول أن يربطني إلى المقعد، تقدم الأخر نحوي، ضغط على كتفي، فيما كانت ركبتاه

تتغرسان في بطني، أحكما وثاقي، صرت مربوطاً تماماً إلى المقعد حتى قدمي ربطتا معاً بالحبل، ولو لم تربطا لكان بإمكـــاني أن أحركهمـــا أو أحرك أي عضو آخر من جسدي، كنت متهالكاً تمامـــاً، وفقـــدت حتـــى القدرة على النظر في العيون المتقدة من حولي أو في الـــرجلين اللـــذين احكما وثاقي، وظل أحدهما يقف من خلفي، في حين كان الآخر ينتصف في مواجهتي تماماً.

واتتني جرأة بدت لي غريبة، فصِحْتُ بهم:

- بالله عليكم ماذا تفعلون، هل أسأت إلى أحد منكم؟ أو لم تكونـــوا بانتظاري لاشارككم هذه السهرة؟

صاح أحدهم:

- نعم كنا بانتظارك، وها نحن نحتفي بك على طريقة بوكاسا.

أصابني الهلع وتراخت يداي، علمت أنني هالك لا محالة، لقد قرروا أن يكون جسدي عشاء لهم، ما الذي جاء بـــي؟ اللعنـــة علـــيّ وعلـــيهم أجمعين.

قلت متهالكاً:

- أطلقوا سراحي وأعدكم بأنني سأحضر لكم عشاءً فـــاخراً مـــن المطعم المجاور.

قهقهوا جميعاً وكأنهم يسخرون من اقتراحي، صاح أحدهم:

- أنك أفضل عشاء نتناوله هذه الليلة، وهل ثمة ما هو أشهى مـــن لحم أدمي يشوى على السفود؟

انداحت أمامي عشرات الفراريج التي كنت أمر بها مثبتة على القضبان الحديدية في واجهات المطاعم، تدور بها القضبان أمام الغاز المشتعل، قلت فيما يشبه العويل:

- إنكم تمزحون، لا يمكن لكم أن تفعلوا ذلك بي، ألست صديقكم الحميم، هل نسيتم الصداقة والزمالة والمودة، فكوا وثاقي ولكم علي أن أحضر لكم ما تشاؤون من الفروج المشوي!

في هذه اللحظة زاد ضغط الحبل على عنقي، كان الرجل الذي يقف خلفي يتلقى الأوامر من عصابة السكارى ذوي العيون الحمراء الملتهبة، صاح أحدهم:

لا تخنقه نريد أن يبقى حياً.

صاح آخر:

- ارحموه من هذا العذاب، اخنقوه قبل الشروع في تقطيع جسده.
- بل ابقوه حياً لتتزف دماؤه، فذلك يجعل اللحم أكثر صفاء وألذ طعماً..

لم يخفف الرجل الواقف خلفي ضغط الحبْل على عنقي، فازدادت عيناي جحوظاً وأنا أراقبهم يستعجلون حامل الساطور الذي هجم من فوره على ساقي اليمنى، أهوى بالساطور عند مفصل الركبة تماماً فهوت الرجل وانبثق دم غزير، ثم أهوى بالساطور على ساقي اليسرى فهوت هي الأخرى فشخب الدم كالنافورة باتجاه الجالسين.

أخرج صاحب الساطور السكينة ذات النصل المدبَّب وغرزها عميقاً في لحم الساق فيما يشبه فصد اللحم عن العظم.

في هذه اللحظة ازداد الضغط على عنقي وكانت صـيحاتهم ترتفـع فحيحاً مجنوناً.

حدقت بهم وأنا اسلم الروح فرأيت الطائر الأسود يصفق جناحيه بشدة ويقتحم وجهي بمنقاره ومخالبه، غطا سواد الطائر عيني ولم أعد أحـس شيئاً أو أرى شيئاً. لأن كل شيء كان قد انتهى في تلك اللحظة.

عمان ــ تموز 1994

مطر أخر الليل

اهتزت السفينة قليلاً فارتجف قلبي، منذ سنوات طويلة وأنا أتهيب ركوب البحر كنت أتساءل عن سر هذه الرهبة من الماء، من المدى الأزرق اللانهائي الصاخب بالغموض والوحشة والرعب، حيث لا سبيل إلى النجاة إن هبت عاصفة أو حدث خلل في السفينة أو ارتكب القبطان غلطة ما.

لا أدري لماذا يبدو لي الموت غرقاً أشد هوْلاً من أي موت آخر فوق اليابسة، حين كانت الطائرة تعبر بنا فوق المحيط كنت أدرأ عن مخيلتي تلك الميتة المروعة، السقوط في محيطٍ لا قرار له، بي أمواج لا نهاية لها، فأستعين أحياناً بالقراءة أو بالنوم أو بكأس يحيل الوعي إلى نوع من اللامبالاة البلهاء.

حين اهتزت السفينة بدا لي ان العالم يهتز بأكمله، طاولات المطعم حيث كنا نتناول طعام العشاء والكؤوس والثريات من فوقنا، تمايلت أجسادنا قليلاً واستبد بنا دوار شديد، تحاشيت النظر عبر الزجاج إلى امتداد البحر الموغل في المساء، هذه هي المرة الأولى التي أركب فيها سفينة، تشجعت بعد أن حدثوني طويلاً عن متعة ليل السفينة، الليل الصاخب المعزول في الصالات الداخلية المقفلة، أو الليل المطبق فوق السطح حيث لا صوت يقطع الصمت سوى حفيف الأمواج وهي تضرب صدر السفينة ولفحاتِ الهواء الخريفي المثقل بالرطوبة.

قالوا إنّ السفينة عالم له طقوسه المختفة عن عالم اليابسة، وليل لــه نكهة مختلفة عن نكهة ليل المدن حيــث الأزقــة المعتمــة والــسكارى وإفرازات العالم السفلي القادمة من المواخير وسراديب الليل الملوثة.

عالم السفينة يشبه كثيراً ليل المــدن، فهنــاك المطــاعم والملاهــي وصالات القمار والرقص والبارات والنساء وبرك السباحة وأسرة النوم المريحة ذات الطابقين في القمرات السفلية الأقل سعراً. ليل لا يختلــف كثيراً عن ليالي لاس فيجاس واطلنطا وأماكن القمار في مختلــف مــدن العالم، حيث الليل نهار والنهار ليل، والسهر الذي لا ينقطــع والعيــون الخابية من الخسارة أو المشتعلة بأحلام الثراء والنساء الجميلات.

في صالة الانتظار قبل الصعود إلى السفينة كانوا يصطفون أزواجــاً أزواجاً ومن مختلف الأعمار، ولكن العجائز والكهــول كــانوا النــسبة الأكبر، كانوا متلهفين للصعود إلى البحر، وكأن فرحاً ما ينتظرهم هناك، كأنهم يلتقون لأول مرة بينما الأيدي والنظرات تتشابك فيما يشبه الــشبق اللحوح.

والحقيقة أن ذلك بعث في جوانحي جرعة أخــرى مــن الــشجاعة، فهؤلاء يصعدون سلالم السفينة، يتكئ بعضهم على بعض أو يتقــافزون فرحاً وكأنهم دالفون إلى شهر عسل يأتي متأخراً خمــسين عامــاً بعــد الزواج.

في القاعة الملاصقة لرصيف البحر، حيث كنا ننتظر لحظة الصعود، كان ثمة عجوزان يشتبكان في حوار حميم، يلتصقان فيما يشبه اللقاء بعد فراق طويل، هؤلاء العجائز يختارون البوح بأشواقهم أو ممارسة شبقهم

الكليل في مثل هذه الرحلات الليلة، يقبلون على الطعام بشهية عارمة، ومن ثم يتسللون إلى صالة القمار الفسيحة أو إلى المرقص المحاذي لها، يصومون شهراً أو أكثر عن كل الملذات كي يغرقوا فيها مرة واحدة، الطعام والشراب والجنس والقمار، هكذا يستمتعون حتى الثمالة، ليلة واحدة يختصرون فيها شهراً كاملاً أو حتى عمراً كاملاً، وكأنهم يستلهمون أبيات "طرفة بن العبد" التي تختزل الحياة في الملذات الثلاث:

ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى وحقك لم أحفل متى قام عوّدي

ولكن لماذا في البحر، لماذا في سفن الملذات الصغيرة هذه التي تمخر الخلجان القريبة من المدن وكأنها تحتمي هي الأخرى بالبر من البحر؟ سفينة الملذات هذه التي صعدنا إليها مع غروب الشمس كان أسمها "الملكة الراقصة"، وهي واحدة من سفن كثيرة تستعملها شركة "الفايكنغ" لمثل هذه الرحلات الليلة التي يمتد بعضها إلى أكثر من ليلة، وكأنهم يستنسخون بذلك المسلسل الأميركي المشهور "قارب الحب" العابق بمظاهر الانحلال الأرستقراطي الأمريكي.

لم نكن أول الصاعدين إلى السفينة ليس بسبب الزحام، ولكنها الرغبة التي غالباً ما تدفع الانسان إلى اختيار الوسط حتى لو لم يكن هو الأدعى للسلامة أو النجاة إذا ما داهم خطر ما.

في صالة المطعم تصفحت وجوه الجالسين، كانت أغلبيتهم من الطاعنين في السن، ممن تتراوح أعمارهم ما بين الأربعين والسبعين، قلة قليلة كانت من الشبان والمراهقين، ربما لأن هؤلاء لا يحتاجون إلى محرشات أو أجواء ذات طقوس مثيرة، تلك العجوز التي تناهز الستين كان برفقتها شاب في العشرينات، كيف استطاعت هذه العجوز إقناع مثل

هذا الفتى بقضاء ليلة معها ربما لأن هذه الليلة ستكون على متن قارب عابق بالقمار والملذات؟

كانت السفينة قد أوغلت بعيداً في الخليج، ومن شبابيك صالة المطعم كنا نتابع زحف الظلام، فأضواء المدينة تخبو رويداً رويداً وأدغال الخليج ذات الغابات الداكنة تجعل من الظلمة غسقاً مطبقاً.

خطر لي ولزوجتي أن نغادر المطعم إلى قمرة النوم، نتعرف على موقعها ونرتاح قليلاً قبل أن نعود إلى السطح حيث صالات الرقص والقمار والزوايا المعتمة ذات الأضواء الحمراء والزرقاء أو خارج القمرات على السطح حيث الهواء المنعش والظلمة المطبقة.

خطر لنا أن نتفقد تضاريس السفينة، ثمة غرف عليا للنوم فوق مستوى السطح، وأخرى تهبط إليها درجات حادة ضيقة حيث لا مناص من الاستعانة (بالدربزين) هبوطاً أو صعوداً، لم يكن لغرف النوم السفلية نوافذ تطل على البحر، وذلك كان مدعاة لعدم الخوف أو للمزيد من المطأنينة، فرؤية البحر من هذا المستوى قد تبعث على الرعب لدى من يركبون البحر لأول مرة.

في الممرات والردهات الموصلة إلى صالة القمار كان ثمة آلات أخرى تخفف الزحام عن الصالة، ثمة نسوة معظمهن من العجائز يجلسن امام هذه الآلات التي تلتهم النقود بشراهة لا مثيل لها.

أصرت زوجتي على أن تجرب حظها، خسرت ثم ربحت قليلاً ثم خسرت الربح ورأس المال، قلت لها: لا أحد يخرج رابحاً من هنا، ومع ذلك فقد أصرت على مواصلة اللعب، كانت تضرب الآلة مرة بحظها ومرة بحظي ومرة بحظ واحدٍ من الأبناء أو البنات، ولكن الحظوظ

جميعها كانت خائبة. أحسست بالضيق والغضب يجتاح كيانها بسبب الخسارة المتكررة، ورغبتها في مواصلة اللعب لعل وعسى. عرضت عليها أن نقصد البار أو المقصف، وقلت لها:

- من أين يأتي الحظ، وماذا تفعل الماشطة للوجه القبيح؟

ومع ذلك فقد تراخيت قليلاً، فقد يأتي الحظ في الضربة الأخيرة، ولكن عبثاً، قلت لها:

- ما رأيك أن نغير الحظ قليلاً، نخرج إلى سطح السفينة بعيداً عن صخب الراقصين وضجة الموسيقى، نتمشى في الخارج، نملأ صدورنا بالهواء النقي القادم من ثلوج القطب الشمالي؟ وتساءلت:

- هل بمقدورنا أن نحتمل برد خريف أوروبي مثقل بالبحر؟

حين دلفنا إلى الخارج، إلى الساحة الممتدة حتى ذيل السفينة، كانت الظلمة تطبق على الانحاء، على البحر بأمواجه التي تنداح خلفنا، فيما كانت بعض الأضواء تتسرب خافتة من نوافذ الصالات، والضجيج المبهم يتناهى كليلاً من صالة الرقص.

جلسنا على الكراسي الحديدية المثبتة من حول السطح رغم برودتها اللاسعة إلى جوار القضبان المتلاصقة المزروعة لحماية الجالسين من السقوط، خطر لنا أن نلتقط بعض الصور الليلية للسفينة والبحر والخلجان، ولكن الظلمة كانت حالكة، فقررنا إرجاء التصوير إلى نهار الغد، وجلسنا نملأ صدورنا بالهواء الطلق المغمس ببرودة الخريف.

لم أعد أذكر الآن بالضبط كم من الوقت جلسنا هناك، فالجو كان منعشاً للغاية والاحاديث التي كنا نتبادلها عن عمر زواجنا الممتد، وعن الأولاد والبنات والأصدقاء كانت حميمة ومتشعبة، لم نعبأ كثيراً بالمطر الذي بدأ يهطل رذاذاً خفيفاً منعشاً، كان الهواء رخياً مفعماً برائحة البحر، وكانت أشباح الراقصين تلوح صاخبة من وراء زجاج صالة الرقص، وليس ثمة بادرة تنبئ عن هبوب عاصفة ماحقة.

حين تحول المطر إلى زخات متلاحقة قررنا مغادرة السطح وتوجهت من فوري إلى الباب الحديدي الذي يفصل السطح عن داخل السفينة، عالجنا الأكرة إلى أسفل ثم إلى أعلى، دفعت الباب الحديدي بقوة جسدي وثقله، ولكن عبثاً، كان الرتاج محكماً، لا يمكن لأحد اقتحامه من الخارج، ولا ندري إن كنا قد ارتكبنا خطأً ما بإغلاقه أم أن الهواء الذي بدأ يشتد هو الذي أغلقه بعنف.

اشتدت غزارة المطر وتصاعدت سرعة اندفاع الرياح القادمة من المحيط، عاصفة من المطر والهواء الصاخب المدمر أخذت تضرب السفينة بعنف، كل شيء أخذ يترنح أمام تيار الهواء فيما هو يسحبنا بشدة نحو الهاوية، تشبثنا بالحواجز الحديدية، وبدأنا في الصراخ طلباً للنجدة، ولكن صراخنا المحموم الذاهل كان يضيع في ضجيج العاصفة، لم يكن بمقدورنا أن نفعل شيئاً سوى المزيد من التشبث بالقضبان الواقعية عند حافة السفينة، ومواصلة الصراخ في طلب النجدة، فذلك هو الأمل الوحيد المتبقي لنا، ولكن كيف لأحد في الداخل أن يسمع، والعاصفة الهوجاء تضرب كل شيء داخل السفينة وخارجها، وكل من فيها يبحث الآن عن زاوية يتمسك بها أو طوق نجاة يرتديه.

تمسكنا ما استطعنا دون أن يأتي أحد لنجدتنا، أو يفطن لوجودنا، ومن المؤكد أن صرخاتنا لن تصل إلى مسامع أحد، احتضن كلانا الآخر، وأدرنا ظهورنا للعاصفة كي نتمسك جيداً بالقضبان.

وحين وجدت نفسي أكابد أمواج الخليج العاتية من وراء السفينة كان الموت هو الحقيقة الوحيدة المتبقية، موت رهيب بين أشداق الظلمة والأمواج الصاخبة، إنه الموت الذي طالما خشيته وتحاشيت الوقوع في أسبابه.. ولكن لا فائدة، وحتى لو كنت أجيد السباحة فكيف لي أن أنجو من كل هذا الهلاك الأسود المطبق من كل الأنحاء.

حين طفوت للمرة الأخيرة قبل الهبوط النهائي إلى قاع الخليج كان سؤال وحيد يلاحقني: ما الذي حدث لزوجتي؟ هل ظلت متشبثة بالقضبان أم أنها سقطت هي الأخرى في قبضة الأمواج العاتية؟

استوكهولم ـ ايلول 2000

سيدة أثينا

لم تكن الطائرة المتجهة إلى أثينا مكتظة بالركاب، مما أتاح له أن يختار المقعد القريب من النافذة في صف ثلاثي المقاعد، حين دلف الركاب جميعاً إلى الطائرة اختارت سيدة أن تجلس إلى جواره في المقعد البعيد، فظل بينهما المقعد الأوسط شاغراً.

كانت الرحلة ليلية، وإضاءة الطائرة لا تساعد على القراءة، وغالباً ما يقطع الركاب الدقائق الأولى من الرحلة في قراءة الجرائد أو مجلات السفر المودعة في جيوب المقاعدة الخلفية، لم يتحمس كثيراً حتى لمجرد تصفح مجلة الطيران، فهذا النوع من المجلات التي تشبه النشرات الدعائية تصيبه بالضجر، ربما لأنه اعتاد قراءتها إلى حد الملل، فلطالما استظهر أسعار العطور والمشروبات واصناف السجاير وخريطة الرحلة. هذه المرة آثر مراقبة الليل في الخارج وأضواء المدرجات وهي تمرق مسرعة فيما الطائرة تعبر من خلالها بضجيجها الصاعق، وكأنها تمزق أحشاء الظلام، تماماً مثلما البرق والرعد في ليالي الشتاء الحالكة.

مراقبة الليل خارج الطائرة فيما أضواء المطار تختفي رويداً رويداً كلما أوغلت الطائرة في صعودها واستوت في السماء، أصبحت لديه أكثر متعة من الانهماك الطارئ في قراءة صحيفة أو مجلة. جارته في المقعد البعيد انهمكت في قراءة صحيفة كانت احضرتها أثناء العبور، ولكن الإضاءة الخافتة لم تكن تساعد كثيراً على القراءة، خامره إحساس

بأن المرأة قد لا تعرف أن ثمة مصابيح في السقف مخصصة للقـراءة، فك حزام مقعده وارتفع بيده بعيداً ليشعل المصباح الخـاص بمقعـدها، فانبثق الضوء، تطلعت إليه بامتنان وقالت:

- شكراً فقد ذكرتني بذلك؟

وأشرق وجهها بابتسامة خيل إليه أنهما تحمل شيئاً آخر أكثـر مـن الامتنان، كانت شقراء ذهبية الشعرة في أوائل الأربعينات، تبدو مكتنـزة قليلاً، في وجهها جمال زاده صفاء بشرتها أنوثة وإشراقاً، عـادت إلـى القراءة بضع دقائق ثم التفتت إليه: كان ينتظر التفاتتها بلهفة، فقد داهمه إحساس بأنها ستبدأ الحديث معه، قالت له:

- هل أنت مسافر إلى أثينا أم أنك ستواصل السفر إلى بلد آخر؟

هل هي محاولة لفتح حوار معه أم أنها تريد أن تعرف فعلاً وجهـة سفره، كلا الاحتمالين يعني أن المرأة تبحث عن رفيق سـفر تـشاطره الحديث، أو ربما أشياء أخرى لم تتضح له بعد، قال لها:

- إلى أثينا فقط فلدي هناك بعض الصفقات التجارية المعلقة التـي تحتاج إلى انجاز.

- هل ستمكث هنا طويلاً؟

- يومين أو ثلاثة أيام على أبعد تقدير، وربما أواصل بعدها السفر إلى بوسطن.

في رحلاته المتكررة، كان يشغل نفـسه بمراجعـة الأوراق التـي يحملها، الطلبيات من البضائع والمراسلات التجارية ونسخ من اعتمادات البنوك، وغالباً ما كان يحمل في حقيبته رواية أو روايتين يقطـع بهمـا

امتداد الرحلة بعد تناول الوجبات. لم تكن رواية الوله التركي لأنطونيو غالا هي آخر الروايات التي قرأها، ولكن شخصية دسيدريا أوليبان كانت تقفز إلى مخيلته كلما لاحت منه التفاته إلى المرأة الجالسة بجواره، هو لا يعرف شيئاً عنها، ولا يدري إن كان ثمة وجه شبه ما بينها وبين دسيدريا الأسبانية التي تجري في عروقها بقايا دماء عرْبية حارة دفعتها إلى الولوج في تلك التجربة المحرمة مع (يمام) الدليل السياحي التركي الذي انجذبت إليه حتى وزوجها يجلس إلى جانبها؟

ولكن هذه المرأة ليست دسيدريا رغم أن فيها كل ملامحها، ذلك ما أثار فضوله فعلاً قال لها:

- وأنت إلى اين تتجهين؟

ترددت قليلاً وكأنها لا تريد أن تفصح عن وجهتها الحقيقة ثم قالت:

- إلى البرازيل.

واستطردت:

- سأنام الليلة في أثينا وفق نظام الترانزيت، وغداً سأواصل رحلتي إلى "الريو".

قال لها:

- جميل، يبدو أن لك خبرة واسعة في الأسفار، ولكن لماذا البرازيل؟ بالنسبة لي لطالما تمنيت أن أزور أي بلد في أمريكا اللاتينية، هذه القارة المدهشة الغامضة، هل تدرين أن روايات غابرييل غارسيا ماركيز والأجواء الغريبة التي يرصدها في رواياته هي التي تلح عليّ لاغتنام أية فرصة لزيارتها، وبشكل

خاص البرازيل حيث نهر الأمازون العظيم ومجاهله العصية حتى اللحظة على بني الإنسان.

لم يكن حديثه مفاجئاً لها، لا من حيث التنويه بروايات ماركيز التي قرأتها جميعها، ولا من حيث الرغبة الملحة في زيارة أميركا اللاتينية، فتلك كانت أمنيتها إلى أن تحققت حين جاء ذات يوم إلى بيتهم أحد المغتربين ليطلب يدها، تزوجته وغادرت عمان إلى "الريو" لتعيش معه هناك، وها هي تأتي كل عام لزيارة أهلها، تمكث عندهم شهراً أو اكثر قليلاً، ثم تعود إلى منزلها هناك، لطالما أحست بالسعادة تغمرها وهي تركب الطائرة في الذهاب أو الإياب رغم طول الرحلة، فالسفر ينطوي على متع كثيرة ليس أقلها التعرف على رفيق سفر أو النوم في فندق من فئة الخمس نجوم، فالرحلات الطويلة إلى الأمريكيتين غالباً ما تتم على مرحلتين، بينهما قضاء ليلة في مدينة أوروبية، وإذا لم يكن الفندق ملاصقاً للمطار، فمن الممكن أن يتسكع المرء في ليل باريس أو أثينا أو فرانكفورت أو فيينا أو زوريخ أو غيرها. قالت له:

- في أي الفنادق اعتدت أن تقيم في اثناء زيارتك لأثينا أو مرورك بها؟

لقد جرب أكثرمن فندق، كان أول فندق أقام فيه هو فندق أمونيا الذي يربض فوق ذلك المرتفع المطل على أثينا، أرشده إليه أحد سائقي التاكسي، وعادة ما يتقاضى هؤلاء عمولة عن كل مسافر يحضرونه إلى الفندق، كانت ساحة أمونيا مكتظة بضجيج السيارات ودخان عوادمها، كما لم يكن الفندق مريحاً أو نظيفاً بما يكفي، نام فيه ليلة أو ليلتين قبل أن يواصل سفره وقرر ألا يعود إليه في أي رحلة قادمة.

في رحلته التالية توجه إلى فندق البرزدنت، وهو فندق يقع في السفح على الطريق المؤدي إلى الأولمب، كان مستواه أفضل بكثير من سابقه ولكنه قرر مع ذلك أن يجرب فندقاً آخر يكون قريباً من ساحة أمونيا وفي مكان أكثر ارتفاعاً وأقل تلوثاً.

قال لها:

- آخر مرة نزلت في فندق بارك، وأنوي أن أنزل فيه هذه المرة.

قالت له:

- لست أدري أي فندق ستختار لنا شركة الطيران، أتمنى أن يكون نفس الفندق الذي ستقيم فيه؟

أخرج من محفظته بطاقة الفندق التي تحمل أرقام الهواتف وقال لها:

- يمكنك الاتصال بي من الفندق الذي ستقيمين فيه، فليس لدي برنامج محدد لهذه الليلة، ويمكن أن نتناول طعام العشاء معاً. ارجو أن تعدّي هذه دعوة لك.

شكرته بحرارة وبلهجة توحي بأنها قبلت الدعوة، أو أنها لا تمانع في قبولها.

افترقا في المطار، وحين كان يعبر مدخل فندق بارك كانت استعلامات الفندق تنادي على اسمه للرد على مكالمة هاتفية.

كانت هي، واستغرب سرعة وصولها إلى الفندق، يبدو أن أول شيء فعلته بعد دخولها الغرفة هو الاتصال به.

قالت له:

- الفندق الذي اختاروه لنا هو خنـــدريس أو كنـــدريس لا أدري، عليك أن تتأكد من اسم هذا الفندق، وسأكون بانتظارك.

تذكر أنه سكن هذا الفندق أيضاً حين شارك في ندوة أقامهـــا رجـــال الأعمال العرب فيه لمدة يومين، وذهب بعضهم إلى أن اسم هذا الفنـــدق هوخان ادريس وليس خندريس.

حين وصل فندق خندريس كانت الساعة قد جاوزت العاشرة مـــساءً. وجدها في انتظاره في الصالة، صافحها بحرارة وقال:

- آمل أنك لم تتناولي العشاء، فهناك في أثينا مطاعم جميلة فـــي أماكن قديمة يتناول روادها، وهم فـــي الغالـــب مـــن الـــسياح، الأطعمة اليونانية التقليدية، على نغمات الموســـيقى والـــرقص اليوناني التقليدي، وأحياناً تقدم بعض هذه المطـــاعم رقـــصات الفلامنجو التي تؤديها الغجريـــات الأســـبانيات ذوات الجمـــال الصاعق، أو ربما كن من غجريات هذه البلاد.

كان عشاء تاريخياً بالنسبة لها، ليس من حيث نواع الأطعمـــة التـــي كانت معظمها من غلال البحر كما يقول المغاربة، ولكن بسبب الأجواء العامة المريحة، الموسيقى اليونانية المميزة، والـــشبان والفتيـــات وهـــم يؤدون الرقص اليوناني التقليدي الذي ذكرها برقصات زوربا والموسيقى المصاحبة لها في الفيلم المأخوذ عن رواية نيكوس كانتزاكي.

كانت ليلة ممتعة ايقظت في نفسها كل مباهج الجسد، وخيل إليها وهما يركبان التاكسي في طريق العودة إلى فندقها أن مباهج الروح ومبـــاهج الجسد متلازمتان، ولكن الأعراف الاجتماعية هي التي تحرم الجسد من ملذات الروح أو تحرم الروح من ملذات الجسد، وتمنت لو أن بإمكانهـــا

أن تحسم الأمر أو تجد من الجرأة ما يكفي لاتخاذ قرار ما قبل الوصول إلى الفندق، وسرحت بنظراتها إلى ما وراء زجاج السيارة حيث واجهات المتاجر المضاءة ومصابيح الشوارع اتي تمرق متتاليــة دون أن تقطــع عليها استغراقها في الوصول إلى قرار حاسم سريع.

كان يراقبها بنظرات خاطفة، يلاحظ شرودها ويحاذر في الوقت نفسه أن يقطع عليها هذا الانهماك في مراقبة الأبنية والــشوارع والأضـــواء ومداخل الكازينوهـــات ذوات الفــوانيس الكابيــة بأضــوائها الحمــراء والزرقاء.

حين وصلت السيارة إلى مدخل الفندق، نزل ليودعها، فالوقت متأخر جداً، وليس ثمة أي مبرر للدخول معها إلى الصالة الخاوية من النزلاء، صافحها بحرارة وكانت يدها تشتعل رغم برودة الجو في الساعة الواحدة صباحاً. لم تجد كلاماً مناسباً تقوله له، فقد ظلت عاجزة عن اتخاذ القرار الذي تريده، وكانت تخشى من ردة فعل غير متوقعة، فالرجل ظل يحتفظ بهدوئه ورزانته، كان مهذباً أكثر مما توقعت، واكثر مما يشجعها علـــى الافصاح عن قرار مغامر قد يعكر عليها مباهج هذه الليلة التي لم تكتمل.

قالت له:

- لا أدري كيف أشكرك على هذه السهرة الممتعة وهذا العــشاء الذي لن أنساه أبداً.

قال لها:

- إنك تستحقين أكثر من ذلك، لقد سعدت فعلاً بصحبتك هذه الليلة، فشكراً لك وآمل أن نلتقي مرة أخرى؟

وعاودها ارتباكها السابق وقالت متلعثمة:

- اتمنى أن التقيك في البرازيل؟

عاد إلى مقعده الخلفي في سيارة التاكسي، فتح زجاج النافذة ليقول لها وداعاً، وظلت واقفة تلوح له بيدها إلى أن اختفى تماماً.

في حوالي الساعة التاسعة صباحاً أيقظه جرس الهاتف، كان صوتها يأتي من الطرف الآخر، ولكنه أقل تلعثماً واكثر وضوحاً، قالت له:

- بعد لحظات سأكون في داخل الطائرة، أردت أن أشكرك مرة أخرى على سهرة الأمس، كنت أتمنى لو انك صعدت إلى غرفتي لنستكمل سهرتنا الجميلة، أرجو أن تدون رقم هاتفي في "الريو" فمن يدري لعلنا نلتقي في البرازيل أو في رحلة أخرى، ودوّن رقم هاتفها، ثم عاد إلى النوم من جديد.

أثينا ـ تشرين أول 1989

في الطريق إلى استوكهولم

في رحلتي الأخيرة إلى استوكهولم اخترت خط الطائرة الـذي يمـر عبر فيينا، وقد اعتدت في رحلاتي المتعددة إلى شيكاغو وميامي أن أمر عبر هذه المدينة الجميلة التي غنّت لها أسمهان فـي صـباها أغنيتهـا المشهورة "ليالي الأنس في فيينا".

في الليالي القليلة التي قضيتها في فيينا عبر أسفاري، تعرفت علـى بعض قصباتها، وارتدت مطاعم ومقاه مختلفة، ونمت في أكثر من فندق وأصبحت لي فيها ذكريات أحنّ لها، وأحاول استحضارها كلما رمتنـي الطريق عبر فيينا في الذهاب أو الإياب.

في محطة المغادرة الأولى من محطات هذا الوطن الصحراوي، كل شيء كان يبدو طبيعياً، اللغة الجافة والوجوه المتجهمة والماء الـشحيح والهواء المغسول بالغبار، والمتسكعون في الممرات في انتظـار رحلـة الإقلاع، التي جاءوا إليها قبل الموعد المحدد بساعتين أو أكثر.

هنا تبدو العروبة بكل تجلياها، الملامح القاسية، الأجـواء المختنقـة بالحرارة ودخان السجاير، ولكنك حين تعبر الخرطوم الموصـل إلـى الطائرة يداهمك الإحساس بالتغير، وجوه المضيفات الباسـمة والطـائرة المكيفة والترحاب المبالغ في رقته، والأماكن المحجوزة بدقة لا يجـدي معها التزاحم من أجل الحصول على مقعد متقدم، كما يحدث عادة فـي

الرحلات الداخلية في دول العالم الثالث، كل شيء يتحرك هنا بنظام صارم ولكنه ودود.

في الطائرة المتجهة إلى فيينا بدأت ملامح العروبة بالخفوت التدريجي، لغة المضيفين والصحف المعروضة للقراءة، وبيانات قائد الطائرة وتعليمات السلامة والنجاة في أحوال الطوارئ، وقد اعتدت ألا أهتم بها لكثرة ما استمعت إليها، ولاعتقادي الجازم بأنها لن تنفع في شيء إذا وقع القدر، ولست أعلم أنها نفعت يوماً في كل الكوارث التي حلت بالطائرات.

في المقاعد الخلفية المجاورة لي كنت اسمع أحاديث تدور باللهجة العراقية، وقبلها حين توجهت إلى السفارة، ابتغاء لتأشيرة الدخول، كان الزحام عراقياً، وكانت الوجوه تتدافع رغبة في مغادرة هذا الوطن إلى المجهول، حتى لو كان هذا المجهول جهنم وبئس المصير!

في مطار فيينا شاهدتها تسأل هنا وهناك عن المعبر الموصل إلى طائرة استكهولم، وكنا جميعاً نتساءل عن رقم البوابة وموعد الإقلاع، كانت المرأة العجوز كتلة من السواد المتحرك، لا أحد يرافقها سوى وحدتها وكوابيس الحصار الطويل، والرغبة في الوصول الحثيث إلى ولدها المقيم في إحدى المدن السويدية. لم تكن المرأة تعرف لغة غير العربية، وحين قدموا لنا الطعام في الطائرة تريثت طويلاً قبل أن تمد يدها إلى محتويات الطبق، ثم سألتني عما إذا كان في الطبق شيء من لحم الخنزير، قلت لها إنها لحمة الديك الرومي، ويبدو أنها لم تصدق كلامي، فاكتفت بأن تأكل خبزها مغمساً بالعصير بدلاً من الوجبة الساخنة.

في مطار استكهولم كانت المفارقة المفجعة، لم تكن المرأة العراقية تحمل شيئاً سوى جواز سفرها المدموغ بالتأشيرة، ولم يكن أحد في انتظارها.

لم تكن المرأة تعرف في أي مدينة يقيم ولدها، كل ما لديها هو رقم هاتف مكتوب بالطريقة العربية أو الهندية، حتى الرقم الذي تحمله لم يخرج من جلده العربي، فمن كتب لها الرقم لم يكلف نفسه عناء كتابته بالحرف الآخرالذي يتداولونه هنا في أنحاء أوروبا.

لم أجد ما أقدمه لها أكثر من ملء البطاقة؟ وكيف يمكن لهذا الوطن المهاجر أن يعثر على وجهه الأخر؟ كيف يمكن لي أنا الغريب القادم من تخوم الصحراء أن أمدّ لها يد العون؟ عبأت لها نماذج الدخول وأعدت كتابة رقم الهاتف الخاص بولدها، وسلمت النماذج ورقم الهاتف لشرطة العبور، وتساءلت بحزن يشوبه الغضب! أين ولدها ولماذا لم يكلف نفسه عناء القدوم من المدينة الأخرى البعيدة عن استوكهولم لاستقبال والدته، لماذا تركها تهيم على وجهها في المطارات الغريبة؟ قلت لنفسي: هل ثمة ما يمكن أن أقدمه لها غير هذه المشاعر المعفّرة بالحزن والإشفاق؟ وما الذي يملكه الغريب لمساعدة الغريب؟ هؤلاء الأجانب الأكثر غربة هم وحدهم القادرون على مساعدتها!

تركت المرأة عند حاجز الجوازات، وسألتها إن كانت تريد شيئاً قبل أن أغادرها.

حين كنت أعبر بوابة الخروج من المطار، تلفت نحوها وغصة كبيرة تصطخب في صدري ودمعة ما تحتشد في عينّي، وتذكرت، دونما وجه

للشبه أو المقارنة، بيت امرئ القيس في رحلة اغترابه الأخيرة إلى بلاد الشام:

أيا جارتنا إنذا غريبان ها هنا   وكل غريب للغريب نسيب

ولكننا جميعاً، هذا الوطن المهاجر، الموزع في كل المطارات والسجون والمدن النائية واللغات الغريبة.

استوكهولم ــ تشرين أول 2000

ذات صباح.. ذات مساء

الآن فقط عرفت ما الذي شدّني إليه، عرفت سر هذه الرغبة الملحة في مغادرة شقتي للحوار معه، رغم برودة الجو في هذه المدينة الموغلة في الصقيع، في هذا الفضاء ذي البنايات المتقابلة حول خلاء أخضر، تشوبه صفرة أوراق تذروها رياح الخريف في زوايا الأرصفة والبنايات.

مدينة "هلستاهمر" السويدية تبدو غارقة في البرودة، برودة الجو وبرودة التواصل مع الآخرين وبرودة الانزواء الموحش حتى الموت. لا شيء هنا يتحرك حتى في ضحى النهار، السكون يستولي على كل شيء على شرفات الشقق ونوافذها، وعلى الشوارع الخالية من السابلة والضجيج، هنا تنطلق الدرجات منذ الصباح الباكر يمتطيها الطلبة المتوجهون إلى مدارسهم والعجائز الذاهبون للتسوق، عالم آخر مغاير تماماً لذلك العالم المتدفق الذي غنّى له "سيد درويش" الحلوة دي قامت تعجن في البدرية، والديك بينده كوكو في الفجرية.

عشرات الشقق في هذا المجمع السكني تبدو ميتة، لا شيء يؤشر على الحياة فيها سوى أضواء خافتة يمتصها السكون، أضواء تبدو هي الأخرى باردة مثل أرصفة هذه الشوارع المحاصرة بالثلوج والأشجار الممتدة إلى مالا نهاية.

كنت أخرج إلى الشرفة للتدخين فقط، هنا لا يدخنون في المنازل،

يرتدون معاطفهم، يخرجون إلى الشرفات الباردة، يسابقون النار المشتعلة في سجائرهم ليدلفوا إلى المنازل من جديد، وكأنهم يهربون من الصقيع إلى الصقيع.

بمحض الصدفة لفت هذا العجوز انتباهي فأخذت أراقبه، أتابع نزوله اليومي من شقته في الدور الثاني من العمارة المقابلة، في حوالي التاسعة صباحاً والخامسة مساءً، كان يهبط إلى موقف السيارات المجاورة للساحة، يدور حول سيارة ظلت تربض هناك بعيداً عن الشارع، يفتحها يخرج من داخلها خرقة التنظيف، يمسح بقعة هنا أو غباراً عالقاً هناك، يتفقد إطاراتها، يدور حولها من جديد، أحياناً كان يفتح صندوقها الخلفي وكأنه يتفقد شيئاً، يغلق الصندوق، ويعيد الخرقة إلى موضعها تحت مقعد السائق، يربت على السيارة، يبتعد عنها خطوات قليلة، يتأملها، ثم يعود يربت عليها، كأنه يتلمس عشيقة يلتقيها بعد طول غياب.

هذا الحوار اليومي بين العجوز وسيارته كان يستمر بضع دقائق، يطول أو يقصر وفقاً لحالة الجو، أو ربما لحالة العجوز النفسية، ولكنه حوار لم ينقطع يوماً، راودني حب الاستطلاع أو ما هو اكثر منه للتعرف على الرجل، لعلي اكتشف سر هذه العلاقة الغريبة بينه وبين سيارته.

هذا الصباح قررت النزول إلى الساحة والمرور من جانبه واختلاق ذريعة ما لفتح حوار معه، وحين طرحت عليه تحية الصباح ردها علي باقتضاب شديد وكأنه يستغرب أن يقوم أحد بطرح السلام عليه، فالناس هنا يلتقون في الشوارع والأسواق دون أن تلتقي عيونهم، ودون أن يبادر أحد بطرح السلام على أحد، تماماً مثلما تلتقي الاشباح.

لم يلتفت العجوز إليّ، فهو لا يتوقع أن أدر معه حواراً أو حتى كلاماً عابراً، وانصرف إلى سيارته دون أن يعبأ بي أو تلتقي عيوننا، ومضيت في طريقي على أمل أن أعاود الكرة في يوم آخر.

صبيحة اليوم التالي وقبل موعد نزوله كنت أتمشى في الساحة أدخن وأسترق النظر إلى مدخل البناية في انتظار نزوله.

كان متهدّماً ينوء تحت وطأة سنوات طويلة من الإهمال، وهذا المعطف الرمادي لم يبارح كتفيه منذ بدأت أتابع نزوله وحواراته اليومية مع السيارة، قلت له:

- هل هذه السيارة للبيع؟ أراك تتردد عليها كل يوم، ولكنني لم أشاهدك تسوقها.

انتفض العجوز وكأنه يصحو من حلم بعيد، حلم يمتد إلى البدايات الأولى حين كان للسيارة معنى أخر غير هذا الطواف من حولها، وكأنها أيقونة يبتهل إليها أو يستنهض منها ذكريت ما، وكم من الذكريات، تستطيع هذه العلبة من الصفيح أن تختزن؟

قال وهو يختنق بالكلمات:

- كنا نسكن جبل إيكمان المطل على سراييفو، نهبط أو نصعد تلك الشوارع المتعرجة المسيجة بالخضرة والسقوف القرميدية، حين غادرنا في ذلك الصباح الأسود، كان البيت قد احترق بأكمله، وحدها السيارة لم تحترق لأنها كانت خارج المنزل، هبطنا دون أن نحمل شيئاً لأنه لم يبق ثمة شيء نحمله، عبرنا شوارع سراييفو التي ملؤها الدمار، بنايات تحولت إلى أنقاض، إلى ركام اسود بعضه ما يزال يحترق، هياكل سيارات

ومدرعات متفحمة اتخذ منها المقاتلون متاريس يحتمون بها من رصاص القناصة الصربيين.

وصلت إلى هنا وحيداً، زوجتي ماتت جوعاً وإرهاقاً وخوفاً، وابنتي سقطت صريعة برصاصة قناص صربي بينما كنا نجتاز حدود المدينة، وحدي نجوت، وهذه السيارة هي كل ما تبقى من الوطن ومن الأهل أيضاً، هنا وجدت المأوى الآمن، لو كان بالإمكان استرجاع الموتى لكانت زوجتي وابنتي هنا، كل يوم أسمع صوتهما وهما تهبطان من السيارة، بل وأراهما تهبطان منها وتصعدان الدرج إلى هذه الشقة الغارقة في وحدة تشبه الموت.

غابت عني كل الكلمات التي يمكن أن تعبر عن تعاطفي معه، صمت قليلاً، ثم استطرد:

- هل يبيع أحد وطنه أو بقايا وطنه؟ إن بيعها يعني بالنسبة لي الموت، هذه السيارة هي الرمز الوحيد المتبقي لدي من اسرة ضاعت، تناثرت مثل أشلاء عمري الذي يوشك على الانطفاء. اسمع إذا كنت ترغب في شراء سيارة فهناك أكثر من مكان لهذا الغرض، يمكنك العثور فيه على السيارة التي تريد.

عاودني الإحساس الفاجع بالغم:

- أردت فقط أن أتحدث إليك. فالسيارة لا تعنيني في شيء.

كان وجهه مثقلاً بالحزن:

- هذه السيارة هي كل ما تبقى لي، كل شيء ضاع، الأهل والمال والعمر، لم يبق لي إلا هذه أستثير بها الذكريات وأبكي حين

أصعد إلى شقتي، لقد اصبحت جزءاً من تاريخي الشخصي، اشترتها لي ابنتي التي ضاعت على قارعة الطريق في سراييفو، تركتها تسبح في دمائها دون أن أتمكن حتى من تقبيلها أو ضمها إلى صدري، ها أنذا أعيش (هل أعيش حقاً؟) دون أن أجد من أجلس إليه، أو أحدثه أو أحتسي القهوة معه، لا أحد أشاطره السرير أو طعام الإفطار أو الجلوس إلى التلفاز.

لا أحد يزورني وليس ثمة من احد أزوره، لا أحد سوى هذه السيارة أحدثها وتحدثني، أزورها في الصباح وقبيل المساء، أحياناً تراودني الرغبة للنزول إليها ليلاً، أجلس فيها، أتحسس المعقد المجاور حيث كانت تجلس زوجتي.

حين أتحسسها أشعر بأن قشعريرة تجتاحني، هل تصدق أنني أحس بها ترتعش أيضاً، حين أتطلع إلى أضوائها الأمامية أو الخلفية أراها عيوناً حزينة تحدق بي والدموع تكاد تطفر منها.

كانت عيناه دامعتين، وجسده النحيل يرتعش، وكأنّ عاصفة توشك أن تذهب به. انصرف بدموعه عني وهو يتمتم:

الأرض الخراب

ملأى بالأنقاض والحطام

يا الهي المنقذ: كل شيء يحترق

لكن النار لا تستطيع التهام كل شيء.[1]

---

[1] من قصيدة للشاعر الكرواتي "سريكو ديانا".

أعربت له عن أسفي الشديد، قلت له: بإمكانك أن تزورني، أنا أقيم هناك في الطابق الثاني، الشقة رقم 3.

ولكن العجوز لم ينبس بشيء، أدار وجهه عني وكأنه يداري دموعه، تركني وعاد يدور حول السيارة يتلمسها، يمسح بأصابعه أضواءها، يفتح صندوقها الخلفي ثم يعيد إغلاقه، ويعاود الدوران من حولها كفراشة تحوم حول نار مطفأة.

عمان ـ آذار 2001

الساكن الجديد

في الفترة المخصصة تماماً لاستراحة الناس بعد الغداء، في القيلولة الممتدة ما بين الساعة الثانية والساعة الخامسة، اعتادت إحدى صديقات جارتي أن تزورها، وجارتي التي لم تكن أكثر من آلة لتفقيس الأطفال، تسكن في الدور الثالث، أما أنا فأسكن تحتها تماماً في الدور الثاني من بناية هرمة تقع على مقربة من الطريق العام ما بين القدس ورام الله.

لجارتي أربعة أطفال ولصديقتها التي تزورها كل يوم خمسة أطفال، تتراوح أعمارهم جميعاً ما بين الثالثة والتاسعة.

هؤلاء الأطفال يحلو لهم جميعاً أن يتخذوا من سلالم البناية ملعباً لهم، كان صراخهم متعدد الدرجات، مختلطاً وهائلاً، يتجمع عبر السلالم، ويتحول إلى سيل من الضجيج يتدفق عبر مسامات الجدران والأبواب والنوافذ، ويحتل فضاء العمارة، لعنة تخترق الدماغ، وليس ثمة من سبيل لإيقافها.

اخترت لقيلولتي غرفة النوم البعيدة، وأوصدت بابها ونوافذها بإحكام، ولكن دون جدوى، قلت: ما دام الإغفاء مستحيلاً، فمن الأجدى أن أشغل نفسي بالقراءة، انصرف بكامل ذهني إلى القراءة فأجتاز محنة الضجيج، ولكن عبثاً، استعنت بالمذياع، ولكن صوته تحول إلى ضجيج إضافي صاخب من إزعاجي وزاد الأمر وبالاً.

فكرت في أن أشكو الأمر لجارتي، ولكنني كنت كلما أصل إلى الباب

وأهمّ بفتحه، أعود لأعدل عن ذلك، فرجل عازب مثلــي، يقطــن حيــاً مخصصاً للعائلات لا يليق به أن يصعد شاكياً لامرأة في غياب زوجها.

قلت لنفسي تجمّل بالصبر، ثم إن هذا الضجيج الصبياني يظل أرحــم ألف مرة من ضجيج السيارات ودخان عوادمهــا الــذي يتعــرض لــه الساكنون بمحاذاة الشوارع الرئيسة.

هذا اليوم كان حاراً وقائظاً، أحسست بالصراخ يخترق رأسي، ينفــذ إلى أسفل جمجمتي كسهام من الفولاذ المحمــي، فقــدت القــدرة علــى الاحتمال واندفعت هائجاً باتجاه الباب، لم يكن قــراراً بــالخروج إلــى الأطفال لإسكاتهم، ولكنه ردة فعل لكل هذا الغليان من الصراخ والحرارة والاختناق، فتحت الباب بعنف وأنا أهم بالصراخ، ولكن فجأة تجمد كــل شيء، كان في مواجهة الباب كلب ضخم يفتح فمه، ويشرع أنيابه، ويهم بالانقضاض عليّ، كلب أسود له ذراعان طويلتان وعينان تقدحان نــاراً، لحظة من الذهول جمدت كل شيء، سارعت بإغلاق البــاب، فــانقض الكلب بذراعيه يحاول الدخول يدفع الباب في اتجاهي، ولكن خوفي كان أقوى من اندفاعه، أغلقت الباب، ولكن مخالبه ظلت تــضرب، ونباحــه يرتفع وهو يحاول الاقتحام.

من أين جاء هذا الكلب؟ وأين ذهب الأولاد؟ وكيف تحول كل ذلــك الصراخ إلى نباح مخيف لكلب يحاول اقتحام منزلــي، ولا يكــف عــن ضرب الباب بمخالبه التي تشبه المطارق؟

أحكمت إغلاق الباب، ووجدت نفسي أتهاوى مــن الخــوف وهــول المفاجأة، قعدت وراء الباب أسنده، وكأنني اخشى أن يحطم الكلب الأكرة الحديدية، لحظات قليلة ثم انقطع النباح، وقفت أستطلع الأمر من العــين

السحرية المثبتة في أعلى الباب، لم يكن ثمة كلب، كانت السلالم خالية تماماً، لا أولاد ولا ضجيج ولا شيء على الإطلاق.

توجهت إلى غرفة النوم البعيدة، كان عرق غزير يسح من جسدي، كنت مرهقاً وخاوياً ارتميت على السرير، وشرعت أجفف العرق عن وجهي ورقبتي، وفجأة بدأ الأولاد يصرخون، وأخذ صراخهم يعلو ويشتد ويشتد.

ولكنني قررت مواصلة الاسترخاء حتى دون أن أغلق باب غرفة النوم.

القدس ـ آب 1995

تلك الأمسية

كانت أمسية حميمة، فالمدعوون للعشاء نخبة أحسن مضيفنا اختيارها، لا أدري هل هي الصدفة التي رتبت لي هذا اللقاء معها أم أنها لباقة مضيفنا وزوجته، فالمدعوون جميعاً كانوا أزواجاً، كل واحد منهم ترافقه زوجته، أما بالنسبة لي فقد اعتاد أصدقائي أن يتحملوا وجودي معهم مفرداً، فمنذ رحلت زوجتي قبل ست سنوات، واصل أصدقائي دعوتي إلى سهراتهم أو ولائمهم العائلية، ربما تعاطفاً معي، أو تقديراً منهم لإصراري على البقاء عازباً، حفظاً لعهد كنت قطعته للمرحومة زوجتي وإخلاصاً مني لذكراها، ولست أدري إن كانت المرحومة تريد مني فعلاً مثل هذا الإخلاص، أو أنه ينفعها في شيء بعد أن تحولت عظامها إلى تراب.

كانت زوجة صديقي المضيف قد بادرت إلى دعوة زميلة لها إلى سهرة الليلة، ولأنني كنت أول من وصل من المدعوين فقد قدمت مضيفتنا صديقتها لي قائلة:

لولو زميلتي في الدراسة.

وقدمتني لها بأنني صديقهم المتقاعد، كان مديراً في مصلحة الضرائب ويهوى الكتابة والقراءة والأسفار.

لم نكد نتحدث قليلاً حتى بدأ المدعوون بالوصول تباعاً، كان عددهم محدوداً وافكارهم وتوجهاتهم السياسية متقاربة إلى حد كبير، وكانت

الجلسة موحدة وهادئة، والحديث يدور ليناً، يتناوبه الرجال والنساء دون حاجة إلى من ينظمه.

كان لصديقة مضيفتنا جاذبية متميزة، ووجهها بداً جميلاً ولا سيما عيناها، وقوامها بدا ممشوقاً رغم امتلائه قليلاً، وعمرها، آه من عمرها، كانت تصغرني بخمسة وعشرين عاماً على الأقل!!

تعمدت أن استمع لحديثها وهي على جانب لا بأس به من الثقافة، وحين كان أحدهم يقاطعها بحديثه كانت تواصل حديثها لي، فأصغي لها بانتباه، فكانت تشعرني باهتمام خاص، وتحسن الإصغاء لما أرويه من طرائف أو قصص أو معلومات.

حين نهضنا لتناول العشاء، وقفت في مواجهتي، كان صدرها متوثباً وقوامها مثيراً، سمعتها تعرب لمضيفتنا عن ارتياحها لي، ولم أتوانَ عن رد هذه المجاملة لها، وكنت قد ارتحت لها فعلاً.

كانت أمسية دافئة، فاستبد بنا التعارف، واختلسنا لحظة من انهماك المدعوين في الحديث فتبادلنا أرقام الهواتف،وحين انفضت السهرة في وقت متأخر من الليل، ضغطتُ على يدها وأن أودعها، وأحسست أن ثمة استجابة مريحة، هكذا قالت لي حركة يدها وتأكيدها على ضرورة أن نلتقي مرة أخرى.

في صبيحة اليوم التالي، كان أولشيء أفعله حين استيقظت، متأخراً، الاتصال بها، قلت لها إنها كانت وردة السهرة، وان الامسية كانت لطيفة جداً ومنعشة بحضورها المتالق، وقلت لها بأنني أرغب في لقائها لإهدائها آخر كتاب لي، رحبت بذلك، وكانت لهجتها تفيض سروراً وارتياحاً.

تناولت نسخة من كتابي وتعمدت أن أكتب لها إهداءً مبهمــاً يــوحي برغبة في أن نكون أصدقاء أو أكثر من ذلك.

وفي مكتبها ناولتها الكتاب، قرأتْ الإهداء بقليل من الاهتمــام، ثــم نهضت لتحضر لي كوباً من العصير. جلسنا متقابلين وأدرنا حديثاً كــان يبدو بارداً ومتكلفاً، لقد داهمني إحساس ملحّ بأنها أصغر كثيراً مما كنت أراها عليه في سهرة الليلة الفائتة، أما هي فقد خيل إليّ أن خيبــة أمــل واضحة تطفو فوق وجهها، لقد اكتشفت من جانبها بأنني أكبر بكثير مما وجدتني عليه في الليلة الماضية، وهكذا انكسر اللقاء وانكــسرت معــه أحلام كثيرة.

قلت لها وأنا أنهض مودعاً:

- لا بد من أن نلتقي مرة اخرى، آمل أن تقرئي هذا الكتاب.

وكان وداع، ولكن دون مصافحة هذه المرة.

لقدس ـــ كانون أول 1996

قاعة الدوريات

المسافة بين منزلك وبين مكتبة عبد الحميد شومان ليست بعيدة، وقد اعتدت أن ترتادها في الفترة ما بين العصر والمغرب، وهي الفترة التي يحلو للبعض، ولا سيما السيدات نصف البدينات أن يخرجن للمشي فيها، للتخفيف من حمولة الشحم الزائدة، وإدارة أحاديث لا تخرج كثيراً عن الاستغابة والنميمة.

كنت تقطع شارع سليمان القانوني إلى فندق برج بابل، ثم تنعطف يمينا مع شارع عبد المطلب وهو الشارع الخلفي الموزاي لشارع عبد الحميد شرف.

العبور في الشارع الخلفي لمجمع النقابات المهنية يثير في النفس ذكريات شتى عمرها ربع قرن أو يزيد، في هذه القاعات التي كنت تدلف إليها من الباب الخلفي أحياناً، شاركت في ندوات عديدة ومؤتمرات صاخبة، وانتخابات هيئات إدارية، وشهدت حفلات أعراس عديدة على بركة السباحة.

في هذا الشارع الخلفي تسير معك ذكريات لها في النفس مواقع جميلة، تبدو اليوم وكأنها كل تاريخك الشخصي العابق بالحنين.

وفي أمسيات الصيف حين تأخذ الشمس في الزوال كنت تعبر من هنا أنت وزوجتك في الطريق إلى قصبة الشميساني العامرة بمطاعم

الشاورما والكنتاكي والهمبرجر والبوبايز ومقاهي الأرصفة ومحلات الأيس كريم "الفروستي" وجبري وعطا علي.

في هذا المقهى الذي يندس تحت مؤسسة عبد الحميد شومان العملاقة كانت شهية القهوة تضج في صدرك وأنت تشتم عبقها النفاذ حتى من الشارع، في مقهى دارة الفاروقي كنت تلتقي بأصدقاء بددتهم الغربة، بعضهم ما تزال تلاحقه المنافي في لندن ونيويورك وباريس، وبعضهم عاد إلى الوطن، وبعضهم عاد إلى أغترباته العربية الطويلة في الخليج، أما البقية وأنت منهم فما زالوا يرابطون هنا، تجمعهم صداقات يقتحمها ضيق الوقت والركض وراء لقمة العيش ومتطلبات الأولاد ونكد الحياة.

في أواخر الستينات لم يكن هنا في هذه المنطقة من عمان شيء، لا مباني ولا شوارع ولا مقاهي تعج بالأراجيل والسهر والأغنيات الصاخبة عبر أشرطة التسجيل، في السبعينات كنت تلتقي بالأصدقاء إياهم في مقهى شهرزاد في شارع السلط، وهو المقهى الذي جاءت دارة الفاروقي لتكون تقليداً ارستقراطياً له، في هذه الفسحة التي تحولت إلى قصبة كسائر قصبات عمان في الصويفية والرابية وعبدون والجاردنز.

عمان تُغَيِّر قصباتهاكما تغير شوارعها، ووجوه العابرين بها والصداقات الحميمة التي تزدهر فيها لحظة أو لحظات تعود لتقفر من جديد.

في ذلك المقهى الأكثر شعبية الذي ينزوي في زنقة مواجهة للبنك العربي في شارع السلط، كنتم تلتقون، تلعبون الورق فيما يشبه القمار، كان الخاسر يشتري للرابح كتاباً بمبلغ له سقف محدد، من يصدق أن الكتب تتحول بين المثقفين إلى مادة للقمار؟

حين اخترت منطقة الشميساني لتكون سكناً لك كان الاختيار عشوائياً، فالصدفة وحدها شاءت أن يكون مكتبك هنا في شارع عبد الحميد شرف، ولا بد أن يكون السكن قريباً في الشارع الخلفي الموازي لـــه، شـــارع السلطان سليمان القانوني، ولم يكن للشميساني بعد سوق ولا قصبة كمــا هو الآن، ولم يكن هناك مؤسسة عبد الحميد شومان أو مكتبتها.

ولكن المكتبة سرعان ما توسعت لتحتل أربع طبقات من المبنـــى ذي الطبقات السِّتّ، في البداية، ربما قبل ست سنوات لم يكن للمكتبـــة رواد بهذا الحجم الكثيف، ربما لحداثة عهدها، أو ربما لقلة ما فيها من كتـــب ومراجع، أو لأن قسم الدوريات والصحف لم يكن على هذا النحو مـــن الشمول والاتساع والتوافر على معظم الصحف والدوريات العربية.

ومن يرتاد مكتبة شومان أو قسم الدوريات فيها يسجل أسمه وعمـــره وتاريخ الارتياد، ضمن سجل يومي يضعونه مع القلم على حاملة قريبة من الباب، وذلك لغايات إحصائية بحتة كمعرفة معدل أعمار المرتـــادين أو عناوين سكنهم أو الأيام المفضلة لزيارة المكتبة.

كنت تتحرج أحياناً من ذكر عمرك وأنت الكهل فـــي هـــذا الـــرهط المتدفق من الصبيان والفتيات، طلاب جادون جاءوا للبحث عن معلومة ما أو لاستكمال متطلبات بحث للتخـــرج أو للماجـــستير أو الـــدكتوراه، ومراهقون ومراهقات لم يجدوا مكاناً أكثر أمناً ودرءاً للشبهة من المكتبة. يلتقون هنا، يتهامسون، ومن ثم يخرجون بحثاً عن مكان أقـــل صـــرامة لاستكمال أحاديثهم وتناول المشروبات.

كنت تدّون عمرك، وغالباً ما كنت تتحاشى التدوين كله، فـــلا أحـــد يجبرك على كتابة اسمك في هذه القائمة المفتوحة دائماً لأسماء الزائرين.

ذات يوم بدأ يرتاد المكتبة رجل أكثر كهولة منك، ليس بسبب الشيب الذي يأكل رأسه وشاربيه، ولكن للهشاشة التي تعصف بكيانه عموماً، كل يوم كان يرتاد قسم الدوريات، يسبقك غالباً، ولكنه يأتي في الموعد نفسه ما بين الخامسة والسابعة مساءً.

كنت تتعمد أحياناً التحديق في وجهه أثناء انهماكه في المطالعة، لاستقراء ما تخفيه ملامحه من أسرار، ونادراً ما التقت عيونكما، كنت تتساءل: ما الذي يدفع هذا الكهل للقدوم في هذا الموعد بانتظام كل يوم، فيما يشبه خروج الفيلسوف الألماني عما نويل كنت لمشيته اليومية في الموعد الدقيق الذي جعل جيرانه يضبطون ساعاتهم في لحظة خروجه؟

إلى أين انتهت به هذه الشيخوخة؟ هل فقد زوجته؟ هل غادره الأولاد والبنات إلى بيوت الزوجية! ما الذي يفعله في نهاره الطويل الممتد من الصباح حتى ساعات المساء؟ معظم الكهول في مثل عمره تستهويهم — عادة — لعب الطاولة، والتهديد والوعيد من كلا الطرفين بأن الآخر سيهزم هزيمة نكراء، وكأن مصير العالم كله ينتهي في شوط من لعبة النرد!

إلا أن اهتمامك به أخذ ينحو منحنىً آخر، فالمواضيع التي يهتم الكهل بمتابعتها والبحث عنها قد تلقي الضوء على كوامن شخصيته وابعادها الثقافية والاجتماعية.

كان يتصفح الجريدة بسرعة دون أن يتوقف لحظة عند العناوين السياسية، ويقلب الصفحات، ثم يتجه من فوره إلى صفحات الموتى، وكأنه ينقب فيها عن اسم شخص ما ينتظر موته، أو ربما يدقق في أعمار الموتى وأسباب موتهم، يبحث عمن يجايله من الموتى، فيما يشبه

طمأنة النفس بأن الموت ما يزال بعيداً عنه، أو ربما التوجس من دنوه ثم يتوقف عند الأبراج، وهل ثمة ما ينتظره هذا الكهل غير حسن الختـــام، والاستسلام بهدوء للموت القادم لا محالة.

كنت تقول: علينا أن نكابد حتى اللحظة الأخيرة، نستمتع بهذه الحيـــاة ما استطعنا، رغم أن متع سنوات العمر الأخيرة تختزل في القـــراءة أو الرحلات أو صداقات موغلة في الفراغ.

أما هذا الكهل فيبدو أن متعته من نوع آخر، انها الشروع فـــي حـــل الكلمات المتقاطعة، لكم تستغرقه هذه المربعات وهو يبحث عن الكلمـــة الضائعة أو الكلمة المطلوبة لملء الخانة، يهرش رأسه ويصوب أنظاره عبر زجاج النافذة في الاتجاه البعيد، في عمليـــة بحـــث مـــضنية عـــن المرادف المطلوب.

كثيراً ما راودك خاطر أن تمد له يد العون في البحث عن كلمة مـــا، كنت تتمنى وأنت تجلس معه على المنضدة نفسها أن يتوجه لك بالسؤال عن أي شيء، بعد هذه الألفة الطويلة التي جمعتكما في قاعة الدوريات.

هو لا يدون أسمه في القائمة دائماً، ولكنه يفعل ذلك بين الحين والحـــين، في مطلع الأسبوع وكأنّ التسجيل مرة واحدة في الأسبوع يغنـــي عـــن التسجيل اليومي، وها أنت قد عرفت اسمه وعمره، ولكن التحدث إليه لم يكن ممكناً في قاعة المكتبة.

حسن الزيناتي لم يحضر هذا اليوم كعادته، لا تـــدري لمـــاذا تفتقـــده وكأنه أصبح رفيق عمر أو صديقاً حميماً، رغم أن كلمة حوار واحدة لم تدر بينكما، أصبحت رؤية الرجل بالنسبة لك عادة يوميـــة تمامـــاً مثـــل

زيارة قاعة الدوريات والإدمان على قراءة جريدة ما، أو احتساء فنجان من القهوة.

ما الذي حدث لحسن الزيناتي، يوم آخر يتغيب فيه الرجل عن الحضور، هل هو مريض؟ هل هو مسافر؟ أم أن حادثاً ما قد ألمَّ به؟

في اليوم الثالث افتقدته أيضاً، خطر لك بمحض الصدفة أن تلقي نظرة على صفحة الاموات دون أن يخطر ببالك ولو للحظة أن تجد نعيه فيها!

إنّا لله وإنا إليه راجعون، هذا هو حسن الزيناتي قد تحول إلى مجرد اسم في صفحة الوفيات دون أن يتاح لك التحدث إليه أو المشي في جنازته أو المشاركة في مراسيم عزائه.

وها أنت تنقطع عن زيارة قاعة الدوريات لوقت طال كثيراً، ربما في انتظار أن يغادر طيفه تلك المنضدة التي اعتاد الجلوس بجانبها، أو في انتظار أن تغير قاعة الدوريات موقعها الراهن الذي ما زال يحتله طيف ذلك الكهل.

عمان ــ تموز 1997

دفتر الهواتف

في العيد الماضي فتحت دفتر هواتفي الشخصية لعلي أهاتف بعض الأصدقاء مهنئاً أو مذكراً بوجودي، فغالباً ما يكون العيد لحظة ينزوي فيه المرء إلى ذاته مستنهضاً ذكريات عمرٍ مضى كأنه الحلم، وخلال انزوائه تستعرض الذاكرة أحداثاً ووجوهاً وأسماء وقراءات يملؤها غبش النسيان أو تعود بقاياها حميمة إلى النفس، لأنها الجزء الذي مضى من العمر إلى غر رجعة.

فتحت دفتر هواتفي استعرض الأسماء، فانداح أمامي شريط الحياة، وتساءلت أين مضى كل هؤلاء الناس الذين ترقد أسماؤهم هنا، تطل عليّ من هذه المفكرة الصغيرة كأنها شواخص تذكر بنفسها؟ ولم أجد بداً من تناول القلم لإجراء شطب هنا أو تعديل هناك، ولكنني كلما مضيت مع الأسماء وجدت الامر يستدعي اقتناء مفكرة جديدة.

أصدقاء كثيرون تملأ أسماؤهم الاجندة، بعضهم مضى إلى غير رجعة، غيّبه الموت، رغم أن فارق العمر فيما بيننا لم يكن كبيراً، بل أن بعضهم يصغرني بسنوات عديدة، كثيرة هي أسماء الذين رحلوا كباراً في السن أو صغاراً.

تشطب أسماءهم وأرقام وهواتفهم من مفكرتك الصغيرة، ولكنك لا تستطيع أن تشطبهم من القلب، من ذكريات صداقة أو زمالة أو حتى خصومة، ومع ذلك فإن الضرورة تقتضي أن تكون المفكرة الصغيرة

مكرسة للأحياء دون الأموات، وللقريبين منهم دون البعيدين، ولمن ظل في أفق الاتصال ولم تأخذه الحياة إلى مجاهل بعيدة أو قريبة.

أصدقاء رحلوا إلى المهاجر، آخرون عادوا إلى أرض الوطن، آخرون ظلوا هنا على مرمى رنة هاتف، ولكن الهواتف تظل صامتة ولا أحد يتصل بأحد.

لقاءات كثيرة تمت في المطارات أو المدن البعيدة وتم فيها تبادل أرقام الهواتف على أمل اللقاء، ومع مرور الأيام والسنوات لم تعد الأرقام تعني شيئاً أكثر من شواخص باهتة لا تستدعي أية ذكريات.

هذه السيدة النرويجية اتي يقبع اسمها هنا كنت التقيت بها في مطار موسكو، كنا في انتظار أن نصعد إلى الطائرة المتجهة نحو بيونغ يانغ لحضور مؤتمر هناك، اقتربت مني وهي تحاول اقتلاع جزء من أظفر أحد أصابعها انكسر فجأة وهي ترفع الحقيبة إلى حزام الشحن، أخرجت من جيبي مقص الأظافر فناولتني إصبعها ذي الأظفر المهشم قصصته لها فشكرتني وابتسامة الارتياح والرضا تملأ وجهها، ثم دونت في مفكرتي بخط يدها رقم هاتفها في أوسلو على أمل أن نلتقي يوماً في منزلها هناك أو في أي مؤتمر آخر.

وهذه السيدة البلغارية كنت التقيت بها في بابل، دعتني بحرارة بعد أن دونت رقم هاتفها لعلي أزورها إذا رمتني الطريق عبر صوفيا، كانت دعوتها حميمة، وكأنها تقول لي إنها ترغب في تقديمها لي في مقابل الهدية البسيطة التي قدمتها لها في بغداد، عقداً وأقراطاً من الفضة القديمة.

وهذا الطبيب الذي التقيت به على متن الطائرة المتجهة من ميامي

إلى بورتوريكو، كان رجلاً عصامياً جاء من بولندا، وأسس لنفسه عيادة ومنزلاً، تزوج وأنجب طفلة جميلة كان يحمل صورتها في محفظته، دعاني لزيارته في كنتاكي للاطلاع على التجارب المخبرية التي يجريها في عيادته ودعوته لزيارتي في عمان إذا رمته الأسفار عبر الشرق الأوسط أو إليه.

ثمة أسماء وأرقام عديدة لا تثير في الذاكرة المتعبة أي ظلال، أرقام هواتف في روما وباريس وتونس والدار البيضاء والجزائر وموسكو ولندن وجزر القمر، ولكن الذاكرة لم تعد تعي شيئاً لا الوجوه ولا الأسماء ولا حتى أماكن اللقاء.

هذه المفكرة الصغيرة المحتشدة تبدو وكأنها سجل حياتك، سجل أسفارك، منذ أن بدأت تدوّن فيها الأسماء والأرقام عبر الندوات التي حضرتها أو الأماكن التي دعيت لزيارتها، الأصدقاء والصديقات الذين شاركتهم الحضور، واقتسمت معهم الموائد وليالي السهر حتى الصباح، هذه المفكرة سجل عقود تتوالى وأسماء تتناسخ، ولكنها تحمل أجواءها الخاصة، ومن العسف بها وبالنفس أن تشطب، لأنها أصبحت جزءاً من تاريخك الشخصي.

قلت لنفسي ولماذا أشطب هذه الأسماء؟ لماذا لا تبقى هنا ضمن أوراقي تبعث في الذاكرة وميض أيام مضت أو رماد أحداثٍ عبرت وها هي تطل عليك كليلة تستعصي على الذاكرة، لماذا لا تبقى هنا علّها تكون عوناً لي لو حاولت الكتابة يوماً عن تلك الفترات المتعاقبة من الحياة.

قررت أن أضع القلم جانباً، أن أكف عن شطب الأسماء، لأن أحداً لا

يملك أن يشطب تاريخه الشخصي أو اللحظات الحميمة من حياته مع أصدقاء حميمين غيّبهم الموت أو غيّبهم الحياة أوغيبتهم الذاكرة المتعبة.

قال لي أحد الأصدقاء ذات يوم ونحن نجلس معاً في عزاء صديق ثالث:

- هل تعلم أنني أحس بالسعادة كلما توجهت إلى عزاء ما؟

قلت مندهشاً:

- وكيف ذلك؟

قال:

- لأن تقبلنا العزاء في الآخرين هو المؤشر الوحيد على أننا ما نزال أحياء؟!

وتساءلت بأسى: ترى هل كل الذين يتقبلون العزاء في غيرهم ما يزالون أحياء فعلاً؟

أغلقت المفكرة القديمة، وقررت من فوري شراء أخرى جديدة، أسجل فيها أرقام هواتف الأشخاص الذين ما زلت أعايشهم، وبذلك أنجو من شطب تلك الأسماء التي ضيعها الزمن أو ضيعتها الحياة أو ضاعت في دهاليز الذاكرة.

عمان ـ كانون الأول 1998

البطيخ

لا أدري كيف أصبحت شغوفاً بالبطيخ إلى هذا الحد؟ هل لأن البطيخة كانت تعني، في زمن الطفولة المتقفة بالفقر والحرمان، وجبة كاملة إذا توفر معها الخبز، فما بالك إذا توفر الجبن كذلك.

كنا ننتظر وجبة البطيخ أكثر مما ننتظر الآن إحدى الوجبات الدسمة، كانوا يقولون أن البطيخة ذبيحة الفقراء، ولعل هذا هو ما جعلهم يشبهون عملية تقطيع البطيخة بعملية "الذبح"!!

في الأسر الفقيرة غالباً ما تكون الولائم خبزاً وشاياً أو خبزاً وعنباً أو خبزاً وبطيخاً، كانوا يجعلون من البطيخة أهلّة "جمع هلال" وفي العائلات الكثيرة العدد لم يكن يتجاوز نصيب الفرد الواحد هلالاً واحداً، كنا نأكل اللب حتى القشرة الخارجية الخضراء التي كانوا يستعملونها في العادة طعاماً للدواب، في زمان الفقر والمسغبة كان ثمة أحجية عن البطيخ يختصرونها بهذه العبارة "تحلّى وتسلّى" "من التحلية والتسلية" وأطعم حمارك، اي أن كل ما في البطيخة مفيد من اللب والبذور حتى القشرة الخارجية!

وإذا كان حجم البطيخة صغيراً وعدد أفراد الأسرة كبيراً، فإن السباق لالتهامها يبدأ من لحظة فتحها والشاطر من يسبق إلى شرحة أخرى إضافية.

حين كان والدي يجلب لنا البطيخة كنا نرقص طرباً، كان يضع

البطيخة على بلاط المطبخ لكي تبرد قليلاً، لكن كيف لنـــا أن ننتظرهـــا حتى تبرد، كان أخي الأصغر يبادر إلى إحضار الطبق الفسيح، أما الأخ الثاني فيسرع في إحضار سكينة المطبخ ذات النصل الطويــل، يقــول والدي انتظروا حتى تبرد البطيخة، وترد والـــدتي أن البطيخـــة تبــرد بطريقة اسرع إذا تم فتحها وتقطيعها، وحـــين نتحلـــق حـــول الوليمـــة الطازجة يبدأ السباق المحموم للحصول على شرحة أخرى إضافية. زعم أخي الأكبر أن البطيخة تصرخ حين تخترق السكين أحـــشاءَها، تمامـــاً مثلما الخراف عند ذبحها، كلنا نسمع عويل الخروف وتوسلاته، ولكـــن أحداً لا يسمع صراخ البطيخة وانينها المفعم بالاستسلام.

حتى اللحظة وبعد سنوات طويلة من الجوع والشبع والجهل والعلـــم، لم أعثر على سبب واحد يفسّر لي هذا النهم الوحشي تجاه البطيخ وهـــذا التعاطف غير المعلن معه.

وما زلت أتساءل عن السر الغريب الذي تحمله هـــذه الفاكهـــة ذات الساق المنبطحة دائماً، الزاحفة على وجه الأرض، والمثقلـــة بثمارهـــا الضخمة الملساء؟

هل لأن هذه الشجرة الممعنة في الالتصاق بالأرض تشبهنا إلى حـــد كبير؟ لقد اعتاد ساقها على الانبطاح والزحف، وإذا حاولـــت أن ترفـــع رأسها ذات حين فإن ثقل ثمارها يمنعها من ذلك، ويجبرها على مواصلة سيرتها الانبطاحية، تماماً مثلما تجبرنا متطلبات الحياة على الانبطاح، ثم المزيد من الانبطاح كلما زادت المتطلبات وتكاثر العيال وتفـــاقم معهـــم العوز وضيق ذات اليد.

كنت أعتقد أن شغفي بالبطيخ يعود لكونه الفاكهة الوحيدة التي تـــشبه

في جوانب كثيرة منها بعض جوانب الحياة، فالزوجة "على سبيل المثال" بطيخة لا يمكن معرفة اعماقها إلا بعد فوات الأوان، تظل لغزاً: هل هي حمراء أم قرعاء أم بين بين، هل هي حلوة أم تافهة أم مالحة؟ وحتى يتبين لك ذلك يكون الوقت قد فات على إمكانية الخلاص من هذا القدر اللعين، ومثل ذلك ما تقوله الزوجة عن زوجها، والأم عن أبنائها وبناتها، والتاجر عن صفقاته، وحتى الزارع حين يدفن بذوره في الأرض انتظاراً لموسم قد يكون بخيلاً وماحلاً. وكان البعض يتندر أحياناً على حظه السيئ قائلاً: إن حظي أسود في كل شيء ما عدا البطيخ فحظي فيه أبيض!!

كنا في الأيام الماضية نقبل تحدي باعة البطيخ حين ينادون "على السكين يا بطيخ" ونادراً ما كان الباعة يخسرون الرهان، فخبرتهم الطويلة، مع هذه الكرة الملساء تجعلهم يعرفون مضمونها من رنينها، حين يضربونها بباطن الكف أو يضغطون عليها قريباً من الأذن ليسمعوا فرقعتها الداخلية، ويعرفوا حالتها من النضج أو الفجاجة، أحياناً كانوا يخطئون ويخسرون الرهان، ولكن البطيخة التي يرفضها الزبون الشاطر يأكلها عيال بائع البطيخ!!

ذات يوم قال لي والدي: ما رأيك في أن تزرع بعض بذور البطيخ في الساحة الخلاء القريبة من منزلنا القروي، لم تكن الأسرة تفطن لذلك، فالأب مشغول في المدينة، ونحن مشغولون بالدراسة، والأرض الخلاء تحتاج إلى من يعزقها مرة أو مرتين لتكون صالحة لاستقبال بذرة البطيخ.

قلت لوالدي: نِعْمَ الرأي، وقررنا أن نتعاون جميعاً على حراثة

الأرضة بالمعول والرفش، فلم تكن مساحتها الضئيلة تستدعي أكثر من الفأس نتناوب عليها إلى أن تنتهي، وننظفها، من الأعشاب والأشواك، وحين جاء موسم دفن البذور في أواخر الربيع كانت الأرض قد جهزت تماماً، وفعلنا ذلك، ألقينا بذور البطيخ والكوسا والخيار والطماطم، وجلسنا ننتظر موسماً خصباً عامراً بالبطيخ والقثاء، وبعد أيام بدأنا نتفقد البذور، ورأينا أوراقها الخضراء تبزغ أولاً، ثم يبزغ الساق وتبدأ النبتة بالزحف في أي اتجاه، ولكن معظمها كان يزحف ويمتد باتجاه مشرق الشمس، ولا ندري إن كان بعضها يحاول الالتفات إلى المغرب حين تتوارى الشمس وراء الجبال.

كل يوم كنا نتفقد الثمار، بدأنا نقطف الخيار والكوسا والطماطم، ولكن ثمار البطيخ لم تكن تكبر بالسرعة التي نريدها، كيف نستعجل هذه الكرات الخضراء الصغيرة لتنتفخ وتمتلىء باللب الأحمر الحلو؟

كنا نعدّها، ونراقب نموها وانتفاخها، ورغم أن بعضها بلغ من الانتفاخ حداً جعلنا نفكر بقطفه، إلا أن والدي كان ينهانا عن ذلك بحجة أن ثمار البطيخ لم تنضج بعد، ومن الخسارة الفادحة أن نفتحها فإذا هي قرعاء لا تصلح إلا للدواب، ولم يكن بد من احترام رأي الوالد فهو الأكثر خبرة وحكمة ومعرفة بموعد قطف البطيخ.

تلك الليلة كان الظلام شديداً والقمر في المحاق، كنا قد عقدنا العزم على قطف البطيخ هذا الصباح، فقد طال الانتظار ولابد من تذوق حلاوة ثمار زرعناها بأيدينا، وشق علينا أن ينقضي الصيف أو يكاد، ونحن ننتظر نضوج البطيخ.

وفي الصباح كانت المفاجأة التي تشبه الفاجعة، لقد تسلل بعضهم إلى المقثأة، وقطع معظم ثمار البطيخ، الناضج منها على وجه الخصوص، أصابنا حزن شديد وندم أشد، فالثمار التي طالما رعيناها وراقبنا نموها ضاعت في ليلة مظلمة، ولكن أكثر ما اثار حزننا أننا حرمنا من أكل البطيخ طوال الصيف انتظاراً لثمار بطيخنا، ثم عقابنا لأنفسنا لأننا غفلنا عن اللصوص في لحظة جني الثمار.

عمان ــ آب 1996

ليلة القبض على إسماعيل

الليلة لم يكن مقدراً له أن ينام في وقت نومه المحدد، كانت ثمة مهمات ملحة توجب عليه إنجازها، وحين ألقى برأسه على الوسادة حيث فراشه في حديقة البيت، رأى الانشوطة المعلقة تتأرجح وتتفسخ حبالها كخيوط العنكبوت، وتلاحقت أنفاسه جافة متيبسة.. استقيظ فجأة.. كانت اضلاعه مثل كومة من حجارة الصوان.. إنهم يحيطون به من جميع الجهات.. صاح به أحدهم وهو يلكزه بالحذاء:

- أنت إسماعيل؟

كانت بقايا الكابوس ما تزال جاثمة على مسارب يقظته، فكرة الهروب التي طالما اعتزمها في مثل هذا الموقف ضاعت من ذهنه كما تضيع قبضة الدخان في مهب الريح.. لم يكن ثمة أمل ولو ضئيل بالإفلات.

رد بصوت متيبس:

- لا

قال أحدهم:

- لا تكذب فنحن نعرفك!

وعرف إسماعيل صاحب الصوت، إنه "شلومو" ضابط المخابرات الذي سبق أن التقى به ذات يوم في بركس "6" بالمسكوبية، انتهى الآن كل شيء.. والأحلام التي كانت تراوده بإمكانية التخفي والهروب لم يعد

لها أي متسع، وإذا كان قد خطر له وهو ما يزال بين اليقظة والنــوم أن يقفز عبر أسوار الحديقة مفلتاً من بين أيديهم فقد اضحى هــذا الخــاطر مجرد حلم قديم، قال لهم:

- ولكنني ما أزال بين النوم واليقظة.

- هكذا إذن، لقد جاءوا دفعة واحدة ودون سابق انــذار، وأكمــل مخاطباً نفسه:

كنت تزمع أن تختفي عند أول إشارة تبدو لاعتقالك من جديد، ولكنهم جاءوا كقطيع من الذئاب الجائعة، سحبوه من فراشه وقالوا له:

- هيا ارتد ملابسك نريد أن نستمتع بصحبتك هذه الليلة، وبــدأوا بتفتيش ملابسه حتى قبل أن يتاح له ارتداؤها، قال لهم:

- فيم تستعجلون؟ هناك سيتاح لكم أن تفتشوا بدقة وكما تشاءون!

- إخرس!

قالها الواقف عند مدخل البيت وهو يقرأ الأوراق التي عثر عليها في جيوب سترته على ضوء بطارية يدوية.

كان شعور دخيل ومرعب قد بدأ يتسلل إلى نفسه بأن هذه هي المرة الأخيرة التي يرى فيها زوجته وبيته، بحثت عيناه عنهــا عبــر أكــوام الظلمة والارتباك، كان يحاول جاهداً أن يحمل في ذاكرته المــضطربة تضاريس وجهها المرتعب، ناولته كمية من الدواء كان يحتفظ بها عــادة كأحتياطي لمثل هذه المفاجآت! تلمس بعينيه رأسها وكتفيها، كان يريد أن يقول لها أي شيء، ولكنه اكتفى بنظرة فارغة بلهاء، عند مدخل البيــت وقفت تودعه وهي تتطلع إلى قطيع الذئاب من حوله حزينــة مروعــة،

وبطنها ينتفخ ثقيلاً ومرتعشاً، كأنما كانت توشك على الدخول في المخاض، جابت عيناه أنحاء الحديقة والبيت، وحين استقرت على زوجته ارتدّتْ زائغة مبعثرة. قالت له:

- اهتم بنفسك فقد تطول غيبتك.

وأردفت:

- إن زوجي مريض وأنتم تتحملون المسؤولية.

قال شلومو بضحكة شامتة:

- لا تقلقي، سيعود بعد يومين على الأكثر!

لم يضعوا في يديه الكلبشات، اقتادوه عبر الزقاق إلى الشارع العام يحيط به أربعة من كل جانب، ألقى خلفه نظرة لم يكن واثقاً تماماً من أنها ستكون الأخيرة، وتجلّد حتى لا تسقط على خديه تلك الدمعة اللعينة التي كانت تحوم في عينيه.

عند مدخل الزقاق على الشارع العام وقفت سيارتان من نوع الجيب المغلق المخصص لاستعمال المخابرات، ذلك النوع من الجيبات المزود بأجهزة المخابرة اللاسلكية، ثارت ضجتهم وهم يدخلونه إلى السيارة الأولى واشتغلت أجهزة اللاسلكي، لم يكن يفهم بالضبط ما يقولون ولكن اللهجة المهووسة التي كانت تتجاوب كالعواء عبر الأزقة الهاجعة كانت تقول إنهم قد عثروا عليه وجاءوا به.

في الطريق إلى المسكوبية[1] سأل عن الوقت، فقال له شلومو الذي كان متكئاً بارتياح إلى جانب السائق:

---

[1] المسكوبية: السجن الرئيس في مدينة القدس وفيه قسم خاص للتحقيق مع المعتقلين.

- وماذا يهم من الوقت الآن؟ إذا كنت مصراً فإنها الواحدة والنصف.

حقيقة ماذا يبهمه من الوقت الآن؟ في المعتقلات لا يغدو هناك فرق بين الواحدة والعاشرة أو بين الأحد والخميس!

أشعل سيجارة ومن كوة الجيب الخلفية حيث كان ينحشر على الدرج الخشبي الرفاص راح يتطلع إلى شوارع القدس الكئيبة شبه المظلمة، وقد بدت لعينيه وكأنها تستقبل خريفاً عاصفاً بالبرودة والجفاف.

في غرفة التحقيق القريبة من السجن أوقفوه برهة وراحوا يتحدثون فيما بينهم، كان يحس بمرارة وجفاف غريب في فمه، لم يكن خائفاً ولكنها مرارة التدخين بعد منتصف الليل وساعات النوم القليلة. حين هم بأن يطلب ماءً أشار إليه أحدهم قائلاً:

- اتبعني

وتساءل إلى أين؟ هل ياخذونني إلى غرفة التعذيب بمثل هذه السرعة؟ هكذا دونما تحقيق! لم يكن ذلك غريباً بالنسبة له، فحين أخذوه في المرة السابقة لم ينتظر كبير المحققين حتى يصل به إلى غرفة التعذيب، كان يضربه على مؤخرة رأسه وهو يصرخ:

- لسوف أحطم رأسك إذا لم تعترف!

قال له الرجل وهما يغادران غرفة التحقيق:

- ليس لدينا الآن متسع للتحقيق معك، سنتركك لترتاح هذه الليلة.

في الطريق إلى الباب الرئيسي للسجن لفحته نسمات الصباح الباردة، تنفس بعمق وكأنه يريد أن يختزن الهواء الطازج قبل الدخول إلى الدهاليز المعتمة، "سيتركونني الليلة لارتاح، ما أعظمها من راحة، تتشبه

كثيراً راحة المحكوم عليه بالإعدام عندما يتاح له أن يلبي بعض رغباته قبل الصعود إلى خشبة المشنقة".

بضع خطوات وانفتح الباب الخارجي للسجن، إنه الباب الذي خرج منه قبل ثلاثة أشهر، القفص الحديدي ووراءه يدعونه "النظارة" وفيها انتظر دَوْرهُ في المرة الأولى ليتسلم فرشة القش المهترئة والبطانيات الأشبه بالمماسح، عندما أدخلوه هذا السجن للمرة الأولى جاءوا به من الباب الخلفي، ولكن الطرق كلها تقود إلى روما، ومن أي باب تدخل السجن فإن المسألة تظل واحدة "إنه السجن!"

قال له الضابط المناوب:

- هويتك وأغراضك.

وسلم أغراضه، كان يريد أن يستبقي علبة الثقاب إلا أنهم صادروها، وضع الضابط أغراضه وهويته في حقيبة جلدية صغيرة بعد أن قام بتعبئة النموذج المخصص لكل سجين.

قال الضابط مخاطباً رجل المخابرات:

بحيدر لوطوف؟[1]

وأشار رجل المخابرات موافقاً

عبر باحة السجن الداخلية قاده الشرطي المناوب إلى أقصى غرفة في الركن الشرقي، إلى الزنزانة رقم "8" أكثر زنانين السجن بؤساً وقذارة وازدحاماً، دفعه الشرطي داخلها وصفق وراءه القضبان.

القدس ـ حزيران 1969

---

[1] جملة باللغة العبرية تعني: ضعه في غرفة رديئة.

يحدث أحياناً

ذات يوم قال الرجل البدين للحارس وقد بدا شنب الأخير لامعاً ومعقوفاً بشكل يبعث على الاستفزاز:

يجب عليك أن تحلق هذا الشنب!

ولم تكن مجرد صدفة أن يصبح شنب الحارس مصدر إزعاج للرجل البدين، فقد خيل إليه وهو يسترق النظر لشنب الحارس أن كل شعرة في العالم قد جمعت لتجعل هذا الشنب كثاً ملتوياً كذيل حصان، وكان الحارس بدوره يتعمد في الآونة الأخيرة أن يجمع في شنبه كل معالم رجولته.

كان الرجل البدين يستلقي فوق كرسي من تلك الكراسي التي يستعملها الأغنياء عادة في الاسترخاء قرب برك السباحة في حدائق بيوتهم، وكانت قبعته البيضاء المخططة تغطي كل وجهه، رد عليه الحارس بلهجة خالية من التشنج:

- ولكن شنبي يا سيدي هو ملكي الخاص! ومن حقي أن أطلقه كما أريد أو أصنع منه ما أشاء.

والحقيقة أن الغيظ الذي كان يثيره شنب الحارس في الرجل البدين، لم يعد شيئاً يذكر بالقياس إلى ما أثارته هذه العبارة الخالية من أصول اللياقة والتأدب التي يجدر برجل متشرد من أمثال هذا الحارس أن يتحلى بها أمام سيده العظيم.

قال الرجل البدين وهو يسند ظهره قليلاً ويزيح القبعة المخططة عن عينيه ويتلمس بإحدى يديه استدارة كرشة العارية:

- لم يعد بي حاجة إليك فقد صرت تملؤني ضيقاً وتحيل حيـاتي جحيماً! يجب أن تغادر هذا المنزل على الفور.

قال الحارس:

- ليس من حقك أن تطلب مني ذلك، فلي في هذا البيت مثلما لـك فيه وربما أكثر، وإذا كانت الأقدار السيئة قد جعلت منك سيداً، فإن الأقدار نفسها قد تجعل مني سيداً ذات يوم!!

لم يكن أحد من أهل الحي يعرف على وجه اليقين ما هية العلاقة التي كانت وما تزال تربط بين هذين الرجلين، وقد تندر بعضهم علـى هـذه العلاقة قائلين بأنها نوع من الزواج الكاثوليكي، وذهب آخرون إلـى أن الذي يربط بينهما هو مجرد علاقة عبد بسيده، وزعم البعض الآخـر أن الذي بينهما هو أشبه ما يكون باستيلاء الإقطاعي علـى أقنـان الأرض التي يملكها.

إلا أن بعض الراسخين في العلم وفقهاء الأنساب مـن أهـل الحـي المجاور قالوا إن والد هذا الحارس كان فيما مضى شريكاً للرجل البدين في أطيانه. وبعد وفاته، داخل الرجل البدين جشع عظيم فاستولى علـى أملاك الحارس وزعم أنه مجرد أجير لديه.

وقد روت عجوز شمطاء تسكن في الجانب الغربي مـن الحـي أن الحارس كان طفلاً صغيراً حين قتل والده ذات يـوم ونهبـت أملاكـه وأمواله، وأن الرجل البدين استطاع بطريقة ماكرة، لا أحد يعلم حقيقتها

حتى الآن، أن يقنع أهل الحي جميعاً بأنه الوصي على الغلام واملاكه، ومن يومها ظل الولد هكذا عبداً على مائدة سيده.

ما قاله الرجل العجوز:

روى لي عجوز كان من عادته أن يجلس على قارعة الطريق قرب عين الماء الوحيدة في الحي أن الرجل البدين ينتمي إلى قرية مجاورة، وأنه حين جاء إلى هذه القرية كان الحارس طفلاً صغيراً هربت به والدته من مذبحة كبيرة وقعت للعائلة من جراء خلاف نشب على الأرض، وقد توفيت والدته منذ أكثر من عشرين عاماً، ولكن الرجل العجوز استدرك وهو يلهث متكئاً على عصاه بكلام كان يردده دائماً:

- ياما بجري في الدنيا وبصير![1]

وأضاف:

- يا بني مالك ولهذه الأمور، دعك من التدخل فيما لا يعنيك، خذها نصيحة من رجل مجرب مثلي، إذ جن جماعتك فإن عقلك لا ينفعك!!

واختتم العجوز:

- ياما بجرى في الدنيا وبصير!!

ثم ألقى راسه من جديد على عصاه التي كان يغرسها في الأرض بين رجليه، وظل يقعي على قارعة الطريق.

---

[1] قول عامي معناه: كثيرة هي الأشياء التي تحدث في هذه الدنيا!

ما قاله صاحب الدكان ذو الرائحة الكريهة:

ثمة رجل آخر طاعن في السن كان صبية الحي جميعاً يعرفونه ويتندرون على الرائحة المنتنة التي تنبعث دائماً من ثيابه، إنه صاحب الدكانة البدين ذو العينين الجاحظتين والكرش المنتفخ دائماً، كان الأولاد يقولون إن رائحته أشبه ما تكون برائحة حلس الحمار، وحين اقتربت منه شعرت بأنّ رائحة عفونة حقيقية تداهمني من كل الأنحاء قلت له:

- يا أبا الحاج ما الذي تعرفه عن قصة الحارس والرجل البدين؟

تحرك أبو الحاج فوق كرسي الخشب المهترئ ذي المساند الكالحة، وانبعثت منه رائحة حادة الحموضة وقال:

- اسمع يا ولد، هل روت لك جدتك قصة إبريق الزيت.

- نعم يا سيدي.

- إنها قصة إبريق الزيت!

امتنعت عن الضحك، ليس احتراماً أو إجلالاً للحكمة العظيمة التي ظن أبو الحاج أنه تفوه بها، ولكن طمعاً في الحصول على شيء ذي جدوى، قلت له:

- دعني من قصة إبريق الزيت، وقل لي بربك، ما دام الرجل البدين غريباً عن هذه القرية، وما دمت واحداً من اهلها المعمرين القدامى فما الذي يمنعك إذن من الإفصاح؟

تأملني الرجل طولاً وعرضاً، من أسفل إلى أعلى ومن أعلى إلى أسفل، وكأنني بضاعة يقوم بوزنها، أو سلعة يقيسها قبل أن يقدم على شرائها، ثم قال بلهجة بدت لي رقيقة وصادقة رغم ما شابها من افتعال:

- اسمع يا ولد، نصيحتي لك، إبعدْ.عن الشر وغنّي له!

قلت لنفسي وأنا أغادر الرجل:

- حين يخسر الإنسان الشجاعة يخسر كل شيء حتى نفسه!!

ما قاله الحارس للرجل البدين:

- كيف تطلب مني أن أغادر هذا المنزل وأنا الذي زرعت حوله كل هذه الأشجار؟ هل سمعت يوماً عن شجر غادر أرضه!

ازداد حنق الرجل البدين ذي القبعة البيضاء المخططة وأدرك لأول مرة أن الحارس أصبح رجلاً يتحدى، رجلاً يملك المنطق والردود الجاهزة والعضلات البارزة، ويملك حتى المبادرة بالهجوم، ولكنه مع ذلك لم يشأ أن يستسلم لمنطق الحارس، أو أن يمضي معه محاججة تجعل منه نداً، قال:

- كفى، لست بحاجة إلى سماع المزيد من هذا الهراء، أمامك الآن أعمال عليك إنجازها أما شنبك العزيز فسيكون لي معك بشأنه حديث آخر.

ما قاله الراوي:

حين استلقى الحارس على فراشه هذه الليلة لم يوصد باب غرفته، لم يكن قد تعود على ذلك من قبل، تلمس شنبه وعادت إلى ذهنه كل أحداث يومه، حواره مع الرجل البدين واللهجة الصارمة التي طالبه فيها بأن يحلق شنبه، وتساءل: ما الذي يخيفه من شنبي؟ وهل هوجاد حقاً فيما طلب؟ وعلى فرض أنني طاوعته وحلقت شنبي فهل يكف عني؟

ولكن المسألة ليست مسألة شنب كث معقوف، إنها مسألة كرامة شخصية ومسألة وجود برمته، ومن يدري فقد يطلب مني غداً أن أخلع عيني، أو اقطع رجلي، أو أغادر هذه البلاد إلى غير رجعة! حلق الشنب هو البداية، ومن يتنازل عن كرامته مرة فقد يتنازل عنها إلى الأبد.

نهض الحارس من فراشه كالملسوع همّ بأن يحكم إغلاق الباب، ولكنه لم يفعل وضحك من نفسه ومن الخوف المفاجئ الذي اجتاح كيانه وقبل أن يغفو راح يطمئن على أن شنبه الكث العزيز ما يزال جاثماً في مكانه!!

عشية اليوم التالي كان أهل القرية يتحدثون بنوع من الهمس المكتوم عن رأس رجل وجدت مقطوعة وملقاة على قارعة الطريق في المكان الذي اعتاد الرجل العجوز أن يقعي فيه وهو يردد: ياما بجرى في الدنيا وبصير.

كانت الرأس لرجل يشبه كثيراً رأس ذلك الرجل البدين ذي القبعة البيضاء المخططة، أما الحارس صاحب الشنب الكث فإن أحداً لم يشاهده بعد ذلك اليوم. بعض أهل الحي قال أنه قد غادر القرية، وبعضهم زعم أن الرجل البدين قد تخلص منه، ولكن أحداً منهم لم يجزم بشيء، لأن الرجل البدين اختفى هو الآخر ولم يعثر أحد على اثر له منذ تلك اللحظة التي اختفى فيها الحارس ذو الشنب.

القدس ــ تموز 1964

الأفعى

– 1 –

تثاءبت الأفعى وسحبت ذيلها المرتعش إلى داخل الجحر وقالت لنفسها (هذا الجبل اللعين لم يعد فيه نفع، منذ أن هجرني زوجي وأنا ابتلع الوحدة كالفأر الأجرب، وهذه العصافير الخبيثة قد بدأت تغادر الجبل إلى كروم القرية ومقاثيها، حتى السحالي راحت هي الأخرى..) وتنهدت في فحيح لافح وأسندت رأسها إلى ثنيات جسمها وفي زوايا الجحر لمعت عيناها كجمرتين.

كانت أفعى كبيرة ذات أجراس، طوفت هي وزوجها بلاداً كثيرة، وانتهى بها المطاف إلى جبل كئيب يطل على بحر أزرق تنام فيه الشمس عند المساء، وأقاما معاً ينهبان أعشاش العصافير ويفتكان بالجرذان الضالة، حتى كان يوم هجرها فيه زوجها. ومن ذلك اليوم وهي تعانق وحدتها، وينبح في أعماقها حنين النسل، وعاود عينيها بريق مخيف وتلمظت وانطلق لسانها يلحس أطراف الحجر، (لا أدري ما الذي يؤرقني هذه الليلة! ستكون هذه آخر ليلة أبيتها هنا!! وما يدريني أنني اعثر على زوجي؟ وشعرت بالشهوة تنزلق في أعماقها كأنها تعوم في بحر ساخن له موجة واحدة، ما أجمل أن تغادر هذا الجبل، لقد مضى عليها زمن طويل وهي قعيدة هذا العراء المجدب لا تملك أن تقرر شيئاً. كانت تشعر بكآبة هرمة عنيدة تستيقظ في أعماقها كلما أباحت لنفسها أن

تترك الجبل، ولكنها لن تتردد هذه المرة وقالت بحــزم: هــذا المنــزل الموحش البخيل، إنه لئيم كالثعلب حتى السحالي هجرتــه، لا بــد مــن الذهاب إلى إحدى مقاثي القرية حيث أسراب العصافير، وتصورت نفسها بيتاً من القثاء يهجع إليه عصفور جائع في غفلة الحارس، إنها لن تتحرك حتى يبدأ العصفور بالنقر وعندها ستهجم عليه، وسيكون قد انزلق إلــى أحشائها قبل أن يتمكن من الزعيق، وتثاءبت بتلذذ وانبساط، حتى حارس المقثاة ستنهشه لو فكر في أن يمد يده إليها؛ وفكرت: ولكــن مــاذا لــو اكتشفوا أمري وتعاونوا على قتلي؟ عندها ستحل عليهم اللعنة، سآوي إلى مساكنهم الهرمة الكثيرة الشقوق وسأفتك بأطفالهم. وارتاحت إلــى هــذه النتجية. وضاعف من ارتياحها أنها ربما تعثر على زوجهــا يتلــصَّص هناك أوعلى الأقل ثمة أعشاش كثيرة للعصافير في أسطح البيوت وفــي شقوق جدرانها وفي جيــوب المــداخل. وبــدأ الــدفء يتــسلل إلــى عروقهاوحين أغفت رأت فيما يرى النائم مقثاة فسيحة تحمل ثماراً مــن العصافير الصغيرة بينما هي آخذة في التهام العصافير دون أن تشبع.

— 2 —

أفاق إسماعيل وفرك عينيه وتثاءب بصوت مسموع متعمداً أن تسمعه أمه التي كانت تغلي الشاي في الركن المقابل من الغرفة، وقال:

- أريد أن تحضري لي سلم الجيران يا أمي.

وتحسس الخيط اللابد في جيبه، وهمس: بعد قليل ســيكون الخــيط عنقوداً من العصافير، سأربط العصافير جميعاً ثم أطلقها مــرة واحــدة، وستطير، وسأطير معها وستصرخ أمي تناديني.. وقالت أمه:

- اغسل وجهك وتعال اشرب الشاي.
- لا أريد شاياً، أريد سلم الجيران.
- ولماذا سلم الجيران؟
- هل تعدينني باحضاره إذا قلت لك؟
- أعدك
- أنا ونزار نريد أن نسطو على العصافير.
- أية عصافير؟
- هذه التي تزعق في واجهة بيتنا الغربية بين المداميك.
- حرام عليكم انتم أولاد طيبون هل تحبون أن يخطفكم أحد من بيوتكم؟

وانكمش إسماعيل وزحفت الدماء في عروقه، وأحس بصراخ حزين يرفرف في صدره، وتعلقت عيناه بالسقف ثم لبدت في حضن امه: لا لن يستطيع أحد أن يخطفه، كان شحاذ أعور عجوز يحمل عصا طويلة حدباء ومخلاة قذرة كله شعر كشعر الفرس، يقف بالباب عندما ركض إسماعيل واندس في حضن أمه، قالت له أمه: لا تخف إنه شحاذ يجب الأولاد الطيبين، أما الاشرار فيخطفهم ويدسهم في مخلاته، لا لن يستطيع أحد أن يخطفه، إنه ليس شريراً:

- هل أنا شرير يا أمي؟
- إنك ولد طيب.
- ولكن الأولاد الطيبين يمسكون العصافير أيضاً؟ أرجوك يا أمي نريد فقط أن نلعب بها وبعد ذلك سنطلقها.

- هل تعدني؟
- أعدك.
- طيب أشرب الشاي وسأحضر لك السلم ولكن حذار أن تسقط.
- لا تخافي يا امي لن اسقط.
- أسرع يا نزار لقد كبرت العصافير وأخشى أن تطير.
- امسك السلم جيداً يا إسماعيل فأنا خائف.
- لا تخف، وإلا أنزل أنت وسأصعد أنا!
- لا، فقط أمسك السلم جيداً.
- حسناً.. ما ترى؟
- ....
- كم عصفوراً ترى؟ لم أسمع هذا الصباح زعيقها، أخشى أنها طارت.
- لا أستطيع رؤية شيء.. سأدس يدي.

وعند أسفل السلم كان نزار يتكوم دون ما حركة أو كلمة، كانت عيناه كرتين من الزجاج البارد وإصبع يده اليمنى أنبوبة زرقاء تقطر دماً أسود، ماتت الفرحة المهووسة التي كانت تطوف في عيني إسماعيل، وتجمدت على شفتيه الابتسامة، وانحنى يتلمس نزاراً، وامتدت يده بحركة ذاهلة تتحسس رأسه ويديه، وسرعان ما هوت كتلة طرية لزجة على ظهره وتَلَوَّتْ الأفعى على عنقه وتجمدت أطرافه وبنهشة واحدة هوى فوق نزار يعانقه العناق الأخير.

ـ 3 ـ

- حاج، حاج عبد الوارث، الأفـاعي، أكلتنـا الأفـاعي، ثمانيـة واربعون من البلد ماتوا، أكلتهم الأفاعي، إلحقنا يا حـاج عبـد الوارث!!

تتحنح الحاج عبد الوارث، وتسللت يده كأفعى عجـوز إلـى حبـات السبحة، ودارت عينا غراب في محجريه تصافح موجة العيون المتطلعة إلى سدته العتيدة المتربعة في ركن الجامع كمرفأ عتيـق مـات جميـع بحارته، وغادرت يده حبات السبحة، وارتفعت إلـى لحيتـه البيـضاء المتسخة، ولم يلبث شعر وجهه أن انفرج عن أسنان صفراء معتمة.

- وماذا تظنون أني أفعل بالأفاعي؟ هل أنا حاو؟ لست إلا حاجـاً زار بلاد الحجاز، وطاف حول حجر أسود تشرق فيه الشمس. لو كنت ساحراً لما كان محمود...

واضمحلت قداسته وهيبته في عيون القطيع وسرت بيـنهم همهمـة كئيبة تميل إلى الخشوع. رحمة الله عليك يا محمود، كل واحد منهم كان يترحم على صاحبه في أسم محمود أبن الحاج عبد الوارث، واسـتطرد الحاج في صوت رمادي بدا بعيداً وكأنه صوت محمـود ينـتفض بـين الأكفان ويتسلق برودة القبر.

- كنت أجلس على رأس التلم ومحمود يحرث المقثاة عندما أقبـل ذلك الحاوي اللعين يدلل أفاعيه في مقثاتي، قلت لك: لا تكسب أفاعيك في أرضي يا رجال، قال: لا تخش بأساً يا حـاج عبـد الوارث، ستنالك بركتها، وستكون ملك الأفاعي، وراح اللعـين

يكبها من جرابه كعنقود من الحبال السوداء، وتسللت إحـــداها، إلى باطن التلم، وتنهد الحاج بتوجّع، تعلقت قطرتـــان كبيرتـــان على زوايا عينية المربعتين، وامتدت بعـــض الأيـــدي تـــتلمس العون، وما أن رجع محمود مع التلم حتى كان يتكـــون جانـــب الفدان، وغالب الحاج عبد الوارث نفسه ليتلفَّظ بعبارته الأخيرة، فقد كان الحزن يثقل على صدره كحجر طاحون، بينمـــا اتخـــذ كابوس الصمت الأبله الذي جثم على كاهل القطيع شكلاً آخـــر لذلك الحزن الثقيل.

في ذلك المساء الرمادي تجمع الناس بعد أن خذلهم الحاج عبد الـــوارث ومن قبله ذلك الحاوي الصفيق ذو الوجنات الحمراء المسلوخة والـــشعر المحروق، أما جرابه الرصاصي المعتم فقد كان يمور دائمـــاً بالافـــاعي التي قد كان يدعي أنه أحضرها من بلاد الهنود، لقد خذلهم وادعى أنـــه صديق للأفاعي لا يحق له أن يؤذيها، ولكن ما تـــراهم يفعلـــون؟ منـــذ داهمت الأفعى عائلة مرزوق ليلاً وتلوت على ساقي زوجته والنـــاس لا ينامون داخل بيوتهم، ومنذ ذلك الحين صارت الطرقات مصاطب يسمر فوقها الرجال، ويتحدثون عن الأفاعي. كانت النساء في ساحات البيوت أكواماً سوداء تثرثر بهلع وبصوت خفيض، وتحتضن القطط وتتفقد اقنان الدجاج. أما أطفال القرية فقد كفوا عن ألعابهم، وصاروا يتحلقون حـــول مجالس الرجال، وكان بعضهم يتسلل إلى حلقات النساء ويقبع إلى جوار أمه تلهث في أعماقه شهوة الرجوع إلى جسدها.

كان الجميع أكواماً من الخوف تتدحرج في الطرقات، بعضهم يطوف حول البيوت في ذلك المساء الرمادي والبعض الآخر ينأى مع الطريـــق

بعيداً عن القرية، وحينما أطل الحاج عبد الوارث من كوة الجامع عوى ذئب في أعماق الحاوي القابع على شرفة أحد البيوت، وسرعان ما انفض الجميع وانقطعت ثرثرة النساء وحتى نباح الكلاب، كان الخوف ثعباناً له ألف فم يدب في كل بيت.

وما أن سال نور القمر الرصاصي في الطرقات المتعبة من ذلك المساء الرمادي، حتى كانت بومة تولول في الجبل الذي يطل على بحر ازرق تنام فيه الشمس، وكان أبن آوى يغني لحناً غريباً في إحدى المقاثي الخربة المجاورة، عندها غادر الحاوي شرفة البيت حاملاً جرابه الخاوي إلى البحر، بينما أظلت رويداً رويداً عينا الحاج عبد الوارث بعد أن جثمت في حنجرته السوداء تنهيدة باردة.

القدس ــ كانون الثاني 1963

ملحق نقدي

الواقعي والغرائبي في قصص خليل السواحري

د. إبراهيم خليل[1]

تتألَّف مجموعة خليل السَّواحري الذي كتب من قبل عدداً غير قليل من المجموعات القصصية منها: مقهى الباشورة. وزائر المساء من خمس عشرة قصة قصيرة يعود تاريخ كتابة بعضها إلى سنة 1964، وإحداها فازت بجائزة مجلة الأفق الجديد المقدسية ونشرت في عدد آذار 1964. وبعض هذه القصص كتب حديثاً ولا سيما قصة "الساحة" وقصة "المدينة" وقصة "الوليمة" وهي تعود إلى سنوات قليلة مضت، مما يعني أن التفاوت بين المستوى الفني للقصص شيء متوقع[2]..

والملاحظة البارزة على القصص الأولى في المجموعة أنها أقرب إلى القصص الغرائبي منها إلى أي شيء آخر. فالساحة، وهو أسم مكان، تبدو لنا ساحة مجرّدة لا نستطيع أن تحدّد لها موقعاً في الواقع الملموس على نحو ما نفعل عندما نحدِّد موقع مقهى الباشورة التي وردت في إحدى قصص مجموعته الأولى. ولأن المؤلف يعتمد ذلك فقد أضاف إشارات لغوية متكررة هدفها التذكير بأن الساحة هنا ليست ساحة معينة ولا هي معسكر اعتقال ولا مكان إقامة طبيعي. والناس فيها لا ينتمون

---

[1] د. إبراهيم خليل: ناقد واستاذ في الجامعة الأردنية.

[2] نشرت هذه الدراسة في جريدة الراي الأردنية 2002/11/8.

إلى عشيرة واحدة أو مدينة واحدة ولا إلى دولة واحـــدة، ولا يتكلمـــون لهجة واحدة.

ولعله بهذا التجريد للمكان يؤكد من طرفٍ آخر أنه لا يعني بالساحة سوى الإشارة. وأنَّ المشار إليه يمكن أن يكون هذا البلد أو ذاك أو هـــذه المدينة أوتلك. أو هذه الرقعة الجغرافية أو تلك. وإمعانـــاً فـــي إضـــفاء الطابع الرمزي على المكان جاءت إشاراته المتكررة للأسوار والجدران والبوابات المقفلة الموصدة، وهدير البحر الذي يصفع الساحة من الغرب في صوتٍ يشبه حمحمة الخيول، وصليل السيوف.

وإذا تركنا الساحة إلى الأشخاص، وأوّلهم هذا الراوي الذي يروي لنا ما وقع له وجدناه غير عادي. فهو مـــع زوجتـــه وأولاده، وترتعـــد فرائصه خوفاً، ثم نكتشف في نهاية القصة ان الحكاية تـــستمر روايتهـــا حتى بعد أن يجثّ رأس الراوي عن جسده، فيحدق بأطفاله وهم يستلقون للذبح. فهذه إشارة إلى أن الشخصيات – في هذه القصة – هـــي أيـــضاً ليست من واقع الحياة اليومية. والمتكلّم فيها اسند له المؤلـــف وظيفتـــين إحداهما سَرْد الحدث. والوظيفة الثانية المشاركة فيه بادئاً بالبحث عـــن طريق النّجاة، معلقاً على آراء الزَّوْجة، ومجيباً عن الأسئلة. ويؤدي في نهاية الأمر دوْر الضحية التي تستمر في رواية الواقعة بعـــد أن تلاقـــي مصيرها الحتمي.

وإمعاناً في الإيحاء بأنّ الكاتب يخترع عالمه القصصي اختراعـــاً، من غير محاكاة لواقع الحياة اليومي، يشير إلى مجموعـــة كبيـــرة مـــن الأشخاص المتشابهين المقنعين الذين لا ترى منهم سوى ثقـــوب تظهـــر منها عيون برّاقة تترك فيمن يراها إِحساساً كبيراً بالرعب.

وتساؤلات الراوي حَوْل المصدر الذي جاء منه هؤلاء الأشخاص او من يكونون لا تغير في الواقع شيئاً، فهم مسلحون باسلحة غريبة كالبلطات والسيوف وما إلى ذلك. وهم ينتظرون أمام البوابات ريثما تخرج الجموع في فزع لينقضوا عليها. فهم لا يذبحون الناس المنطلقين من الساحة ذبح النّعاج فقط ولكنّهم يتلذّذون بأداء مهمّاتهم وكأنهم يلعبون ويلهون بمناظر الدماء والأشلاء المبعثرة.

واللافت للنظر تساؤل الراوي: لماذا أستسلم للذبح بهذه السهولة؟ ولماذا لم يخطر ببال أحدنا – ذات يوم – أن يتسلح بسيف، أو بساطور، أو ماسورة حديد يهشُّ بها عن نفسه؟ وهل كان ذبحنا بين هذه الجدران حتمياً وبهذه الطريقة؟.

من المعروف أن القصة إما أن تقول مغزاها مباشرة وإما أن تقوله بطريقة غير مباشرة.

فالكاتب هنا لا يتطرّق لمكان معين، ولا لحدث معين، في زمن معين، ولا لأشخاص أو أناس معينين. ثمة ما يشبه الأسطورة لكنها أسطورة من خَلْق الكاتب نفسه، وليست أسطورة معروفة في كتب التراث عاد إليها المؤلف أو حاول أَن يعيد كتابتها من جديد، ولإضفاء هذا الطابع الأسطوري على كتابته الرمزية هذه استخدم إشارات لغوية من شأنها أن تردنا إلى الماضي. ماضي الغزاة السفاحين أمثال هولاكو وتيمور لنك ونيرون ممن ارتبط تاريخهم بالمجازر الوحشية التي وصموا بها في كتب التاريخ. فذكر السيوف والأقنعة والأسوار والقلاع الخ من أجْلِ أن ينفخ في حكايته هذا البعد الزمني التاريخي مع أنها،

وحسبما جاءَ في السؤال، تعطي القارئ فكرة عن استمرارية الحدث الآن. مما يعني أن هذه القصة ارادت القول: إنّ ما نحن فيه اليوم ما هو إلا مجزرة ينفّذها غرباء وافدون إلى "الساحة" لا أحد يعرفهم أو يعرف من أين جاءوا. ولا لماذا يقومون بتنفيذ هذه المجزرة بهذه الطريقة التي لا نجد لها مثيلاً في المذابح المذكورة في أسفار المؤرخين وحولياتهم المدوّنة.

ومع هذا نجد الجموع الغفيرة التي تتكدَّس في الساحة خوفاً ثم تهرب منها خوفاً، ولا تطرح على نفسها السؤال: لماذا لا نتسلح؟ ولماذا لاندافع عن أنفسنا؟ وهذا تفسير للقصة لا أظن أنه موْضع خلاف. ولكن قد يتساءَل بعض الناس: ولماذا لا يكتب الكاتب قصَّة يشير فيها إلى ما يجري في عالمنا اليوم من مذابح في فلسطين وأفغانستان وغيرها؟ ولماذا لانُسمي الشيء باسمه؟ لماذا نضطر إلى اختراع ما نخترع من حكاية نريد لها أن ترمز للواقع؟.

والإجابة عن هذه الأسئلة جميعاً هي أن الأدب – والفن عامة – يحاولان الخروج من المحدود السَّطحي إلى المطلق. وهذا لا يتأتى للكاتب عندما يصف ما يجري مباشرة، فباختراعه لهذه الساحة والرواي والناس والقتلة المقنعين وتصوير الفزع الذي يدب في القوم دبيب الغذاء في الأعضاء، كذلك في الضوء الذي ألقاه على المجزرة، وما فيها من وحشية وقسوة، كل ذلك أدّى إلى تكوّن الانطباع والاثر الذي أراده بأسلوب حفظ للقصّة مستواها الفني.

والشيء نفسه يمكن أنْ يقال عن قصة (المدينة) التي تعد هي

الأخرى من قصص الغرائب والخوارق. فهل سمعت عزيزي القارئ ـــ في يوم من الأيام ـــ أن الموتى نهضوا من قبورهم ونظموا مظاهرة، أو مسيرة احتجاج؟ هذه القصة تدور حول رجلين لا يجدان مأوى يقيمان فيه فهما متشردان. ينامان أحياناً على الأرصفة. وفي أحيان أخرى في مداخل البنايات. وقد روى أحد الرجلين للآخر كيف أنه اهتدى إلى هذه الطريقة. فقبل أن يتم إقفال المكاتب يختفي داخل سلالم البناية حتى إذا ما أقفل آخر مكتب أدرك أنه أَصبح وحيداً. فنام نوماً هانئاً هادئاً لا يزعجه شيء.

وقد دفعت بهما الظروف للبحث عن أمكنة نوم أخرى. وليس أفْضل من المقبرة مكاناً في غفلة من الحراس. وهكذا اعتاد المتشردان على النوم في المقبرة ليكتشفا أن اصواتاً تزعجهما في منامهما. وقد تزايدت هذه الاصوات التي أخذا يرقبانها فإذا هي أصوات الموتى ينهضون من قبورهم في كلّ ليلة، يتشاورون ويتحاوْرون ويوقظون النائم المسكين بما يصدر عنهم من صياح. أحد الموتى يتحدث عن مدن يقرع أبوابها الغزاة فيما يشتغل أهلها بالأقتتال الداخلي فيذبح بعضهم بعضاً من غير أن يتنبهوا إلى الخطر الذي يحيط بهم. وآخر يتحدث عن مدن تعاني الجوع وسكانها يقفون طوابير بانتظار الحصول على بعض الخبز بينما تعلو وجوههم صفرة الموت. وآخر يتحدث عن مدن سكانها يشبهون القطعان يملأون الشوارع والبيوت، لا همَّ لهم سوى ملء البطون والتناسل كالأرانب والفئران، ولا يعرفون من أمور الدنيا إلا البيع والشراء والاسترخاء أما شاشات التلفزيون. وهذا التصايح يدفع بالرجلين أو بأحدهما لالتماس مكان غير المقبرة ينام فيه. ولدهشة النائم استيقظ

الموتى وهبّوا هبة رجل واحدٍ، وداست الأقـدام المتلاطمـة حارسـها المسكين. وما لبث المشرد أن اندمج في الجموع الزاحفة باتجاه المدينـة الغارقة في النوم وعندما بلغت الجموع اطراف المدينة وجـدوا قواهـا العسكرية بالانتظار: دبابات، دروع، عصيّ، بنادق، قنابل ومـسدسات. وكل وسائل الموت التي رفعت في وجه المتظاهرين الموتى.

وهنا تكمن المفارقة فإذا كان المتظاهرون الغاضبون في الأصل هم من الموتى فما عساها تفعل بهم البنادق؟ ستعيدهم بكـل بـساطة إلـى قبورهم مرّة أخرى. والشخص الوحيد المتضرر من هذه المعركة هـو المتشرّد المسكين الذي اتخذ المقبرة مكاناً لنومه، فلما رأى المسيرة لـم يستطع مقاومة الرغبة في الاشتراك. وهكذا قالت الصُّحف صبيحة اليوم التالي:

مَصْرَعُ مواطنٍ مجهول وجدت جثته مهشمة على الرصيف. وقـد تكون القصة كابوساً تخيله الراوي الذي دفع حياته ثمناً لتلك المجازفة.

والكوابيس كما نعلم من التقنيات القصـصية التـي يلجـأ إليهـا الأدب الغرائبي الذي هو مزج متعمَّدٌ بين العقلاني القابل للتفسير واللاعقلانـي الذي يقوم على التسليم بوجود عالم غير عالمنا، لـه نظمـه ومقاييـسه المخالفة لتجربتنا البشرية. والكابوس في القصص شكل كتابي يلجأ إليـه الكاتب لاستدراجنا إلى عالم يشبه عالم الواقع، ولكنه فجأة يوجّه الانتبـاه إلى شيء لا تفسير له كعودة الأمـوات إلـى الانتقـام أو التظـاهر أو الاستمرار في الحديث. وهو في الأساس تركيب فانتـازي Fantastic يجري التعاقد عليه بين الكاتب والقارئ. فلا ينكر القـارئ مـا يـذكره

الكاتب، حتى وإن كان من غير الأمور الواقعية التي تشذ عن قانوني الاحتمال والضرورة.

والغرض بطبيعة الحال من هذا التركيب الخيالي توصيل الفكرة بطريقة غير مباشرة. وهي هنا تتلخص في أن المدن العربية لا تبالي بما تلقاه من تجويعٍ وإذلال وعسف، وسكانها اشبه بالأموات أو أشدُ صمتا. وتثوير الكاتب للموتى وإخراجهم من قبورهم ومناداتهم بشعارات حماسيّة وثورية تعني أن الموتى أكثر حياةً من الأحياء، وأن انجراف الرجل المسكين وانخراطه في المسيرة الغاضبة تعني أن المواطن العادي إذا اتيح له أن يعبر عن نفسه فلن يتوانى عن ذلك ولو دفع ثمناً لهذا حياته وعمره.

والشيء الذي ألجأ الرجل للنوم في المقبرة هو نفسه الدافع الذي يجعل الموتى يثورون.

في "الوليمة" ضرْبٌ آخر من الخوارق.

فراوي القصة ــ ونلاحظ هنا كثرة اعتماد المؤلف على الراوي المشارك ــ دُعيَ إلى وليمة بعد انقطاع غير طويل عن صحبته ممن اعتادوا تناول الولائم باستمرار في مجالس لا تخلو من الأنس والشراب والثرثرة والضحك الخليع الماجن. وهو على الرغم من أنه مدعوّ لا يجد في المكان مقعداً خالياً فيضطر إلى الانتظار طويلاً دونماً فائدة. وعندما يتساءَل عن العشاء أين هو يتهمونه بالتّسرع. وعندما يبحث عن كأس نظيفة ليتناول بعض الشراب يعوزه ذلك. وهو في كل مرة ينظر فيها من النافذة يبصر غراباً أسود يقضم الأغصان. وما هي إلا دقائق حتى

اكتشف الراوي أن الدعوة لم تكن سوى مكيدة، فقد تم تقييده بواسطة حبل غسيل وهم يعتزمون ذبحه وشيّه وتناول لحمه. ولما كان الرجال في غاية السكر فإن الرّجل اقتنع بأن ساعاته أصبحت معدودة، فراح يرجوهم العفو عنه مقابل ما يشاؤون من الفراريج المشوية المحمرة. لكنهم يصرّون على التهامه وهو حي. وبالفعل يواصل الراوي وصف الأدوات التي استعملت في تقطيع أوصاله واجتثاث قطع من لحمه وسط صياحهم وضحكهم الصاخب فيما راح الغراب الاسود يصفق بجناحيه.

وهذه القصّة أيضاً لا تتعدّى أن تكون كابوساً كالكوابيس المرعبة التي راها الناس في نوْمهم فيستيقظون مذعورين. ولا ريب في أن لخليل السواحري هدفاً من هذا النسق القصصي. ولعلّه اتخذ من تشبيه النميمة والغيبة بأكل لحم الإنسان حافزاً ومحركاً ضمّنه هذه القصة التي تؤكد أن الأصدقاء لا يوفرون لحم صديقهم، لا لذنب ارتكبه سوى أنه انقطع عن جلساتهم بعض الوقت.

في القصص الأخرى ترك السواحري عالم الغرائب والعجائب واقتربت قصته من فضاء الموت.

تستوقفنا قصة (قاعة الدوريات) التي هي نسيج متماسك تختلط فيه ذاكرة المكان ــ عمان ــ بذاكرة الإنسان. فالقارئ يرافق الراوي في رصده التصويري لنمو مدينة عمان واختلاف شكلها الظاهر بين الستينات وبين وسط التسعينات. وهنا يبدو السواحري واقعياً مئة بالمئة. فما يذكره من أماكن يعرفها كل من يعرف عمّان. شارع سليمان القانوني وفندق برج بابل ومجمع النقابات ومكتبة عبد الحميد شومان في موقعها

السابق ومقهى الفاروقي. وشهرزاد التي كانت تقع في شارع السلط. والمقهى الصغير خلف بناية البنك العربي وسط البلد عند مدخل سينما الحسين. وإلى هنا تبدو القصة وكأنها فيض من ذكريات الماضي يتدفق في مخيلة راوٍ على حافة الشيخوخة.

والحكاية تتلخص في أنَّ هذا الراوي المتقاعد اعتاد الجلوس في قاعة الدوريات بمكتبة عبد الحميد شومان. ويوماً بعد يوم اكتشف أن أحد الأشخاص يطيل الجلوس إلى طاولة قريبة من طاولته، يزجي الوقت في حلّ الكلمات المتقاطعة. والراوي يصف لنا بدقة شخصية حسن الزيناتي وكيف كان يجهد فكره وهو يتطلع من النافذة لتذكر الكلمات. ولكن حسن الزيناتي اختفى فجأة. تساءل الراوي في اليوم الأول والثاني، ولكن تساؤلاته هذه لم تطل ففيما كان يتصفح إعلانات الوفاة لاحظ اسم حسن الزيناتي قائلاً: إنا لله وإنا إليه راجعون.

والقصة السابقة (قاعة الدوريات) تشترك مع قصدة دفتر الهواتف في أنهما قصتان تعبران فضاء الموت. فدفتر الهواتف الذي يستعرضه الراوي المتكلم فيه شريط الحياة. أصدقاء كثيرون – وهم بطبيعة الحال اقرب إليه من حسن الزيناتي – يطلون بوجوههم عبر الأجندة. وبعضهم مضى إلى غير رجعة. غيّبه الموت. وهو هنا لا يفوته أن يذكر تقارب الأعمار بينه وبينهم. والمأساة هي أن الإنسان لا يشطب اسماء اصدقائه الراحلين من دفتر الهواتف وهو إن فعل فإنه لا يشطبهم من دفتر القلب. وهذه القصة بمحتواها الإنساني تذكرنا بقصيدة مريد البرغوثي الموسومة بالعنوان "أسماؤهم" التي يشير فيها إلى الأصدقاء الراحلين، وبقاء أسمائهم في دفتر الهاتف:

رعشة تنسى

ولا أشطبهم من دَفْتر الهاتفِ

أمضي نحو قصدي

ثم ابقيهم تماماً حيث كانوا

مثلما كانوا

كما لو لم يموتوا من سنين

لم تعد أرقامهم تصغي لصوتي

في صباح القهوة الأولى

وأكداسَ الورق

لم أعُدْ أطلب منهم أن

يلاقوني على المقهى

حوالي السادسة

لن يَمدوا يدهم للهاتف الصائح ليلاً

بين مسْوَدِّ الورق

(الناس في ليلهم ص 15 – 16)

بيد أن قصّة السواحري تستحضر هؤلاء الأشخاص فعلاً. وهذا يصح أن يكون موضوعاً للموازنة بين القاص حين يتناول موضوعاً يتناوله الشاعر. فلكلٍّ منهما طريقته الخاصة في التعامل مع هذا الموضوع، ها نحن نقرأ في قصة السواحري ما يقوله الراوي عن

صديقة نرويجية كتبت هاتفها لعل الأيام تجمع بينهما في مدينتها أوسلو. وسيدة بلغارية كان التقى بها في مهرجان بابل في العراق ودونت رقم هاتفها أيضاً، لعله في يوم من الأيام يزور صوفيا فيلتقيان. وهكذا يتضح أن المفكرة – التي تتألف من مجموعة أوراق صغيرة – مزدحمة بالوجوه والأسماء والأصوات والذكريات. ومنها تنطلق بنا رؤية الكاتب إلى عدّة أماكن بعضها في آسيا وبعضها الآخر في أوروبا وبعضها في الولايات المتحدة. فما الذي يجعل الراوي يشطب الأسماء إذا كان النظر في قائمة الأرقام تحيي في ذاكرته كل أولئك الأشخاص وهاتيك الأماكن. "أغلقت المفكرة القديمة. وقررت من فوري شراء أخرى جديدة".

وأيّاما كان الأمر فإن قصص هذه المجموعة بلا ريب تختلف في أجوائها عن مجموعاته القصصية الثلاث السابقة، غير أن القصص القديمة ومنها قصة (بطيخ) وقصة (الأفعى) وحتى قصة "ليلة القبض على إسماعيل"، تحتفظ بتلك الأجواء الشعبية التي عرفناها في قصصه السابقة عن سلمان التايه وسلمان الهرش وفرج الهمشري ومقهى الباشورة ونفس التمباك وغير ذلك. ويستطيع الدارس أن يزيد على هذا فيشير إلى عدم التوازن الذي يظهر في قصة (بطيخ) بين ذكريات الراوي عن هذه الفاكهة الصيفية وبين الحدث فيها فالقصة تبلغ نهايتها دون أن يبدأ الحدث الذي تقوم عليه، وعندما يبدأ نتبين أنه لا يستحق من الكاتب مثل هذه الوقفة.

وبكلمة موجزة تضيف هذه المجموعة إلى عطاء السواحري القصصي إضافات جديدة. سواء من حيث البنية القصصية القائمة على

الغرائب وتوظيف الكوابيس والرواي المشارك واستخدام الحدث المتقطع والزمن، إلى جانب الأسلوب المصقول الذي عرف به نسيجه القصصي منذ وقت غير قصير. أو من حيث التوجه لإثارة موضوعات ذات أثر بالغ في حياة الناس. ومن ذلك المذابح التي ترتكب في عالمنا العربي الإسلامي والصمت واللامبالاة التي تسود البلاد العربية، فيما يستمر القتلة والمفسدون في ممارساتهم الوحشية، أو في التنبيه إلى مواقف إنسانية، ومن أشدها أثراً في النفس الموقف من الموت، ففقدان صديق. أو إخلاء شخص لموقعه فجأة من غير تمهيد، أو شطب الأسماء من دفتر الهواتف... الخ. لهذا كله أستطيع القول بثقة وإطمئنان كبيرين أن قارئ هذه القصص سيسرّ بها أيّما سرور، ويستمتع بقراءتها أيها استمتاع.

مطر آخر الليل
شواهد بليغة على أحوال عصرنا

د. محمد عبيد الله[1]

تتكون مجموعة (خليل السواحري) الموسمة بـ(مطر آخر الليل) من خمس عشرة قصة[2]، وخلافاً لمجموعاته السابقة، لا تمثل هذه المجموعة مناخاً واحداً، ولا تشكّل قصصها متوالية قصصية متتابعة، كما هو الحال في (مقهى الباشورة)، فقد تميزت تلك المجموعة بوحدة المناخ القصصي، فكأن القصص فصول لرواية واحدة، وقد أشار الدارسون إلى هذه المسحة الروائية، بالرغم من استقلال القصة الواحدة ومحافظتها على مقتضيات التجنيس اللازمة للقصة القصيرة، ولعل ما سمح بهذه السمة الفارقة أن القصص جميعها مشتقة من مناخ واحد يتكئ أساساً على المكان الفلسطيني (القدس وما حولها) وعلى شخصيات تنتمي للبيئة نفسها، أي أن ثمة حدوداً ومرجعيات واضحة للقصة، مكنت الكاتب من اشتقاق نماذجه ونصوصه مع المحافظة على ما بينها من روابط وصلات حميمة. وقد تكررت هذه السمة في الأعمال التالية للكاتب (زائر المساء) و (تحولات سلمان التايه ومكابداته) في حين استثنينا (ثلاثة أصوات) كونها مجموعة مشتركة لثلاثة كتاب[3].

---

(1) د. محمد عبيد الله: ناقد وأستاذ في جامعة فيلادلفيا.

(2) نشرت هذه الدراسة في جريدة الرأي الأردنية 2002/12/27.

(3) مجموعة (ثلاثة أصوات) مجموعة مشتركة صدرت عام 1972 وضمت قصصاً لفخري قعوار وبدر عبد الحق وخليل السواحري.

ومن جانب آخر مثلث تجربة (السواحري) نموذجاً مركزياً لبلاغة الكتابة الواقعية المرتبطة بالواقع الفلسطيني، إذ تمكّن من تكييف الشكل اقصصي ليتّسع للأحوال الفلسطينية ولصور من البشر الكادحين والأميين، خلافاً للقصة الرومانسية التي أبرزت الطبقة المتوسطة من أصحاب الأراضي والأغنياء الذين يبكون البرتقال الحزين (كما هو الحال في قصص الإيراني المواكبة للنكبة وبعض قصص الناعوري) وقد أنجز خليل السواحري مع محمود شقير ونمر سرحان وصبحي شحروري وماجد أبو شرار ويحيى يخلف مهمة التحول من الكتابة الرومانسية إلى الكتابة الواقعية في عقد الستينات، ولعل هذا التحول أحد المفاصل الكبرى في التجديد القصصي قبل أن تتحول القصة عن الكتابة الواقعية إلى مراحل تعبيرية جديدة. وقد تم هذا التحوّل أو أبتدأ بدقة في مناخ مجلة (الأفق الجديد) المقدسية التي كان لها الفضل في احتضان الكتابة الجديدة منذ عام 1961، وقد ظل أثرها مستمراً رغم توقفها عام 1966، من خلال استمرار كتابها وأبناء جيلها ممن مثلوا ريادة الحداثة القصصية، إلى جانب أسماء قليلة من خارج تجربة الأفق (جمال أبو حمدان خاصة في "أحزان كثيرة وثلاثة غزلان").

في (مقهى الباشورة) برز المناخ المحلي الفلسطيني، من خلال شخصيات شعبية تنتمي للواقع القروي لا بصفتها الفردية، وإنما بوصفها نموذجاً أو نمطاً، وكذلك من خلال المكان الذي أبرزته القصص كأنها تخشى عليه من الضياع ومن التحول (بسبب ظروف الاحتلال) وكانت اللهجة المحكية والحكاية الشعبية والشعر المحكي والمثل الدراج وغير ذلك من طوابع الثقافة القروية، من أهم المكونات الجهوية التي تغذّي

القصص، وأفادت منها مبكراً، لتدخل ربما لأول مرة في نسيج الكتابة الحيدثة في فلسطين والأردن، بصيغة فنية واقعية محكمة(1). وفي (زائر المساء) استكمال لما بدأه الكاتب في مجموعته الأولى، مع تنويعات جديدة اقتضتها الأحوال المتتابعة في الواقع الفلسطيني، مع استمرار لمناخ (مقهى الباشورة) في عدد من القصص، وفي المجموعة الثالثة (تحولات سلمان التايه ومكابداته) تجربة مختلفة نسبياً، هي تجربة العودة إلى الوطن بعد أكثر من ثلاثين عاماً تحت الاحتلال، ولذلك ترصد التغيرات والتحولات التي لامست (مقهى الباشورة) جذورها الأولى(2).

أما المجموعة الجديدة (مطر آخر الليل) فأول ما نلاحظه تفسخ المناخ المشترك، وتفكك الوحدة الضمنية التي ميزت مجموعات سابقة، بمعنى أن القصص لا تشترك في بنية أو بيئة واحدة، ولهذا التفسح دلالة أساسية يمكن التماسها في تغير الأحوال الفلسطينية التي ارتبط اسم الكاتب بها، فهذه المجموعة هي كتابة اغتراب لا كتابة ألفة، لم يعد العالم متوحّداً ولا متماسكاً في الرؤية الجديدة، كما أن القصص الجديدة ليست عن فلسطين الداخل، وليس مكانها هو المكان الفلسيطيني، فهي نتاج الاغتراب ومفارقة المكان الأول ـــ الوطن، وفي كثير منها نقد ضمني يكشف عن العقاب الأكيد لمن يفارق وطنه أو يغادره.

---

(1) للتوسع انظر: محمد عبيدالله، فلسطين في القصة القصيرة الأردنية، منشورات دار أزمنة – اللجنة الوطنية العليا لعمان عاصمة للثقافة العربية، 2002، ص 63 – 82.

(2) انظر: الدراسة الضافية التي خص بها د. ضياء خضير تجربة السواحري بعنوان: حرية الإبداع داخل وطن محتل، في كتاب: الحرية والإبداع، تحرير ومراجعة عز الدين المناصر، حسن عليان، محمد عبيدالله، منشورات جامعة فيلادلفيا، عمان، 2002، ص 213 وما بعدها.

ويمكننا أن نتأمل المكان كعنصر أثير في قصص السواحري، نتذكر مثلاً أنه كان مكاناً محدداً شديد الألفة والوضوح في قصصه السّابقة، أما في هذه المجموعة فهو مكان مختلف أو مكان اغتراب:

- في قصة (الساحة) مثلاً يأخذ المكان التوصيف التالي:

" لا أحد يعرف كيف تجمعنا في هذه الساحة، هي ليست معسكر اعتقال، كما أنَّها ليست مكان إقامة طبيعي".

وهو مكان بلا ملامح ولا محددات "ساحة شاسعة لا أفق لها".

وباستثناء ذلك لا نجد إلا الخوف الجماعي. ثم الذبح الذي يتعرضون له في هذا المكان الغامض، وحتى لا نطيل يمكن أن نعدّه المكان البديل عن الوطن، مكان الاغتراب، فقد غادرت الجماعة موطنها الأول، وحلت في مكان غريب، وتعرضت للمهانة والقتل والذّل.

وفي القصص الأخرى أمكنة مشابهة: مطارات (والمطار مكان يحل فيه الغرباء، ليس مكاناً طبيعياً للإقامة، وليس مكاناً أليفاً، كذلك الحال في السفينة (قارب الملذات) قي قصة (مطر آخر الليل)، وكذلك غرفة السكارى التي ينعب الغراب على شبكاها في قصة (الوليمة)، وأيضاً غرفة (الساكن الجديد) في قصة بالعنوان ذاته، غرفة مفزعة يهاجم بابها كلب متوحش، ويتعرض فيها الساكن لإزعاج المجاورين وأطفالهم.. و (قاعة الدوريات) ترتبط بالموت لا بالحياة... و(المدينة) أيضاً موحشة، في القصة المعنونة بالاسم نفسه، حتى أنها تتعرض لغزو الموتى لتصحيح ما أغفله الأحياء وفرّطوا فيه.

وكأن هذه القصص نوعٌ من التمثيل السّردي غير المباشر للاغتراب الفلسطيني: ما الذي يحل في الإنسان عندما يفتقد وطنه؟ تقول لنا

القصص: إنه لن يطمئن، ولن يجد مكاناً أليفاً.. وقد يكــون فــرداً فــي الجماعة الذليلة ينتظر دوره في الذبح، بل يــستلقي مقــدّماً إذ لا وقــت لانتظار إشارة المهاجمين الذين يأخذون صورة الجزارين "كنــا ننــبطح دون أوامر وكانت السيوف والسواطير تمعن في جَزّ الرقــاب" (قــصة الساحة).

أما المناخ الشعبي وصور الحياة اليومية للكادحين فهي تكاد تختفــي من هذه المجموعة بانسحاب المكان الفلسطيني (باستثناءات قليلــة). ولا نكاد نجد من التقنيات الأثيرة عند الكاتب غير جمل وردت عفواً كتمثيل لأسلوبه القديم، مثلما وردت في قصة (مطر آخر الليــل) ففــي حــوار الرجل والمرأة، يقول الزوج: "من أين يأتي الحظ، وماذا تفعل الماشــطة بالوجه القبيح؟" فالمثل المفصّح يذكرنا بالأمثال الشعبية التي كان الكاتب يكثر من استخدامها في غير هذا السياق، لكن الجملة التي نقلناها وردت غريبة عما حولها، ولعل إيرادها باللغة الفصيحة من أجل أن تتناسب مع لغة القصّة ومع شخصياتها الأميل إلى الغنى والحيــاة البرجوازيــة (إذ بمكنتها قضاء رحلة بحرية مرفهة في أوروبا). ومن ذلك مــا ورد فــي قصة (الساحة): "لن يقاتل أحد أحداً، إلا على طريقة الكف الذي يلاطــم المخرز، أو العنق الذي يصافح السيف". وبصفة عامة تخلىّ الكاتب عن المزاوجة بين العامية والفصيحة، واختفت ملامح الحياة الشعبية بــسائر مسوياتها لتحل محلها قصص تعبيرية تستند إلى الواقع أو تعبر عنه عبر مسافة أبعد مما ألفناه في المجموعات السابقة للكاتب.

ولا نكاد نجد في المجموعة اسماً لشخصية، بمعنى أن الكاتب يختار شخصيات غفلاً من الاسم (بينما كان اسم الشخصية عنصراً جوهرياً في مجموعاته السابقة)، ومن الممكن أن نعدّ تسمية الشخصية صورة ضمنية

لحضورها ولتثبيتها؛ هكذا نتذكر مثلاً، عطا أبو جلدة، المعلم أبو بلطة، المختار سالم الزرزور، عزيز الهشلمون.. وغير ذلك من شخصيات محددة اشتهرت في قصص السواحري، وفي مثل هذه القصص يكون أظهر ما يبقى من القصة شخصيتها واسمها، فهي شخصية من لحم ودم ولها اسم يتناسب مع وضعيتها وهيأتها القصصية والواقعية معاً. أما في قصص المجموعة الجديدة فقد تخلى الكاتب عن هذه السمة، لأن القصص ذاتها لا تتحمّل تسمية الشخصية ولا تتناسب معها.

اختيار شخصية مسمّاة يدل على تفرّدها وتخصصها، بما يفرقها عن سواها، ومن غير اسم تتحول إلى شخصية مجردة، قد تحمل رمزاً أو فكرةً أو بعداً تعبيرياً ما، لكنها لا تدل على ذات مفردة، ولا على نمط أو نموذج محدد. كما أن تجريد الشخصية من اسمها يشبه أن يُعطى المرء رقماً بدل اسمه (تتذكر "موت سرير رقم 13" لغسان كنفاني)، بمعنى أن هذا الفقدان يدل على المجهولية وعلى الاغتراب، هكذا تضيع في المجموع، ولا تحمل خصائص فارقة.. فالتسمية انتماء وانتساب، وتغييبها قد يدل على اغترابها، وأنها الأقرب للأبناء غير الشرعيين ممن يولدون دون اسم ودون نسبة، فيكونون ذواتاً ضائعة وقلقة.

وهذه الدلالات التي يمكن التماسها في تجريد الشخصية من اسمها، نتصل جوهرياً بأكثر قصص هذه المجموعة، وتقترن بدلالاتها العميقة، كما أن هذه السمة تقترن بنمط قصصي يصح أن يسمّى (الكتابة التعبيرية) كنقيض للكتابة الواقعية، وقد بدت هذه المجموعة اميل إلى النمط التعبيري، من خلال الابتعاد مسافة كافية عن الواقع، واتساع الاعتماد على التخيّل، مما يعني توفر عنصر الانزياح الأسلوبي بوضوح، أي أن الوقائع المكتوبة هي وقائع من ورق، ومن الصعب أن

نجد لها معادلاً أو موازياً في الواقع، إنها ليست أحداثاً مختارة أو منتقاة من الواقع مباشرة، وإنما هي معدّلة أو مختلفة، وفي كثير من الأحيان تتوافر على عناصر عجائبية لا تحدث إلاّ في الورق، ومع الشخصيات الورقية، أما بالقياس الواقعي فهي أحداث غريبة يستبعد حدوثها (الكلب الذي يهاجم الساكن ويربض على بابه، الأصدقاء الذين يذبحون صاحبهم لتناول وجبة دسمة، الموتى الذين يهاجمون الأحياء ويقومون بغزو المدينة...).

ويمكن ملاحظة الأسلوب التعبيري في عدد من القصص مثل: السّاحة، الوليمة، المدينة، الساكن الجديد، وبدرجات أقل في قصص أخرى، وغالباً ما تحتاج قصص هذا النمط إلى قراءة تأويلية، تتطلب من القارئ شيئاً من الجهد والتأمل، لأن المعنى ليس في (البنية الظاهرية أو السطحية) وإنما هو مختبئ في بنية أعمق وأبعد، وللقارئ أن يستقر على المعنى الذي يريده ويطمئن إليه، فمثل هذه القصص تحتمل تعدد المعاني، ولا تشترط الاكتفاء بالمعنى المقترح من الكاتب.

تميز السرديات الحديثة بين المتن السردي والمبنى السردي، أو القصة والخطاب (بمعنى أن المتن/القصة هي مجموعة الحوادث المروية أي الحكاية أو (الحدوتة) بالمعنى المتعارف عليه شعبياً، بينما المبنى أو الخطاب هو الطريقة التي تقدم فيها الأحداث، أي كيف تنظم وتسرد فتصل إلى المروي له (المتلقي). ويكتسب هذا التمييز أهمية في القصص التعبيرية، لأنها تحتاج إلى مبنى سردي مفارق لأصول الحكاية، وتستلزم سردية متقدمة تتجاوز مجرد السرد الإخباري.

ولو نظرنا في قصة (الوليمة) مثلاً، فسنجد بأن متنها القصصي أو

حكايتها يتضمن قدوم الراوي متأخراً على سهرة أصدقائه، ثم بعد حوارات قليلة ينهضون لذبحه وتقطيعه ليكون وجبة دسمة لهم، ليس في صورة جريمة بشعة، وإنما ببرود من يذبح شاةً ويقطّعها على نحو مألوف طبيعي.

أما المبني القصصي فيشتمل على تفصيلات وصور متدرجة تهيئ لقبول القصة وتوفر لها منطقها الحكائي، فإذ يتجه الراوي إلى المطبخ لإحضار كأس، يفاجأ بأنهم استخدموا الكؤوس كلها، ويجد في المطبخ سكاكين وسواطير كثيرة، لكنها لا تثير اهتمامه، أي أن ورودها هنا جاءمن منظور غفلة الراوي عن وظيفتها وعدم توقعه لما سيؤول إليه الأمر، لكن ذكرها في الوقت نفسه ليس مجانياً أو خالياً من الدلالة، لأنه سيتضح فيما بعد، وسيهيئ لقبول القارئ لما سيحدث إذ يكون قد وطّن نفسه على وجود هذه الأدوات وعلى الوظيفة المقترنة بها.

وتتكرر الصورة ذاتها لكن مع توسعتها أو تركيزها أكثر، إذ هناك منضدة تشبه خشبة الجزار ومجموعة هائلة من الأواني الفارغة، وسواطير متعددة وبلطة كبيرة وسكاكين مدببة، هذه الصورة أيضاً لا تثير في نفس الراوي شيئاً من الريبة، لكنها لا تمر عرضاً في تلقي النص إذ تعني أن الساهرين يستعدون لوليمة، ثمة فكرة لذبيحة قادمة، ولذلك تعد هذه الصور نوعاً من السوابق المهيئة لنهاية القصة، فإذ يتجه اثنان من الحضور إلى المطبخ، ويعودان بأدوات الجزارة، نكون على معرفة بوجودها وبانتظارها للنهوض بوظيفتها المحتملة.

تنتمي هذه الصور إلى المبنى أكثر من انتمائها إلى المتن، ويعاونها في ذلك صورة أخرى تكررت ثلاث مرات بالتدرج نفسه، من البسيط

إلى المعقد، ومن الخفوت إلى الضجيج، وهي صورة الطائر الأسود على نافذة المطبخ:

- في المرة الأولى "كانت أغصان الشجرة الملاصقة للبيت تتحرك ويصدر عنها خشخشة غريبة، حدقت قليلاً عبر الظلام، كان طائر ما أسود اللون يربض هناك، خلت أنه يرمقني بنظرات ثاقبة، تراجعت عن الشباك، وعاودت البحث عن كأس نظيفة".

لا يتوقف الراوي عند الطائر، وتكون مهمة هذه الصورة الموازية إعلامنا بوجوده، وإثارة اهتمامنا به، لكنه يبدو وجوداً عرضياً غير واضح، ولو لم تكرر هذه الصورة لما كان لها كبير معنى أو دلالة في القصة.

- في المرة الثانية، عندما يعود الراوي مجدداً إلى المطبخ للبحث عن علب الجعة تتكرر صورة الطائر، لكنها تتضح أكثر: "فجأة انبعث صوت الخشخشة إياها، قلت: لعل هذا الغراب اللابد فوق الشجرة يتحسس من دخولي المطبخ. تناولت علبة الجعة وعدت إليهم بينما الصوت خلف النافذة يزداد علواً، وكأن الطائر يهم باقتحام النافذة والانقضاض علي من خلف الزجاج".

أي أن الصورة هنا تتطوّر، وتدب فيها الحركة، وتضحي حركة الطائر (الذي نتبين أنه غراب أسود) متعلقة بالعداء للرجل/الراوي، وبالكشف عن هوية الطائر تسمية (غراب) تتولد دلالة التشاؤم والتّطير مما هو متصل بالمشترك في الوعي الإنساني، ثمة شؤم منتظر، أو قتل أو موت... فعالية الصورة هنا تتّصل بإثارة التوتّر في الراوي وفي المروي له معاً من خلال الصورة المشتركة ودلالاتها الضمنية.

- ويتكرر ورود صورة الطائر في نهاية القصة، بعد أن يتعرف الرجل لسواطير أصحابه:

"حدقت بهم وأنا أسلم الروح فرأيت الطائرة الأسود يصفق بجناحيه بشدة، ويقتحم وجهي بمنقاره ومخالبه، غطا سواد الطائر عيني ولم أعد أحس شيئاً أو أرى شيئاً، لأن كل شيء كان قد انتهى في تلك اللحظة".

هكذا تنتهي القصة بالصورة الموازية، وباكتمال وظيفة الصورة السوداء تكتمل القصة وتقفل، لكنها تثير فينا عدة أسئلة:

- إذا كان الراوي قد انتهى هذه النهاية وقتل على هذا النحو، فمن روى القصة، لأن الروي بضمير المتكلّم، بصوت القتيل وليس صوت احد القتلة، ولكن هذه سمة تعبيرية لا جواب عليها، ولو كنا في سَرْدٍ واقعي لصحّ لنا أن نتساءل عن القتيل الذي يسرد حكايته.

- ثم ما دلالة ذلك؟

يمكن أن نلتفت إلى أن القصة مكتوبة بمنطلق الكابوس، لا منطق السرد الواقعي، أي أنها قصة رمزية كابوسية تستحضر حلمياً صور القتل أو ما يشبهه بين الإخوة والأصدقاء: قابيل وهابيل، إخوة يوسف، وغير ذلك من تراث القتل (الغراب يذكرنا بأبناء آدم، وفكرة السهر واللهو تذكرنا بحجة أبناء يعقوب لأصحاب أخيهم ثم التخلص منه).

ثم يمكننا أن نربط قصة الأصدقاء الذين يأكلون لحم صاحبهم أو أخيهم بآية قرآنية "أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه" (الحجرات، آية 12)، لكن الإخوة الأعداء في القصة يستطيبون ذبحه وجزره بأعصاب باردة، كأنهم يتلذذون بفعلهم وبوليمتهم المنتظرة، وهنا

يمكننا اعتبار حضور الصديق – الراوي حضوراً رمزياً عبر إيذائه غائباً على نحو ما تومىء إليه الآية الكريمة. وفي مثل هذا الحال تغدو القصة شاهداً على تلذذ أهل عصرنا بإيذاء الآخرين وحتى الأقربين. ويمكن لأيّ قارئ أن يلقى فيها ما شاء من دلالات تتصل بهذا النوع من القتل، فلا شيء يمنع قصّة تعبيرية من إنتاج دلالات كثيرة.

إن مشروع اللذة المتمثل في السهر والخمر، ينتهي بالذبح والقتل على نحو مروّع يشبه سلوك الجزار مع الذبيحة، وهذه الصورة مكررة في قصة (الساحة) أيضاً: أدميون يذبحون كالشياه، دون أن يبدوا اعتراضاً، يقول الراوي في (الساحة) راسماً هذه الصورة الموازية: ".. حتى الخراف يحاول الجزارون تجنيبها رؤية السكين وهي تجز أوداج من يسبقها في الذبح، كانوا يحرصون على أن لا تفسد لحومها بدم الرعب الذي يسري فيها حين ترى ذبح غيرها "لكن ذبح الجماعة في هذه القصة تم ببشاعة لا يقدم عليها الجزار، وكذا حال الذبح الفردي في قصة (الوليمة).

وثمة صور أخرى من الذبح أو القتل في قصص أخرى، قتل كثير كأنه شهادة مؤلمة عن عصرنا الذي يتقدم فيه العلم، لكن إنسانية البشر تتراجع ليحل مكانها الرغبة في القتل والإيذاء والتدمير؛ قصة (المدينة) يقتل فيها القادم الغريب حين يقاتل الأحياء إلى جانب الموتى، فينضم إليهم نهائياً، بعد أن كان يقيم في المقبرة حياً، وقصة (السفينة) التي أراد الراوي وزوجته أن يقضيها رحلة ممتعة على متنها، تنتهى بالعاصفة وبغرق الرجل وفساد اللذة المتوقّعة.. وقصة في الطريق إلى استوكهولم هي قصة المرأة العراقية التي أخرجتها الحرب من وطنا لتلتحق بابنها في استوكهولم، وقصة (ذات صباح ذات مساء) قصة الرجل البوسني

الذي تعرضت أسرته ومواطنوه إلى القتل والمجازر على أيدي الصرب، ولم يبق له غير سيارة قديمة تذكره بماضيه.. وبذلك ترسم القصص صورة للعالم المرعب الذي يكثر فيه القتل في كل مكان، عالم موحش لا يحس فيه الإنسان بالأماكن أو السكينة.

وحتى عندما ينجو المرء من الموت قتلاً أو ذبحاً فإن ثمة مصيراً بانتظاره: الموت، أو القتل الذي لا مهرب منه، كما في قصة (قاعة الدوريات) التي تسرد بما يشبه صيغة (السيرة الذاتية) فيتابع فيها الراوي شخصية الكهل (حسن الزناتي) الذي يداوم يومياً في قاعة الدوريات ليقرأ صفحة الأموات ويحل الكلمات المتقاطعة، وإذ يألفه فإنه لا يتعرف عليه ولا يتحدثان، حتى يموت حسن الزناتي ليتحول إلى اسم في صفحة الأموات، وينقطع الراوي عن المكتبة كأنه يريد الفرار من مصيره المحتوم ومن شبح رفيق المكتبة الذي يذكره بالموت.

و(دفتر الهواتف) ترقد فيه أسماء رحل أصحابها "أين مضى كل هؤلاء الناس الذي ترقد أسماؤهم هنا" وموت الآخرين يدفع الراوي للتفكير في موته الشخصي، أي أننا لا نحزن أو نفتقد غيرنا فقط في مشكلة الموت، وإنما نبكي موتنا المحتمل، كما هو الحال في ملحمة جلجامش السومرية، فإذ يموت أنكيدو البطل، يحزن عليه جلجامش، ويغادر ملكه ومدينته، بحثاً عن سبيل للخلود، ولكنه لا يعثر على حل، فحتى عشبة الخلود تسرقها الأفعى، فيظل الموت مصير الإنسان، ولا يتآلف معه رغم الحلول المطمئنة التي جاءت بها الأديان السماوية (فكرة الحياة الأخروية الخالدة كبديل للفناء الدنيوي).

وقد تبقت في المجموعة بعض القصص التي لم نشر إليها حتى الآن،

منها قصة (البطيخ) وهي قصة تعتمد على عنصري الطرافة والبساطة، الراوي المتكلم الذي يروي بصيغة السيرة الذاتية أو السرد الذي يحيل على الذات وانطباعاتها قصة تعلّقه بالبطيخ، ويعتمد تطوير القصة على عناصر لغوية وحكائية ويومية مقترنة بهذا النوع من الفاكهة، مما يتصل بطفولة الراوي، أو مما هو مشترك في (ثقافة البطيخ) "وكانوا يقولون أن البطيخة ذبيحة الفقراء، لعل هذا هو ما جعلهم يشبّهون عملية تقطيع البطيخة بعملية الذبح". وفي موضع خر "زعم أخي الأكبر أن البطيخة تصرخ حين تخترق السكين أحشاءها تماماً مثل الخراف عند ذبحها".

وهناك ثلاث قصص مكتوبة في عقد الستينات لم تنشر في مجموعات الكاتب السابقة هي: ليلة القبض على إسماعيل، يحدث أحياناً، الأفعى. وإذا استثنينا قصة (الأفعى) فإن القصتين الأخرين تمثلان النمط السردي للكاتب في مرحلة (مقهى الباشورة) ففيهما سائر سمات تلك المرحلة التي أشرنا إليها في بداية هذه القراءة.

أما قصة الأفعى[1] فهي قصة مفردة لا نكاد نجد لها شبيهاً (من ناحية أسلوبية) في التجارب المبكرة أو حتى المتأخرة للكاتب، فهي قصة رمزية تعتمد لغة أميل إلى المجاز والتصوير الشعري، ورغم إجادة الكاتب في هذه القصة وفوزها في مسابقة مجلة الأفق الجديد، فقد اعرض عن هذا الأسلوب ولم يكرره (على الأقل في المنشور من قصصه) ونرجح أن ذلك يعود لأمرين، أولهما أن الكاتب مال إلى الكتابة الواقعية الأنسب إلى مجتمعه في الستينات، وكذلك صور القدس وقراها

---

[1] انظر تحليلاً لهذه القصة في كتاب محمد عبيدالله، القصة القصيرة في فلسطين والأردن، منشورات وزارة الثقافة، عمان 2002، ص269 – 271.

وهو ما يصعب التعبير عنه (رمزياً) والثاني: أن الكاتب السوري زكريا تامر، كان قد اصدر مجموعته الأولى التي افتتح بهـا هـذا الأسـلوب الرمزي التعبيري (قبل عام 1964 عام كتابة القصة) واشتهر تامر بهذا الأسلوب، فتركه السواحري بحثاً عن بصمة أو خصوصية أسلوبية بعيداً عن ظلال تامر وأسلوبيته.

وختاماً فإن هذه المجموعة خلاصة خبرة سردية وثقافيـة وحياتيـة طويلة، يجد فيها القارئ شواهد بليغة على أحوال عصرنا؛ إنها شـهادة إنسان متألم متأثر بما يصارع من أهوال وفظائع وجرائم، وتجتمع فيهـا نماذج متنوعة من السرد الذاتي الذي يحيل علـى السـيرة الشخـصية وتوظيفها لأداء معان إنسانية شاملة، مسائل الموت والغياب، مثلما تضم قصصاً ذات أبعاد إنسانية من خلال شخصيات موضوعية تـشهد علـى قسوة العالم الراهن، وتكشف عن اغتراب الإنسان فيه. وقد أحكم المؤلف نسيج قصصه، وسعى ليقدم جديداً في مستوى الرؤية والتعبيـر معتمـداً على خبرته الطويلة مع فن القصة القصيرة.

مقهـــى الباشـــورة

إلى الذين خرجوا من زمن الاحتلال

إلى زمن الانتفاضة

إلى الجيل الفلسطيني

الذي سيصنع الانتظار

أول يــوم

كان عطا ابو جلدة يجر خطواته بفتور متعب وهو يتــسلق الطريــق الترابية بين عين سلوان وباب المغاربة، بعد قليل يصل إلى الساحة العليا لباب العامود حيث يتكوم العمال أمام البنك البريطاني ينتظرون أربــاب العمل والمتعهدين الذين يلتقطونهم بالسيارات إلى الورش وأماكن العمل.

وليست هذه هي المرة الأولى التي يسري فيها عطا ابو جلدة إلى القدس ماشياً، ولكنها المرة الولى التي يساور فيها شعور ثقيل بالغربة والمذلة، واحسّ وهو يعبر باب المغاربة انه لا يدخل مدينة القــدس التــي كــان يدخلها قبل اربعة أشهر. وهاله ان يجد ساحة فسيحة كميدان السباق أمام حائط المبكى! ياالله! اين ذهبت كل تلك البيوت التي كانت تتكوم في هذه الناحية؟! تطلع إلى الساحة والى الاعلانات التي تنغرس علــى جــانبي الطريق وعادت إلى ذهنه الاعلانات التي كــان يراهــا علــى بعــض المحلات في المنتفيوري وحي موشيرم وشــارع يافــا قبــل الثمانيــة والاربعين. واستطال في اعماقه شعور بالغربة وانفجر إلى حقد فظيــع مرة واحدة فبصق: تفو على هذه الدنيا التي تسير إلى الوراء ثــم أردف بصوت مسموع:

- والله كأن الدار دارهم، كأنه يحسبون انهم سيظلون فيهــا مائــة سنة.

- وهز رأسه بحزن:

- ماذا يدريك؟ انها مسألة تطول.

- ويصدق على قولهم عطا ابو جلدة مخه ناشف.

وتذكر بمرارة تلك الاتهامات الأليمة التي طالما رماه بها علي الخباص وأهل الحارة جميعاً، يقولون: ان عطا ابو جلدة من طراز قديم وحتى قبل أن يتزوج حمدة وينجب ولده البكر سالم الذي اصبح أول استاذ في القرية كان ابو وضحه يعيره قائلاً: "يا أبو مخ ناشف". وفي أحيان كثيرة كان علي الخباص يتندر عليه أمام زوجته حمده ويقول: ان زوجك من تنابلة السلطان عبد الحميد. أما زوجته حمدة فقد صارت شبه مقتنعة بأن لزوجها في كثير من المسائل رأياً ثاقباً ووجهة نظر جديرة بالاحترام، رغم انه كان يبدي في بعض المسائل عناداً عجيباً جعل المختار يتهمه ذات يوم بحضور ابنه سالم بأنه عنيد كالبغل، وقد حز ذلك في نفس سالم وكاد يشتم المختار لولا تدخل الشيخ بهلول وعلي الخباص.

أما هو فقد كان غير مقتنع تماماً بهذا الهراء وكان يقول لنفسه:

- "صحيح انني عامل ومسكين ولكن لو كان مخّي ناشفاً، كما يقولون، لما كان بالإمكان ان يصير ولدي استاذاً يملأ العين، ثم انني لو كنت قد تعلمت فك الحروف لكنت اعظم من مختار".

• وكثيراً ما كان عطا أبو جلدة يبدي اهتماماً بنشرات الأخبار والاشاعات السياسية حتى ان الجميع أصبح يحترم رأيه في هذه المسائل ما عدا الشيخ بهلول. ومنذ ان سقطت الضفة الغربية في يد الجيش الاسرائيلي وعطا أبو جلدة يؤكّد لأهل القرية أن النزوح إلى الضفة

الشرقية عار ومهانة وبهدلة، وكان يحلف اغلظ الايمان أمام أهل الحارة بأن هذا الوضع لن يدوم، وبأن هيئة الأمم سوف تجبر اسرائيل على الانسحاب خلال شهر أو شهرين. وحين كانت جيبات الجيش الاسرائيلي ذات الزوايا الحديدية الحادّة المثبتة على "ابوازها" تعبر شوارع القرية غير المعبدة. كان عطا ابو جلدة يقول وهو يطل من وراء "سناسل" الكرم: "والله سوف تخرجون ذات ليلة مثل "الواويات"، بل ان عطا ابو جلدة كان لا يجد حرجاً أن يؤكد أمام ابو وضحة وعلي الخباص والشيخ بهلول والمختار من أن اليهود سوف ينسحبون كما حدث في غزة سنة ست وخمسين، وكاد يشتبك في طوشة مع المختار، عندما راح ابو جلدة يشتم محمود الذي حمل اولاده وعفشه ونزح إلى الضفة الشرقية.

وحين بدأ اليهود يسلمون الهويات لأهالي القدس اقترح علي الخباص على رجال القرية أن يذهبوا إلى القدس لأخذ هويات اسرائيلية، فمن يدري انها مسألة تطول، ونظل هنا محاصرين مثل (النسوان). لكن عطا ابو جلدة أكد لهم بأن ذلك خيانة للوطن وبأن كل من يذهب لأخذ الهوية الاسرائيلية انتهازي وخائن، وعندها ضحك علي الخباص وقال ابو وضحة متندرا:

- يا رجل أنت مخّك ناشف كأنك ما تزال تعيش في عهد الأتراك يوم كان الناس يهربون من الاحصاء.

وهز علي الخباص رأسه موافقاً وقال:

- حتى الأتراك كانوا يقولون عنا "جنكلة" يعني: قوم لا في العير ولا في النفير، ويريد أبو جلدة ان نظل جنكلة كأننا نعيش في عصر الاتراك.

ورد عطا أبو جلدة محتداً:

- يا جماعة، اليهود بكره ينسحبون، هل تريدون أن يقول عنا العرب عندما يرجعون بأننا خونة تجنّسنا بالجنسية الاسرائيلية؟

عقب المختار بهدوء ورزانة ويده تتحسس ختم المخترة الاسرائيلي الجديد في جيبه:

- على كل حال لسنا افضل من أهالي القدس.

وحتى بعد أن ذهب معظم رجال القرية إلى القدس وتسلموا بطاقات الهوية الزرق، كان عطا ابو جلدة مقتنعاً بأنه لن يحتاج إلى هذه الهوية بل ان بدنه اقشعر عندما أخرج علي الخباص هويته متباهياً وناوله اياها، فرفض عطا ان يمسها وكأنها عقرب تريد أن تلسعه وقال:

- لا أظن أنني سأحتاج إلى هذه الهوية حتى ولو ظلوا.

فقال علي الخباص:

- ولكنك لن تستطيع ان تزور يافا وحيفا والناصرة مثلنا.

رد عطا:

- اذا كانت زيارة يافا وحيفا لا تكون الا بالهوية الاسرائيلية فبالناقص.

قال علي الخباص متشفياً:

- ثم انك لا تستطيع الذهاب للعمل في الداخل وحتى في مناطق الضفة الغربية، العمل ممنوع إلا بالهويات.

ورغم ان شعوراً بالبلاهة قد اجتاح رأس عطا ابو جلدة فقد رد معتداً بنفسه:

- لست بحاجة إلى العمل الآن وحتى لو احتجت بعد فترة فان اليهود يكونون قد انسحبوا.

رغم ان المشاعر بدأت تداخله بضرورة الحصول على الهوية لتأمين نفسه على الأقل، فقد ظل على اصراره في رفض أخذ الهوية، وحين قالت له حمدة مساء امس: انه لم يبق في البيت لا طحين ولا سكر ولا أرز. أدرك ابو جلدة لأول مرة أنه كان عنيداً كالبغل ولكنه مع ذلك قال لها:

- أنا متأكد ان اليهود سوف ينسحبون.

قالت حمدة:

- منذ اربعة اشهر يا ابو سالم وانت تقول ذلك ولكن حبل الكذب قصير.

قال لها:

- يا ام سالم أنا لا أكذب أنا متأكد ان هذا الوضع لن يدوم.

فقالت حمدة: يدوم أو لا يدوم، هل تريد أن نذهب أنا وحسنيه لنشحد أو في رأيك أن نموت من الجوع.

قال عطا: آه لو كان سالم موجوداً في الضفة الغربية يوم قامت الحرب لكنا اليوم في وضع أحسن، ومن يدري لعل الله يفرجها فينسحب اليهود، أو ما يدريك ان سالم يستطيع أن يرسل لنا نقوداً من الضفة الشرقية؟

ولكن الله لم يفرجها، ووجد عطا ابو جلدة نفسه وسط رهط هائل من العمال في الساحة العليا لباب العامود امام البنك البريطاني.

لم يكن عطا يتصور ان الناس جياع إلى هذا الحد، كـان يعتقـد ان الناس ما يزالون مثله يعتصمون في بيوتهم، وحين تطلع إلـى الناحيـة الغربية وجد ان السور والاسلاك قد توارت وان اسفلتاً جديداً قد أصـبح يمتد مثل "الحانيش" باتجاه الباب الجديد وتنبه على صوت أحد العمال:

- من أين أنت يا عم؟

- عربي مثلك والاّ فكرك انني اسرائيلي؟

- يظهر انك تأتي اليوم لأول مرة.

وحين أخبره هذا العامل ان الأجرة اليومية في هـذه الأيـام دينـار (صحيح) اخرج عطا من بين أسنانه صوتاً يشبه الوشيش وقال:

- والله عال يستطيع الواحد أن يعمل اسبوعاً ويرتاح باقي الشهر.

قال الآخر:

- ومن الذي يرتاح هذه الأيام، هذه جمعة مشمشية يا عم والواحد لا يدري ان الحرب تقوم من جديد.

قال بو جلدة:

- من يوم ما دخل أولاد الميتة هذا البلد وأنـا أقـول انهـا جمعـة مشمشية ولكن لا أحد يصدق.

في هذه اللحظة كانت سيارة عسكرية محملة بالجنود تعبر مـسرعة

من أمام البنك البريطاني في الشارع الذي أصبح يمتد بخط مستقيم إلى النوتردام والباب الجديد، تطلع ابو جلدة وكأنه يلاحظ لأول مرة انهدام الجدار الذي كان يمزع هذا الشارع نصفين وحدّث نفسه بحزن:

- قديماً كنا نصعد المصرارة ونتمنى أن يأتي اليوم الذي يزول فيه هذا السور الكريه واليوم صرنا نتمنى ان يعاد بناء هذا السور، يا للعجب!!

وانتبه ابوجلدة على جلبة العمال وهم يتصاحيون أمام سيارة تاكسي بيضاء صغيرة، ولكن ثلاثة منهم دخلوا وانطلقت السيارة تجعر في امتداد الشارع إلى النوتردام وعاد ابو جلدة يفكر:

- يا للتعاسة كان الواحد أيام زمان يطلع شارع يافا مسنود الظهر واليوم يصعد العرب هذا الشارع مثل الصراصير.

وتطلع مسافة خطوات نحو الغرب حيث كانت ساحة مقهى المنشية وحدث نفسه:

- راحت ايام مقهى المنشية يوم كنا نقعد مثل الأفندية.

ونسي ابو جلدة انه بانتظار ان يفرج عليه الله بعمل هذا النهار واستفاق على صوت يقول له:

- شالوم! عايز تشتغل؟

وتأتأ ابو جلدة وهو يهز رأسه بالايجاب، ونسي ان يسأل شالوم هذا عن مكان العمل ونوعه أو مقدار الأجرة.

وحين تناول ورقة العشر ليرات الاسرائيلية آخر النهار صرّها بطرف منديله وهو يتعجب هل غلط معه الرجل؟

عشر ليرات مرة واحدة؟ الا انه راح يتمنى وهو يعبر الدرجات إلى باب خان الزيت ان يقبل منه التجار هذه العملة الجديدة غير المبروكة.

وعند الصرف اكتشف ابو جلدة ان الليرة مجرد عشرة قروش فقط، لذا فقد اشترى رطلين من الطحين ورطل سكر وربع أوقية شاي وكيلو أرز وفكر ان يشتر أوقية لحم إلا انه عدل عن ذلك بسبب ارتفاع الأسعار وقال:

- غداً نشتري نصف كيلو من اللحم.

ولما وصل إلى موقف الباصات قرر بعد تردد أن يركب الباص إلى القرية رغم انه أحس برهبة غامضة من رُكوبه، ورغم انه يكره أصلاً ركوب الباصات. وحين جلس على الكرسي في آخر الباص وكوّم أغراضه في حجره أحسّ بنوع من العنجهية والشماتة بالخباص والمختار وأبي وضحة وكل رجال الحارة، فها هو يعمل دون الهوية الحقيرة التي تهافتوا عليها ثم انه سيثبت لهم الليلة كذب ادعاءاتهم بضرورة الحصول على الهوية وهو كذلك يستطيع الحصول عليها اذا شاء فيما بعد، وحين نبهه الكنترول طالباً منه الأجرة سارع ابو جلدة وناوله قرشاً كان قد وضعه خارج الصرّة فصرخ فيه الكنترول:

- إلى أين انشاء الله؟

- إلى القرية.

- الى القرية بقرشين.

- ولكنها كانت بقرش.

- رد عليه الكنترول:

- كان ذلك من زمان، الأجرة بقرشين.

- الله أكبر كل شيء زاد سعره حتى الباص.

على المدخل الشرقي لمدينة القدس وعند نقطة العيزرية توقف الباص وصعد جندي اسرائيلي يتأبط رشاشاً وقال:

- كل الرجال ينزلوا

صاح ابو جلدة كالملسوع:

- أعوذ بالله ماذا حدث؟

واصطف الرجال إلى جانب الباص وحين أحس أبو جلدة بأن التفتيش يجري على الهويات انسحب إلى آخر الصف وقال:

- وقعت قلّة السلامة، من أول غزواته كسر عصاته.

قال له الجندي الاسرائيلي:

- أين هويتك؟

- ما قطعت هوية.

- انت كذاب..

- يا سيدي..

وأحس ابو جلدة ان وجهه قد التوى من حرارة الكف وتبعه كف آخر وثالث ثم قبضة يد على رأسه وركلة بالبسطار على قفاه ولم يتمالك نفسه ان صرخ:

- ما معي هوية يلعن دين هوياتكم ودين اسرائيل كلها.

وغامت الدنيا امام ناظريه واصبحت بقعة واحدة حمراء، وكانت تلك

الكلمات هي آخر ما وعى انه قال، وحين أفـاق وجـد نفـسه يابـساً كالقرميّة، متخشباً في زريبة ضيقة تشبه الاسطبل تفوح منهـا روائـح روث قذرة وأحس ان مكامن الألم في انحاء جسمه قـد بـدأت تتفـتح، وتلمس جبهته فوجد ان هناك حفرة حولها دم متجمد. وسبح امام مخيلته شريط متلاحق لما حدث له، ورغم كل ما مرّ به من ألم فقد أحس بـأن شيئاً واحداً هو ما يؤلمه حقيقة:

- ماذا ستقول أم سالم؟ لا شك في أن علي الخباص والمختار وابـو وضحة سيقهقون شامتين وسيقولون لها: "كم مرة قلنا لك ان عطا مخه ناشف وعقله شققة واحدة؟"

لعلهم يظنون ان الندم سيأكلني الآن لأنني لم آخذ الهوية، ولله انني لست نادماً الا على شيء واحد وهو انني لم استطع أن اضـرب ذلـك الجندي السفيه ولو كفاً واحداً، وعلى كل حال كل شيء غداً يهون وحين أخرج من هذه الزريبة اللعينة، فسأبصق عليهم وعلى كل الهويات.

ومن جديد راح ابو جلدة يتلمس الحفرة في جبهته ومن حولهـا بقـع الدم المتجمدة.

القدس 1967/10/13

نفس تنباك

ابتسمت حليمة ونكشت رأسها ثم تلفظت بصوت مسموع:

- من قتل نفسه بيديه لا أحد بكي عليه.

منذ الصباح الباكر وهذه العبارة تتردد على رأس لسانها ولكنها تظل حبيسة، وحتى حين غابت شمس هذا اليوم واحست حليمة بأن رجليها قد سقطتا من الوقوف وراء الجدار والتطلع إلى الطريق، كانت بعض الشكوك الطيبة تراودها في قضية تاخر سلمان كل هذه المدة، وحين قالت لها سعدية أثناء تناولهما طعام الغداء:

- ما يدريك أن أبي يتلوى الآن في السجن؟

- السجن؟

زعقت في وجهها بانفعال:

- بلاء يأكل لسانك الوسخ، يا بنت فال الله ولا فالك.

فانكسفت سعدية وتوقفت اللقمة في بلعومها وانقطعت انفاسها. وواصلت حليمة سيل شتائمها.

- لسانك الطويل لا ينطق إلا بالسوء.

قالت سعدية وهي تبلع ريقها:

والله ما قصدت إلا الخير يا أمي، والا فكرك اين ذهب أبي؟

ردت حليمة بلهجة تعمدت ان تكون وعرة وفيها اعتداد سخيف:

- ابوك معزوم عند اصحابه الأفندية!

- وهل لأبي أصحاب أفندية من أهل القدس؟

- نعم يا جاهلة؟ لأبيك اصحاب أفندية من زمان، يوم كان يبيع الحليب في المدينة.

وتنهدت حليمة بلوعة صادقة. يا الله على تلك الأيام يوم كان سلمان يركب الحمارة الخضراء ويضع في الخارج عيارين حليب، كان يعود قبل الظهر لأن صاحبه أحمد صدقي كان يشتري كل الحليب دفعة واحدة، كان الخير علينا مثل المطر وكنا في الف نعمة.

قالت سعدية وهي تحدق في امها ببلاهة واستغراب:

- وهل تظنين ان أبي قد نام الليلة الماضية عند احمد صدقي؟

- قالت حليمة:

- أحمد صدقي مات من زمان ربما نام أبوك عند صديقه الكندرجي.

وزغردت فرحة صغيرة في عين سعدية.

- إن شاء الله يكون قد نام عنده، ويحضر لي معه مشاية حديد.

وقهقهت سعدية:

- مشاية حديد؟

وضحكت حليمة وهي تتصنع الكبرياء والرزانة:

- ليس هناك احذية حديد يا ابنتي، ولكن اباك ذهب ذات يوم إلى صاحبه الكندرجي وطلب منه ان يصنع له حذاءً من حديد.

- وهل صنع؟

- لا لقد ضحك منه الكندرجي ومنذ ذلك اليوم وأهل البلد يتندرون على سلمان قائلين:

- أين بسطار الحديد يا سلمان الهرش؟

وانقطع الحديث مرة واحدة وبدت هذه الدعابة نكتة قديمة سئمت حليمة تكرارها بالاضافة إلى انها جاءت هذه المرة في غير موضعها ومن جديد امتلأ وجه حليمة بالتجهم، فسلمان لم ينم خارج البيت طوال حياته وهو بالتأكيد لن ينام عند أي كان في مثل هذه الظروف، فحتى المختار الذي كان لا يأويه بيته ليلة واحدة في الشهر أصبح بعد الاحتلال لا يجرؤ ان يفارق بيته بعد صلاة العشاء.

ورغم كل النوايا الحسنة التي حاولت أن تجعل منها مبررات لعدم عودة سلمان إلى البيت فقد غلب عليها هي نفسها الفال العاطل وراحت تتكلم بصوت مسموع:

- من قتل نفسه بيديه لا أحد يبكي عليه. فمنذ أكثر من شهرين وجلد سلمان يقرصه وهاجس شرير يلحُّ عليه في زيارة القدس حتى يتبرك برؤية الصخرة والحرم ويتجلّى على نفس تتباك في مقهى الباشورة. وحين كانت حليمة تحاول أن تبعد عنه هذه النوايا المغامرة كان يرشوها قائلاً:

- يا امرأة والله الواحد اشتهى ان يشم رائحة الكباب المشوي، دعيني أذهب إلى المدينة واقسم انني سأحضر لكم سفودين كباب في رغيف من خبز الفرن.

ورغم أن ريق حليمة كان يتحلب عندما تسمع بالكباب، إلا أنها كانت تظل على إصرارها في منعه من الذهاب إلى القدس وتقول:

- كل همك ان تجعص على نفسك تتباك.
- والله يا امرأة انني مشتاق لرؤية القدس.
- يا سلام عليك! نسيت ان اليهود يلمّون الناس من الشوارع؟.. نسيت ما قاله علي الفار يوم ذهب إلى القدس قبل شهرين؟ وقال ان الجنود الاسرائيليين يتجولون في الشوارع بالمدافع وانهم قد ضربوا واحداً بالهراوات حتى صار دمه مثل السيل، ونسيت ما قاله المختار من أنهم اخذوا أولاد المدارس بالسيارات إلى السجن.

قال سلمان:

- يا امرأة لا تكوني عبيطة إلى هذا الحد، أنا أعرف اليهود من زمان، من قبل عام ثمانية واربعين، اليهود مثل الحية لا يلدغون إلا من اعتدى عليهم.
- وهل تظن يا سلمان أنَّ اولاد المدارس قد اعتدوا على الجيش حتى أخذهم إلى السجن؟
- طلاب المدارس جماعة زعران ويتدخلون في السياسة. والحقيقة أنّ حليمة وجدت نفسها عاجزة عن رد هذه الحجة فهي لا تفهم ما هي هذه السياسة وما معنى التدخل بها، وهي قد سمعت بنفسها المختار يتحدث عن ذلك لعلي الفار ويقول: إن الطلاب يتدخلون في السياسة. وطاف بذهنها تصور شبه معقول تخيلت

فيه ان السياسة قصر كبير محاط بالخدم والحراس ومحظـور دخوله على عامة الناس، وتمنت لو كان بامكانها ان تذهب إلى القدس لترى هذه السياسة وكيف يتدخل فيها لطلاب، ولم تلبـث ان قالت لسلمان:

- هل رأيت السياسة يا سلمان؟

قال سلمان بأبهة وغرور:

- يا امرأة السياسة حكم البلاد يعني الحكومة. ونحن ما ولنا ومـا للحكومة!

وأخيراً اقتنعت حليمة بضرورة ذهاب سلمان إلى المدينـة إلا انهـا منعته من ركوب الحمار قائلةً:

- اترك الحمار لعل وعسى.

فقال سلمان:

- لا داعي لأخذ الحمار ولكن لا تتركيه مربوطاً ودعـي سـعدية تخرج به إلى الخلاء.

وحين كان سلمان يغادر بوابة البيت كانت حليمة تودعه..

- لا تتأخر يا سلمان فالحالة خطرة والواحد لا يعرف ماذا يحدث.

ولكن سلمان تأخر ومرَّ أول يوم وثاني يوم، وسلمان لم يعد على غير عادته، وحليمة بدأت منذ عصر هذا اليوم تتحسب من كل قلبهـا عمّـا يكون قد حدث لسلمان، يمكن ان اليهود حبسوه، ويمكن انهم قتلوه، مـن يدري؟ وكان يعتريها أحياناً غضب شديد على سلمان لأنـه لـم يـسمع كلامها، ولأنه ظل يحلم بالذهاب إلى القدس ويجوب حارات القرية مثـل

الدجاجة التي تريد ان تبيض. ولم ينجبر خاطره إلا ليلة أن همَّ بالذهاب إلى القدس.

ورددت حليمة عبارتها المشهورة:

- "قاتل نفسه بيديه لا أحد يبكي عليه".

وقالتها هذه المرة على مسمع من سعدية وحين همت سعدية أن تسأل أمها عن مغزى هذا الكلام، كان سلمان يفتح الباب ويدخل البيت ثم يرتمي على الأرض دون كلام أو سلام وصرخت حليمة بلهجة فرح متهدجة يشوبها الخوف:

- جئت يا سلمان كفى الله الشر!

وتطلع سلمان ثم قال بتوجع:

- آه لو تدرين ماذا حدث يا حليمة لقد وقعت في ستين داهية، اليهود ملاعين الوالدين اهلكوا بدني.

- وماذا عملت هل تدخلت في السياسة يا سلمان؟

- ملعون ابو السياسة وأبو اهلها، طول عمرنا نمشي الحيط الحيط ونقول يا رب الستر، لكن مع اسرائيل ما في ستر.

- كيف وانت تقول ان اليهود مثل الحية لا تنهش إلا من ينهشها؟.

- الدنيا اختلفت اليوم، اسرائيل قعدت فوقنا وارهقتنا بظلمها وتريد ان تمنعنا من الذهاب إلى القدس.

- وهل منعوك من الذهاب إلى القدس؟

وفي هذه اللحظة كان المختارومحمد الأزعر وعلي الفار يدخلون البيت وصاح المختار بصوته الخشن:

- ها.. لقد عدت اخيراً يا سلمان اين كل هذه الغيبة؟ أظـن أنـك شربت عشرين نفس تمباك.

وأردف محمد الأزعر قائلاً: يا عمي سلمان الهرش صار شمّيم هواء ينام في القدس ويأكل في المطاعم ويدخن الأرجلية في الليل.

وقال علي الفأر:

- ولله أنا خايف انه قد نام في بيت خالته!

كان سلمان اثناء ذلك قد سلم عليهم وجلسوا وهم يتطلعون في وجـه سلمان حيث البقع الزرق حول عينيه والكدمات في وجهه، قال المختار: يظهر انك قد عملت طوشة وحبسوك.

قالت حليمة:

- اليهود ذبحوه وأهلكوا بدنه..

قال محمد الأزعر:

- لابد أنه تدخل في السياسة.

قال المختار:

- اسرائيل بلاء مقنطر ومن يتدخل في السياسة يحرقون انفاسه.

قال سلمان:

- يا جماعة اتقوا الله هل الذي يذهب إلـى القـدس يتـدخل فـي السياسة؟

قال المختار:

- هيه.. هيه.. ولله يا عمي أبو بسطار حديد صـار يفهـم فـي السياسية.. يا سلمان وحّد ربّك، نحن جماعة كل همنا أن نعيش. ما لنا وما للبلاد ومن يحكمها؟

قال سلمان الهرش في انفعال وحدة:

- يا رجل ألا تستحي أن تقول هذا الكلام، والاّ لأن اسرائيل تدفع لك مائة ليرة ثمن مخترة؟

ورد عليه المختار بغضب وشتيمة:

- صرت يا مصدي وطنياً!!

قال سلمان:

- نعم صرت وطنياً ويجب أن أصير، يا رجل ليلة ويوم وأنا تحت الضرب في السجن بدون ذنب.

قال محمد الأزعر وهو يضحك:

- أظن أن السجن والضرب كانا فقط لله تعالى.

قال سلمان:

- كل ما حدث انني بعد صلاة الجمعة خرجت مع الناس من الحرم وكنت أقصد مقهى الباشورة وقاطعه محمد الأزعر قائلاً:

- والاّ يا عمي حتى يشرب نفس تمباك.

وتابع سلمان، وفي الطريق ألقى أحد الناس أوراقاً مطبوعة ملأت الأسواق، فقلت لنفسي، سآخذ ورقة نقرأها في القرية ونرى ماذا فيها.

وما كدت أضع الورقة في جيبي حتى رأيت الشرطة تفتش الناس وتسوقهم إلى السيارات. واخذوني إلى السجن وهناك اهلكوا بدني وقالوا إني أوزع المنشورات.

قال المختار: يا رجل الله يهديك ولماذا تأخذ الورقة، ألا تدري أن هذه الأوراق منشورات؟!

قال سلمان:

- افرض انها منشورات هل يستحق رجل مثلي لا يعرف القراءة أو الكتابة كل هذا الضرب والسجن لأنه يحمل منشوراً؟ ثم إنهم هم الذين جاؤوا إلى القدس ولسنا نحن الذين أخذنا بلادهم!.

قال المختار بسخرية:

- مستقبلك أن تصبح زعيماً وطنياً ولكن يا خسارة لو أنك فقط تستطيع ان تلبس بسطار حديد.

قال سلمان:

- والله يا مختار ان اشكالك حرام أن يعيشوا، يا رجل اذهب إلى القدس وانظر إلى السجون المليئة بالناس.

وحين أحضرت حليمة الشاي كان المختار يتحدث عن أيام العز حين كان يفطر ويتغذى ويتعشى على المناسف مع الفرسان وينام ستة أيام في الأسبوع عند أجاويد القرية، أما علي الفار ومحمد الأزعر فقد كانا ساهمين يفكران في اللهجة الجديدة التي بدأ يتحدث بها سلمان.

وأما حليمة فقد أدركت لأول مرة أن أولاد المدارس ليسوا زعْرانَ كما يقول المختار.

القدس 7 تموز – 1978

في الطريق إلى القدس

المرة الوحيدة التي يذكر انه رأى فيها القلعة وباب الخليل كانت قبل خمس سنوات، حين اخذه ابوه إلى دائرة الشرطة في سجن القلعة من اجل ان يأخذوا بصماته ويمنحوه بطاقة الهوية، وهناك وقف لأول مرة امام المصور الشمسي الذي يضع قناعاً أسود طويلاً فوق آلة التصوير، وبعد ان استخرج له اربع صور سوداء عابسة بعشر قروش توجه الاثنان إلى دهاليز طويلة يصطف فيها أناس كثيرون، وعندما أخذ ضابط الشرطة بصمة يده سأله:

- ما اسمك يا ولد؟

فقال:

- محمد محمود احمد يا سيدي.

- عمرك؟

فاجاب عنه أبوه:

- 15 سنة يا سيدي.

ولما انتهى، أجلسه والده بجانب السور الذي أقاموه أمام باب الخليل ليفصل بين العرب واليهود وقال له أبوه:

- هذا السور يفصل بيننا وبين اليهود. وراودته نفسه أن يسأل والده عن اليهود، وهل لهم اذناب كما سبق وان سمع من

جدته؟، إلا انه سكت، وتمنى لو كان باستطاعته ان يتلصص عبر هذا الجدار السميك لعله يرى يهودياً، ولكن ذلك كان مستحيلاً، وعندما احضر والده رغيفين من خبز المدينة ونصف رطل من العنب، انهمك في تناول غدائه ونسي أن يسأل والده عن اذناب اليهود.

وبعد أن انتهت حرب حزيران بعدة شهور قال له والده:

- العمل في الارض ما عاد ينفع، اذهب واشتغل عند اليهود، فهم يدفعون عشر ليرات في اليوم.

نهض محمد محمود مبكراً ورشق على وجهه حفنة من الماء البارد وتناول صرة الخبز التي جهزتها له امه وقال:

- يا الله رضاك ورضى الوالدين.

كان يتمنى ان يرافق أحداً من أهل القرية، وحدث نفسه: "في الطريق إلى القدس سوف ألحق بأحدهم أو يلحق بي أحدهم"، وظل طيلة الطريق يلتفت وراءه لعله يرى احداً ولكن عبثاً. وارتعب، وهزت بدنه قشعريرة وهو يتصور نفسه يعبر باب الخليل إلى اليهود بمفرده، صحيح ان اليهود لهم أيدٍ وأرجل ووجوه مثلنا وليس لهم أذناب، ذلك ما أكده شباب القرية الذين ذهبوا للعمل عند اليهود، إلا انه كان خائفاً ووحيداً وغريباً.

كانت الشمس قد ارتفعت في السماء عندما عبر باب الخليل باتجاه الغرب وقد تعمد ان يتلكأ قرب الباب حتى الضحى فقد ظل واقفاً إلى الجانب الشرقي من الباب الذي صار مفتوحاً تماماً ونظيفاً، ويمتد عبر ارضيته اسفلت لامع وأشد نعومة من المصطبة التي ينامون عليها، وقد استمتع بمراقبة افواج العابرين من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى

الشرق، وقد لاحظ ان اكثر العابرين من الغرب إلى الشرق نساء عجائز يحملن سلالاً فارغة ورجال يلبسون جلابيب سوداء مثل الرهبان، إلا أن لهم سوالف طويلة تتدلى على جوانب رؤوسهم ذكرته بالشعر الذي يتدلى من لحى الماعز، إلا انه دفع عن خاطره هذه الفكرة مخافة ان يدري بها أحد منهم فيعاقبه عليها، وكان محمد محمود يتابع اثناء ذلك افواج العابرين من الشرق إلى الغرب متعجباً من أن احداً منهم لا يداخله الخوف من الذهاب إلى الجانب الغربي وتمنى لو يتعرف على واحد منهم ليعبر معه إلى ذلك الجانب.

حين تجاوز الباب عدة خطوات لاحظ ان هناك موقفاً كبيراً للباصات وأن هناك ثلاث دروب واسعة تتفرع من الباب: إحداها تتجه شمالاً والثانية غرباً والثالثة جنوباً، ورأى لافتات مزروعة في جوانب الطرق، وقد لفت انتباهه ان اللافتة الشمالية مكتوب عليها شارع يافا والجنوبية بيت لحم، والغربية شارع الملك جورج، واحس بأنه يمتلك ثقافة عالية وهو يتهجى حروف الكلمات ويقرأ اسماء الشوارع، وحمد لله على انه قد ظل في المدرسة حتى الصف الخامس، فها هو يستطيع ان يقرأ بسهولة كل الاسماء ويتعرف على الاماكن.

وجد رجليه دونما قصد تقودانه في الشارع الجنوبي فاستراح وهو يهبط هذا الشارع ببطء محدقاً في كل اتجاه، هذه هي القلعة وأسوار القدس من الناحية الغربية جدران شديدة الارتفاع مغبرة وكالحة اللون، نبتت بين مداميكها اعشاب كبيرة متدلية، وهذه بقايا بنايات يبدو انها تهدمت في الحرب الاولى التي يتحدثون عنها. وظلت مهدمة إلى هذا الوقت، وهذه بركة قديمة مليئة بالحجارة والتراب والانقاض لعلها بركة عين السلطان او بركة ماميلا التي طالما تحدثوا عنها، وهذه آثار طريق

قديمة يبدو انها كانت تتحدر منذ عام ثمانية وأربعين بمحاذاة هذه الطريق الجديدة التي يعبرها، إنها طريق مهترئة مخرمشة مثل بسطار الراعــي، واحس محمد محمود بمتعة عجيبة وهو يتعرف على هذه الاشياء، وكأنه يتذكر أشياء كان يعرفها منذ زمن قديم، وعندما صحا من استغراقه وجد نفسه يصعد طريقاً إلى مرتفع يكاد يوازي أسوار القدس مــن الجانــب الغربي، ووجد نفسه امام قطعة من الحجــر الابــيض المــدقوق تقــف منتصبة وكأنها تريد أن تطاول أسوار القدس، ووجد عند قاعدتها قطعــاً كثيرة من الحديد ذات أشكال وأنواع مختلفة وقد جمعت كلها بعضها فوق بعض واستطاع ان يميز من بينها دواليب سيارة ومقوداً، وزناد بــارودة انكليزية، وقطعة رمح، وصفائح حديد من آلات مختلفة، اقتــرب منهــا وأخذ يتحسسها ولفت انتباهه كتابة على قاعدة الحجر الذي يرتفــع إلــى فوق، كتابة مدهونة بلون أسود وشبيهة بالكتابات التي تنقش على شواهد القبور، وقد حاول ان يقرأها ولكنه وجدها صعبة للغاية، فقرر بينه وبين نفسه أن يظل يحللها ريثما يستطيع قراءتها ولا بأس ان ينــسى حكايــة العمل والعشر ليرات التي سيطالبه بها أبوه مساء هذا اليوم.

وأخيراً استطاع محمد محمود أن يقرأ بعض اسطرها ــ "ويصنعون من رماحهم سككاً ومن سيوفهم مناجل ولا تعلن امة على اخرى الحرب فيما بعد" ــ ولكنه لم يتمكن من فهم أي معنى لهذا الكلام، الا ان كلمــة الحرب فيما بعد، جعلته يفكر ان حرباً اخرى لا بد أن تقوم وقال:

حتى حروبهم يكتبون عنها على الجدران والحجارة.

الى الجانب الغربي من التمثال وعلى بعد خطوات وقف محمد محمود مشدوهاً كأنه حمار المختار، فقد وجد امامه عــدداً هــائلاً مــن الطــرق واضواء الكهرباء الحمراء والخضراء، تضي جوانب الطرقات، ولاحــظ

ان اللافتات كلها مكتوبة بحروف لا يستطيع قراءتها، وان الناس يعبـــرون الطرقات بانتظام، وان الشوارع مرتبة وواسعة ومقسمة وان الناس يمرون صامتين ولا يكلم احدهم الآخر، وقرر ان يعبر الـــشارع إلـــى الجانـــب الغربي، فتسلل من بين صف الناس الواقفين وعبر الشارع وحين اصـــبح على الجانب الآخرمنه وجد شرطياً بانتظاره، كلمه الشرطيّ ولكنه لم يفهم شيئاً، تركه الشرطي وواصل محمد محمود مسيرته وهو يتلفت ويتعـــرف على كل نقطة يعبرها حتى يكون بامكانه ان يعود من حيث أتى.

لاحظ محمد محمود ان الشارع الذي يسير فيه لا نهاية لـــه، ولكـــن الذي استرعى انتباهه حقاً ان بعض الفتيات يعبرن هذا الشارع وهن شبه عاريات الا من سروال صغير، وتحمل كل واحدة منهن حقيبـــة بيـــدها، فقرر أن يكتشف هذا المكان المريع الذي تقصده هذه الفتيات وقال:

سوف احدث اهالي القرية بحكاية أكثر غرابة من حكاية علاء الدين والمصباح السحري أو مغامرات الشاطر حسن.

ومن بين أسلاك شائكة رأى محمد محمود ان هناك بركة ماء كبيـــرة محاطة بالبلاط من جميع جوانبها، وان هناك مجموعـــة مـــن الـــشباب والفتيات يسبحون ويغوصون في هذه البركة، ورأى ان هناك سلماً يرتفع فوق البركة وفوقه خشبة طويلة رفّاسة يقفزون من فوقها إلـــى المـــاء، ورأى قريباً منه وبجانب الاسلاك من الداخل بعض الفتيـــات يتـــسطحن فوق العشب، بعضهن يدخن والبعض الآخر يقـــرأ، وتعجـــب كيـــف لا تستحي هذه الفتيات من الجلوس هكذا بالسراويل القصيرة مع الـــشبان، ولكنه تذكر ما كان يقوله الناس في القرية عن النساء اليهوديات وكشفهن لعوراتهن، ولكن الذي أثار دهشته أكثر من ذلك، ان أولئك الفتيات يجدن السباحة اكثر منه ومن كل رجال قريته، صحيح ان معظم الرجال فـــي

القرية يتباهون بأنهم ابطال سباحة، ويقولون ان السباحة ثلاثة اربـاع المراجل، وكان بعضهم يتباهى بانه يستطيع ان يقطع "الشريعة" في كوانين وهي فائضة، ولكن ان تعرف الفتيات السباحة!! فذلك امر يثير العجب والاستغراب. وحاول محمد محمود ان يتصور احدى فتيات قريته وهي تقف بالسروال على حافة الخشبة الرّفاسة وتقفز إلى الماء ولكنه لم يستطع ان يجد مكاناً في ذهنه لمثل هذا التصور.

ظل محمد محمود متكئاً على الاسلاك وهو يراقب افواج الفتيات يسبحن او يتمرغن على الاعشاب، وفجأة داخله خاطر بدا لأول وهلة شبه مستحيل، ولكنه اخذ يقتنع به رويداً رويداً (ماذا لو تسللت عبر هذا السياج وصعدت إلى الخشبة الرفّاسة؟ هل البنات اليهوديات اكثر شجاعة مني؟ ان القفزة من فوق هذه الخشبة أهون بكثير من القفزات التي كنت أقوم بها في بئر الشيخ اسعد! ثم انني سوف اقفز إلى فوق بقوة اكثر وسوف أُري هؤلاء مراجل العرب!!) ولكنه خشي ان يراه احد وهو يتسلل عبر السياج، وفكر ان احداً قد يسطو على ملابسه عندما يتركها، ثم فكر في الأهم من كل ذلك وهو أن سروال القماش المالطي الطويل الذي يرتديه سوف يكون قبيحاً بالقياس إلى السراويل الأنيقة التي يلبسها هؤلاء (وما يدريني) انني اذا دخلت وانهمكت في السباحة اتأخر عن العودة إلى القرية وأنسى نفسي؟ لا لن أتأخر! ثم ماذا سأخسر لو سبحت؟ لقد ضربها ابو الحصين وعشّرت وصرت داخل القدس وعلي أن أجرب حظي في السباحة!) ولم ينتبه إلى نفسه إلا وقد تسلل إلى الداخل ولبد قرب السياج واخذ يتطلع ملياً في جمهور السابحين، ثم خلع ملابسه وكومها على الحشيش إلى جانب جذع شجرة تقف بمحاذاة السياج، وسحب مطاطة حزام السروال وكأنه يقيس متانتها، فكثيراً ما كانت تفلت

مطاطات سراويل الأولاد وهم يسبحون في بئر الشيخ اسعد، ولكن هـــذه البركة ليست كبئر الشيخ أسعد، كما أن جمهور الـــسابحين هنـــا لـــيس كجمهور الأولاد فوق خرزة البئر، وتلمس أطراف سرواله التي تحـــاذي ركبيته، ولفت انتباهه قتامة لونه والبقع الـــسوداء التـــي تركتهـــا عليـــه البراغيث، الا انه قال:

- بعد قليل سوف تنبل أيها السروال وتنظف!!.

وبسرعة عجيبة انطلق محمد محمود يعدو إلى السلم وصعد إلى الخشبة الرّقاسة وبقوة وكما يقفز الكلب الأجرب هرباً من القراد قفز مـــن فـــوق الخشبة وهوى إلى داخل الماء، وغطس، يسبح تحت المـــاء حتـــى كـــاد يختنق، وعندما أطل برأسه كان بعيداً عن حافة البركة، فـــسبح واقتـــرب حتى امسك بالحافة تحت السلم، وتطلع إلى جمهور السابحين داخل وخارج البركة، وكأنه يريد أن يستجلي آثار قفزته الهائلة على وجـــوههم، ولكـــن ذهولاً مريعاً عقد لسانه حتى انه لم يصدق نفسه، كان الجميع رجالاً ونساء يشيرون اليه وهم يضحكون وبعضهم كان يصفر والبعض الآخـــر كـــان ينادي بكلمات لم يفهمها، فحسب لأول وهلة انهم يتعجبـــون مـــن قفزتـــه المدهشة، إلا أن ضحكهم وتأشيرهم إليه جعله يمد يده ويتحسس ســـرواله فقد ظن ان مطاطة السروال قد فلتت في الجو وأنهم يضحكون على ذلك، ولكنه وجد ان مطاطة السروال ما تزال في موضعها فقال لنفسه:

- لعلهم قد اغتاظوا من هذه القفزة الرائعة التي قفزتها. وواصل:

- دعهم ينفلقون.

وغطس برأسه تحت الماء وسبح باتجاه الجانب الآخر مـــن البركـــة وحين وصل امسك بيده الحافة ووقف يستريح.. وتطلع مرة أخرى إلـــى

جمهور السابحين. وجدهم قد تجمعوا رجالاً ونساء عند الحافة التي يتكئ عليها، ولاحظ أن بينهم رجلاً يرتدي ملابس الشرطة. قال له الشرطي بغضب كلمات لم يفهمها، وأشار اليه ان يخرج من الماء.

(والله وقعت يا محمد محمود مثل وقعة السمكة التي أكلت الطعم وبالت على السنارة، ولكنك تستاهل فقد سعيت مثل الحمار إلى حتفك بظلفك).

حين خرج من البركة كان سرواله المالطي الطويل يزداد قتامة، ويلتصق بجلده، وضع الشرطي العصا في ظهره، وسمع كلمات حفظها لكثرة ما رددها جمهور السابحين من وراءه:

- عربيم حموريم..

اقتاده الشرطي إلى جهة اخرى بعيدة عن الجهة التي دخل منها، ولكنه أشار إلى الجهة التي كوم فيها ملابسه، وتوجه رغم لكزات العصا المتتالية في ظهره إلى كومة الملابس، وحين هم بارتدائها منعه الشرطي، وأجبره على التوجه إلى الجانب الآخر حيث المدخل الرئيسي للبركة، وهناك وجد شرطياً آخر توجه اليه بالحديث:

- من اين انت؟

قال محمد محمود:

- من القدس!

- ماذا تفعل هنا؟

- والله يا سيدي جئت اشتغل ولكن الشيطان قادني إلى هذا المكان!!

(يا ليتني فارقت بالتي هي احسن! كل هذا من اجل ان ابين لليهوديات مراجل العرب! ملعون ابو لحية والد..)

وهوت يد الشرطي على خد محمد محمود الأيسر ثم هوت مرة أخرى على خده الايمن وقال له:

- يلّه البس وروّح بيتك.

وحين كان محمد محمود يعبر باب الخليل إلى الجانب الشرقي من القدس أخذته الدهشة! إذ كيف قادته قدماه إلى هذا الباب.. وكيف انه لم ينس رغم التواء صدغيه أن يسلك الطريق الصحيح، وتحسس سرواله الذي بدأت تنز منه المياه إلى ملابسه الخارجية، وحمد الله على أنه قد نجا من هذه الواقعة التاعسة بكفين فقط! وقال لنفسه:

يا لحية التيتي يا ليت مثل ما رحتي جيتي!!

ولكنه قرر ألا يخبر أحداً من أهل القرية بما حدث له، سأقول لهم انني ذهبت أبحث عن عمل ولكنني لم أجد..

الا ان ضحكات السابحين وصراخ الشرطي ظلا يقرعان سمعيه حتى بعد أن وصل إلى القرية.

القدس تشرين الثاني 1967

مقهى الباشورة

حين تسلم أبو بلطة الاشعار الثاني من بلدية (اورشليم).. بضرورة تسديد مبلغ الثلاثة آلاف ليرة اسرائيلية، وهي الضرائب المترتبة عليه خلال السنتين الماضيتين أيقن حقيقة أن كل ما أكَلَهُ بيضاً سوف يخرجه فروجاً، وأحس فجأة احساساً صادقاً بغبائه المطلق طوال هذه الفترة، فحين قال له محمد الأزعر ذات يوم:

- مكاسبك من الاحتلال مثل الفجل، أوله منافع وآخره مدافع..

ضحك المعلم ابو بلطة حتى انشلقت انياعه وقال:

- طول عمرك فلاح لا تحلم إلا بالفجل..

قال الأزعر:

- نهاية الثلج يذوب ويظهر الذي تحته.

رد عليه أبو بلطة باستعلاء:

- انت رجل غاوي فقر، وكل همك أن نظل مثلك لا يرى الواحد منا قرشاً في جيبه على مدار السنة.

- طيب انبسط يا معلم، فالقروش الآن تملأ جيوبك.

وقد انبسط المعلم أبو بلطة إلى حد لم يصدق معه أن دخله سوف يرتفع بهذا الشكل، فهو لم يحلم على الاطلاق بأن تصل أرباحه اليومية خمسة دنانير، فبامكانه الآن أن يمدد كرشه أمامه حتى يلامس الطاولة،

ويتناول غداءه في المقهى على راحته، ومن ثم يستمتع بتدخين الأرجيلة، وأحياناً يأخذ تعسيلة بعد ظهر كل يوم.

لقد انفتحت على المعلم أبو بلطة أبواب العمل الواسعة وتبحبحت معه الأحوال، حتى انه شغل نادلاً، ووضع صبيّاً آخر يعاون في تقديم الطلبات للزبائن، وصار في ميسوره ان يجلس بين الحين والحين وراء طاولته يجمع فيش الطلبات الحمراء والصفراء في جوارير المكتب، ويصرخ بصوت معلم حقيقي في عمال المقهى، ثم انه أخذ يتطلع إلى تشغيل نادل جديد يعهد اليه بمهمة تقديم الأراجيل وتحضير أنفاس التمباك. إلا أنه فضل ان يقوم مؤقتاً بهذه المهمة ريثما تتحسن معه الأحوال تماماً.

وقد مرت على المعلم أبو بلطة أيام مثل القطران، كان يفكر فيها ان يبيع المقهى الذي ورثه أباً عن جد، إلا ان معارضة زوجته كان سبباً أساسياً في عدم تخليه عن هذا المقهى، وقد فكر المعلم أكثر من مرة ان يعمل في تجارة الخردوات والملابس العتيقة، لا سيما بعد ان اكتسحت الباشورة كل الدكاكين من حوله، ولولا ان جيرانه من اهل الباشورة ألحوا عليه في ان يظل يقدم لهم طلبات الشاي والقهوة والأراجيل أحياناً لكان المقهى قد تحول إلى مكان لبيع الخردوات.

فبعد ان سقطت حارة اليهود بيد العرب في حرب عام ثمانية وأربعين تحولت سوق المقهى بأكملها إلى باشورة[1] وانقطعت افواج الذاهبين من وإلى حارة اليهود، وقد مرت فترة طويلة والحارة شبه انقاض، حتى عادت اليها الحياة مرة أخرى عندما استوطنها اللاجئون وجعلوا اسمها

---

[1] الباشورة: أحد أسواق القدس القديمة، تباع فيه الخردوات والملابس العتيقة.

حارة الشرف، ومع ذلك فقد ظلت أحوال المقهى شبيهة بأحوال دكاكين الخردوات تزدهر يوماً وتنتكس في أغلب الأيام.

إلا أن حرب حزيران جاءت فيما يبدو لتعيد مياه المقهى إلى مجاريها، فقد أصبحت حارة اليهود بين يوم وليلة مزاراً حاشداً، وعادت الأفواج تملأ الشوارع بعضهم ينحدر شرقاً إلى حائط المبكى وبعضهم يتوجه جنوباً إلى حارة اليهود، واتخذ المقهى من جديد موقعه الاستراتيجي السابق على تقاطع الأسواق، فهو يطل على سوق العطارين وسوق الصيّاغ وطلعة باب الخليل، ويطل على سوق العيش وباب السلسلة وطريق حائط المبكى ومن بابه يمر الذاهبون إلى حارة اليهود.

في الأيام الاولى بعد الاحتلال واجه المعلم أبو بلطة الكثير من المصاعب حتى انه أغلق مقهاه اكثر من مرة، فقد كان يستصعب على نفسه ان يقدم الطلبات للزبائن اليهود:

- أنا أقدم الطلبات لليهود؟ ابو بلطة الذي كان يغلق كل حي محنيودا[1] قبل عام ثمانية واربعين بعصاه، ولا يظل يهودي واحد يجرؤ على عبور الشارع، أنا ابو بلطة الذي كان ينش مئة يهودي بالعصا في حي موشيرم[2] اقدم الطلبات لليهود؟

إلا أن ابو بلطة كان يحار بشدة حين يرى أن الأحوال قد تغيرت في هذه الأيام، وان الذين كان يسوقهم بالعصا اصبحوا الآن يخبطون على رقبته ويجلسون في مقهاه وهم يضعون رشاشات العوزي على الطاولات والكراسي. ولكنه مع ذلك كان يظل مقتنعاً بأن في هذه المعادلة خطأ ما

---

[1] و[2] محنيودا وموشيرم حيان معروفان من أحياء القدس المحتلة منذ عام 1948.

يصعب عليه ادراكه فما الذي تغير؟ وأين ذهبت (مراجل) العرب أيام ثمانية واربعين؟

أخيراً وجد ابو بلطة ان لا مناص له من تقديم الطلبات لليهود، ليس ذلك فحسب، ولكنه حين توسعت مع الأمور وكثر الزبائن استأجر صبياً بثلاث ليرات ليقدم الطلبات ويجمع الفناجين الفارغة.

وقد تردد المعلم كثيراً قبل ان يقدم على تعاطي السلع والمشروبات الاسرائيلية في قهوته، فقد ظل ابو بلطة مدة طويلة وهو يصر على تكديس صناديق الصفا والاورانجو بينما اليهود لا يطلبون منها شيئاً، وزيادة في النكاية كان هؤلاء لا يشربون الشاي أو القهوة أو اليانسون، فمعظمهم كان يجلس ويطلب الارتك أو العسيس[1] وبعضم كان يطلب مكابي اونيشر[2]، وكان الكثيرون منهم يغادرون المقهى دون أن يشربوا شيئاً، وقد تحمل ابو بلطة كل ذلك في بداية الأمر، ولكنه اضطر اخيراً أن يقدّم الارتك والنيشر وا لعسيس، ورغم انه لم يستطع ان يهضم في بادئ الأمر هذه الأشياء إلا ان تحسن أحواله التدريجي جعله يتخلى في النهاية عن مثل هذا التزمت.

بعض الزبائن يرتاح لهم المعلم ويحرص على مجاذبتهم الحديث والجلوس اليهم كلما سنحت له الفرصة، انه يرتاح من اعماقه لشلة المختار والشيخ بهلول ويرتاح بدرجة أقل لشلة الاستاذ سعيد التي تتحلق عصركل يوم على طاولة "الهاند" وتظل حتى آذان العشاء، وقد لاحظ المعلم ان هذه الشلل قد تبعثرت مثل حزمة البعر بعد الاحتلال مباشرة،

---

[1] الارتك: نوع من البوظة الاسرائيلية، العسيس: كازوز.

[2] مكابي ونيشر: نوعا بيرة.

حتى بدأ شملها يلتم من جديد بعد عدة شهور، إلا ان امراً حيّر المعلم واستحوذ على كل انتباهه وتفكيره، فقد أحس بخبرة صاحب المقهى المتمرس، ان شللاً جديدة قد أخذت تغزو المقهى، ولاحظ ان بعض هذه الشلل يكون مصحوباً بالبنات وان هناك اشياء تدور بالهمس فيما بينهم، حاول ان يتسع لما يقول هؤلاء وهو يقدم الطلبات أو يصلح النار على الأراجيل، فهو يعرف العبرية منذ ما قبل عام ثمانية واربعين إلا انهم كانوا يغيرون لهجة احاديثهم عندما يلحظون اقترابه، رغم كل ما بذله من جهد ليخفي معرفته باللغة العبرية، وحين اطلع الاستاذ سعيد على هذا الأمر قال له الأستاذ:

- واحد من أمرين: اما نسوان أو حشيش.

قال المعلم:

- الله لا يرد لهم سفرة، هلاك يهلكهم..

ولكن المعلم بدأ يتحسب من عواقب هذه المسألة، فقد تقوم الشرطة بملاحقتهم؟ واذا اشتبهوا بالمقهى فانهم سوف يراقبونه. وسوف ينكدون علي عيشتي.. أو من يدري فقد يغلقون المقهى؟ ولكن ما ذنبي أنا؟ هل استطيع ان امنع الزبائن من الجلوس؟ وبأي حق استطيع ان اطردهم من المقهى؟ قد يقولون للشرطة ان هذا يطردنا لأننا يهود وسوف يخربون بيتي بهذه الطريقة.

إلا أن المعلم كان ينصرف عن التفكير في ذلك بالجعصة وراء المكتب وتدخين الأرجلية أو بتبريم الشنبات وهو يحصي الفيش، او الاستماع من كل قلبه حين يلتم شمل المختار وبطانته أبو الفهد والشيخ بهلول وعلي الفار ومحمد الأزعر والمعلم الأكتع صاحب محل

الخردوات المجاور لأحاديثهم، وقد اعتاد هؤلاء ان يتحلقوا حول الطاولة الشرقية في المقهى، وكان المعلم يحرص على خدمة هذه الشلة بنفسه، يروح ويجيء من حولهم يصلح الأراجيل ويقدم القهوة ويرفع (البوش) ولا يفوته ان يعلق على احاديثهم أو يقف ليصغي إلى المشاحنات التي كانت تدب بين المختار ومحمد الأزعر حول مصير الاحتلال واعتقاد محمد الأزعر الجازم بأن اليهود لا بد وان يخرجوا من البلاد كما خرجوا من غزة عام ستة وخمسين. وكثيراً ما كانت قهقهات المعلم وضحكاته العكرة التي تشبه قرقعة (السناسل) تسترعي انتباه رواد المقهى، وتقطع بشكل خاص على شلة الاستاذ سعيد استرسالها في اللعب وعادة ما كان المعلم يتوجه اليهم قائلاً:

- لا تؤاخذنا يا استاذ سعيد، ماذا يأخذ الانسان من هذه الدنيا؟ يا ليت ان الحياة نصفها ضحك ونصفها تكشير.

فيرد عليه الاستاذ سعيد:

- اضحك يا معلم عن عام كامل، فقد يأتي يوم لا تضحك فيه على الاطلاق..

ومشكلة المعلم مع الاستاذ سعيد ان كلامه ملغز وغامض وتفوح منه دائماً رائحة السياسة، وماذا يهم الأستاذ سعيد، فالمعلمون يجلسون هذه الايام على المقاهي يلعبون الورق ويتقاضون رواتبهم من عمان، وكان ابو بلطة يتخلص من ورطات هذا الحديث بالتظاهر بعدم الفهم ويقول:

- انتم جماعة مثقفون وأنا رجل مسكين.

- البركة فيك يا معلم أنت أبو الجميع.

- الله يعزك يا استاذ.

- أظن أن الحالة صارت فوق الريح..

- يعني..

- بكرة ينتهي شهر العسل وترجع الأحوال كما كانت.

- هل تعتقد أن ذلك سيحدث؟

- نعم يا معلم، بكرة اصحاب المحلات في القدس سوف يبيعونها من اجل تسديد الضرائب.

مثل هذه الأقوال كان يضحك لها المعلم ولا سيما حين كان يرددها على سمعه المعلم الأكتع صاحب محل الخردوات المجاور، ورغم المرارة التي كانت تملأ لهجة الأكتع وهو يقولها إلا أن المعلم كان يستبعد تماماً امكانية حدوث مثل هذا الأمر، وكان يعزي نفسه في لحظات الاقتناع بصحة اقوال المعلم الأكتع بأن هذه المصيبة اذا وقعت فهي بالتأكيد سوف تقع على الجميع، ولن يكون أبو بلطة وحده الذي سيدفع الضرائب.

- يا ولد حط رأسك بين الروس وقل يا قطّاع الروس، وعلى فرض أنهم قاموا بجمع الضرائب فكم ستكون الضريبة؟ مئة ليرة أم مائتان في السنة.. انها لا تساوي شغل خمسة أيام.

لم يكن المعلم يتصور أن تصل الضريبة هذا الرقم المذهل، ثلاثة آلاف ليرة مرة واحدة، لا شك في أنهم زادوا صفراً عليها بالخطأ. حين تسلم الاشعار الأول انعقد لسانه، بادر بالتوجه إلى البلدية وراجعهم حول الرقم، اكدوا له ان الرقم صحيح وان التقدير فيه مراعاة زائدة له، أكد

لهم انه لم يشتغل طيلة العامين الماضيين بنصف هذا المبلغ، وانهم بهـذا التقدير يطعمونه الكثير من الجوز الفارغ، ولكن عبثاً، ان أحداً لم يستمع له. سأل جيرانه واصحاب المقاهي الأخرى، فتأكد له ان هناك ارقامـاً مشابهة وبعضها يزيد عن الرقم الذي طلب منه، قالوا له:

- وهل تنوي ان تدفع، يا رجل حط في الخرج..
- المسألة ليست مزاحاً، وهذا مبلغ كبير.

واخيراً فعل مثل الكثيرين، رمى الإشعار في أحد جـوارير مكتبـه وتناسى المسألة نهائياً، ولكن الأفعى لدغته مرة أخـرى حينمـا تـسلم الإشعار الثاني، سأل الأستاذ سعيد:

- ما رأيك يا أستاذ، انهم يطلبون ثلاثة آلاف ليرة ضريبة؟؟
- لو كنت مكانك لرفضت ان أدفع..
- انهم يقولون في الإشعار ان المبالغ تتضاعف كلمـا تـأخرت.. والله إنني خائف ان الواحد منا سيبيع بنطلونه آخر النهار..
- تستطيعون ان تنظموا ضراباً..
- اضراب؟ ومن تظن انه يجرؤ على الاضراب؟
- ماذا تخسرون لو اضربتم؟
- والله مسألة تستأهل التفكير..

كان الشيخ بهلول يجلس في زاوية المقهى مطرقـاً، وتبـدو عليـه علامات التفكير والاستغراق. فكر أبو بلطة ان من المناسب أخذ رأيه في هذه المسألة قال المعلم:

- والله يا شيخ بهلول صرنا مثل القرد الذي أكل الحصرم..

- مالك يا معلم؟ كفى الله الشر!

- ثلاثة آلاف ليرة يا شيخ؟ من اين لي ثلاثة آلاف ليرة ضريبة؟

- ربك يفرجها، الفرج قريب، والنصر للعرب.. الليلة جاءني الخضر الأخضر في الرؤيا، وقال لي إن النصر للعرب بإذن الله..

- ومتى يكون ذلك يا شيخ بهلول؟؟

- اصبر يا ولدي وابشر، انها قبل نهاية هذا الصيف..

- والله أنا شايف المسألة مطولة..

- ذلك لأن إيمانك بالله معدوم.

- يا شيخ بهلول، المهم، ماذا افعل بالضريبة؟

- انت حر.. كل واحد ينام على الجهة التي تريحه.

عبثاً. ليس هناك حل واحد معقول.. لو كان محمد الأزعر هنا لكان بالامكان العثور على حل، غداً او بعد غد يكون هنا وسأعرض عليه الأمر. الاضراب ليس سهلاً على الاطلاق. من الذي يجرؤ على المشاركة فيه؟ هل أقوم بالاضراب لوحدي؟ سوف يغلقون المقهى ويسوقونني إلى السجن. ولكن من اين أحضر لهم هذه الآلاف؟ حقاً لقد راحت أيام الجدعنة: لو ان الواحد منا ظل في فقره لكان اشرف له مئة مرة!!

كانت الحركة في المقهى قد بدأت تخبو، معظم الطاولات اصبحت فارغة، شلة الاستاذ سعيد تركت الورق مبعثراً على الطاولة ويبدو انهم دفعوا الحساب للنادل في اثناء انشغال المعلم مع الشيخ بهلول. في الركن

الغربي كان شابان يلعبان طاولة الزهر، ويبدو انهما على وشك الانتهاء. أحس المعلم أن المقهى كئيب ومعتم وان الكراسي جرداء عابسة وكأنها تعود لتوها من مأتم، وقد اعتاد المعلم ان يؤجر كراسي مقهاه للمآتم والأفراح فيما مضى. تطلع ناحية الشيخ بهلول الذي بدأ يعدل من وضع عمته الداكنة على رأسه، نهض وشد جبته على كتفيه وغادر المقهى دون ان يودع المعلم كعادته، وكان المعلم لا يأخذ منه ثمن الشاي الذي يشربه (لعنة الله عليك ايها الشيخ الأحمق، والله ان اشكالك حرام فيهم شربة الماء).

توجه المعلم بخطى متهالكة إلى الباب الشمالي، ألقى نظرة حزينة إلى دكاكين الخردوات، كان معظمها قد اغلق والبعض الآخر يوشك على الاغلاق، فَطِنَ إلى ان جاره المعلم الاكتع لم يزره هذا النهار، وود لو أنه يأتي فربما يكون عنده رأي ما في هذه المسألة، ولكن دكانة الاكتع كانت مغلقة.

غداً سنتحدث في الأمر، لاشك انه مثلي يتجرع مرارة الخازوق، انزوى المعلم وراء طاولته، وأخذ يحصي الفيش المكدسة في الجوارير، ورغم كثرتها احس المعلم بتفاهة المبلغ الذي سيأخذه بعد حين من النادل في مقابل كل هذه الفيش.

- أُحصد وادرس وكله في بطن بطرس.. ما قيمة هذه الأموال ما دمنا سندفعها ضرائب؟ حين قالت زوجتي: ما تأتي به الرياح تأخذه الزوابع.. ضحكت عليها؟ وقلت لنفسي: ما اصغر عقل المرأة، كل عشر نساء عقلهن في عقل دجاجة..

وانتبه المعلم فجأة على صوت جلبة وقرقعة كراسي، كانت شلة

الزعران قد بدأت تحتل الطاولة في الركن الجنوبي المعتم من المقهى، انهم دائماً يقصدون هذه الطاولة، كانوا ثلاثة شبان وفتاة، نفس الفتاة الشقراء ذات الأرداف المكتنزة والفستان الأحمر القصير جداً، نفس الوجوه ونفس الميعاد.

- لماذا لا يأتي هؤلاء إلا في ساعة متأخرة؟ وعندما نكون على وشك ان نغلق المقهى؟ لا شك في أنهم ينتظرون صاحبهم الخامس ماذا يفعلون عندي؟ هل صحيح ما قاله الاستاذ سعيد؟ سوف اراقبهم الليلة بكل انتباه. وان كانوا يتبادلون الحشيش حقاً فانني سوف العن اجدادهم وليكن ما يكون. دخل الشاب الخامس فانفردت وجوههم وافسحوا له مكاناً قرب الفتاة. اسند المعلم رأسه على راحتيه وترك كرشه يتدلى تحت الطاولة.
- سأراقب كل حركاتهم، ايديهم وارجلهم وحتى وجوههم وسوف ارى.. تطلع احدهم ناحية المعلم، فتظاهر ابو بلطة بالنعاس، وأسبل اصابعه فوق وجهه، صاح احدهم بالنادل:
- خمسة سكر قليل.

وظلت عينا المعلم تتلصصان من بين اصابعه، دس احدهم وهو الذي جاء اخيراً وجلس بجانب الفتاة، يده في جيب بنطلونه الخلفية، واخرج شيئاً ناوله للفتاة، قفز المعلم كما يقفز الكلب المسعور، وفي لحظة كان يتخطى كل الطاولات والكراسي ويقف فوق رؤوسهم.

صاح بهم:

- لقد رأيت كل شيء ولسوف اوقعكم في داهية لا تخرجون منها ابداً..

- ما لك يا معلم؟ هل جننت؟

- ما الذي اعطيته لها؟ حشيشِ؟

- وشرفك يا معلم علبة دخان.

- هل تظونني اعمى؟

- قال احدهم محتداً:

- وانت مالك؟ ماذا تريد منا؟

- هل تظنون ان قهوتي محششة؟

قال الاخير:

- اسكت يا معلم، ارجوك اخفض صوتك ونحن نرضيك.

- بماذا ترضونني؟

- خذ مائتي ليرة واسكت.

راود المعلم شعور ما بأن أيام الجدعنة التي كان يتحسر عليها قد عادت، احس ذلك بصدق من نظرات الهلع ولهجة التوسل والرجاء التي كانوا يخاطبونه بها، وهمّ إلى حين بأن يمضي معهم في هذه اللعبة القذرة حتى النهاية، ولكن إلى أين ستمضي به هذه اللعبة؟ تحسر على أيام جدعنته الماضية وهو يرى نفسه الآن وقد اوشك ان يصير حشاشاً وربما في النهاية مديراً لماخور.

فجأة قفزت إلى ذاكرته عبارات الأستاذ سعيد "ماذا تخسرون لو

اضربتم؟؟" حقيقة ماذا نخسر لو فعلنا ذلك، وحاصرته من كـل جانـب نظرات المعلم الاكتع الغاضبة المتألمة، تلك النظرات التي واجهـه بهـا حين ذَهَبَ لزيارته في دكانه مساء وهو يدعوه إلى المشاركة معهم فـي الاضراب.

- ولكنني رفضت، ولم يخبرني المعلم الاكتع بموعد الإضراب؟

- غداً صباحاً سيعرف المعلم الأكتع من يكون ابو بلطة..

كان المعلم يقف فوق رؤوسهم وهم يحملقون به شبه مشدوهين، أحس بأن اهانة عرض المائتي ليرة عليه ثمنا لسكوته قد اجتاحت كل كيانـه، فلم يتمالك نفسه من الصراخ:

- أنذال حقيرون، من قال لكم انني حولت قهوتي إلى محششة؟؟

وحين همَّ المعلم أن يشرع في استعمال يديه كانوا جميعـاً قـد لاذوا بالفرار باسرع مما كان يتصور.

صبيحة اليوم التالي وحين كان المعلم يتلمس الاقفال ليفتح باب المقهى خطر له أن يطرح تحية الصباح على جاره المعلم الأكتع وأن يزف لـه نبأ قراره الأخير، ولشدَّ ما اكتنت دهشته حين وجد الدكان ما يزال مغلقاً، تطلع إلى صف الدكاكين المحاذي لدكّان الاكتع فوجد انها جميعاً ما تزال مغلقة، وبكل هدوء وراحة بال قفل راجعاً إلى منزله ويده تتلمس مفاتيح المقهى الذي ظل مغلقاً طوال ذلك اليوم.

القدس 1968

المختار

مخطيء من يظن أن سالم الزرزور مجرد مختار تسلق على اكتاف هذه المهنة أباً عن جد، فقد كان سالم مختاراً على الأصول أو كما يقولون مختاراً بأربعة وعشرين قيراصاً، فأهل القرية ما زالوا يذكرون المعركة الحامية التي نشبت بينه وبين محمد الأزعر وعلي الفار على المخترة قبل ثلاث سنوات، فعندما استبدلت الحكومة محافظ القدس راح كل من محمد الأزعر وعلي الفار يجمع تواقيع رجالات القرية على طلحيات طويلة من الورق يطالبون فيها بتنحية سالم الزرزور عن المخترة، ثم انهما تواعدا من وراء ظهر سالم على الذهاب إلى المحافظ لتقديم العرائض ولكن بحجة المباركة للمحافظ بمنصبه الجديد، الا أن سالم تشمم فيما يبدو رائحة هذه المؤامرة، فأسرع لزيارة المحافظ وأكد ولاءه واخلاصه له وللحكومة بأن وجّه دعوة باسم الأهالي للمحافظ لزيارة القرية وتناول طعام الغداء، ولم يكتف بذلك بل لفت انتباه المحافظ إلى أن بعض المرتزقة ممن يكنون له العداء يحاولون تشويه سمعته لدى الحاكم العسكري حتى يقوم بعزله وتنصيب أحدهم مكانه.

ومنذ ذلك الحين ومحمد الازعر وعلي الفار يحاولان التقرب من سالم الزرزور بعد الفشل الذريع الذي أصابهما، وسواد الوجه الذي حل بهما أمام الناس بفضل فهلوة سالم ودهائه. إلا ان المختار ظل يحتفظ لهما بهذه الفعلة السوداء في سجلات ذاكرته الخبيثة، ذلك لأنه يعلم ان شهوة المخترة سوف تظل تراود كلاً منهما.

وقد صدقت توقعات سالم، فما أن جاء الاحتلال حتى ظن كل منهما ان الفرصة قد لاحت – لامتطاء جواد المخترة والتربع فوق امتيازاتها العظيمة – ولكن أحدهما لم يفاتح الآخر في نواياه حول هذا الموضوع بل غافل كل منهما الآخر وذهب على انفراد لزيارة "حاييم ديفيد" الحاكم العسكري الجديد في بيت لحم.

وفي هذه المرة ايضاً كان سالم الزرزور اكثر حنكة ودهاء فهو لم يذهب إلى حاييم ديفيد، ولكنه توجه بعد ثلاثة أسابيع من الاحتلال إلى مدينة القدس قاصداً مقهى الباشورة[1] وطلب من المعلم ابو بلطة ان يصلح له نفساً من التنباك العجمي، فقال له المعلم ابو بلطة:

- سلامة تسلمك يا ابو فهد، التنباك العجمي صار في علب العرايس!

وتساءل المختار: لماذا؟

قال المعلم:

- لو انك برمت القدس كلها على كعب واحدة لما وجدت ورقة تنباك عجمي!

قال المختار:

- المهم صلح لي نفس تنباك!

وحين كان المعلم يضع شيشة التنباك إلى جانب كرسي المختار، ويصلح من وضع الجمر فوقها قال له المختار:

- كيف الشغل اليوم.. هل ما يزال المخاتير يأتون هنا؟

---

[1] احد الازقة المعتمة في القدس القديمة، يعتبر مدخلاً غير رئيس للمسجد الاقصى.

قال المعلم ابو بلطة:

- المخاتير اليوم في ورطة بعضهم تسلَّم ختمه واخذ ختماً اسرائيلياً جديداً وبعضهم رفض.

- قل لي يا ابو فهد هل سلمت ختمك؟

وذهل سالم الزرزور فهو يسمع لأول مرة ان الاختام تسلم وهو لا يدري عن كل هذه المسألة شيئاً فقال:

- لا والله لم أسلم، ولكن كيف يسلمون؟

- بسيطة، تذهب إلى رئيس بلدية اورشليم وتسلم ختمك وتأخذ ختماً جديداً وراتباً شهرياً مقداره مئة ليرة.

وكاد سالم الزرزور يصفر فرحاً واندهاشاً ولكنه كتم تصفيره وقال:

- يا سلام..!

- قال ابو بلطة بخبث: يعني ناوي ان شاء الله؟!

قال المختار:

- لا. لا ولكن قل لي من هو رئيس البلدية؟

- يقولون انه اسمه تدي كويلك او كويك والله لا ادري؟

- وهل تعتقد ان كثيرين قد سلموا اختامهم يا معلم؟

- لا، ولكن تسليم الختم العربي واستلام الختم الاسرائيلي خيانة واعتراف بالاحتلال!

- يا سلام، وهل تظن ان الاحتلال بحاجة إلى اعتراف اشكالنا يا معلم؟

- نعم.
- لا تنه عن خلق وتأتي مثله يا معلم! ما دمت وطنياً إلى هذا الحد فلماذا تستقبل الزبائن اليهود كل يوم بالمئات؟ أليس ذلك اعترافاً بهم؟
- هذه مسألة اخرى يا مختار فأنا أرفض مثلاً أن أبيع أي نوع من الكازوز هنا لأن كل أنواع الكازوز أصبحت من صنعهم رغم أن كل الزبائن اليهود لا يطلبون إلا (العسيس).

وانكسف المختار وحاول ان "يتجرع البهدلة" بهدوء مخفياً مظهر الاحراج الذي غَرِقَ فيه حتى أذنيه، إلا أنه تدارك قائلاً وهو ينفخ نفساً من التنباك:

- ولله رجعت أيام العسيس يا معلم!!

وحين انتهى من نفس التنباك لف انبوب الاركيلة عليها وغادر المقهى دون ان يتلفظ بكلمة واحدة.

عادة ما كان محمد الأزعر وعلي الفار اذا خلا لهما مجلس يتندران على المختار وينهشان سمعته ببذاءة مفرطة، وفي كثير من الحالات كان الشيخ بهلول ينسحب من الجلسات حتى لا يتورط في عداوة المختار وكان يبرر انسحابه أما بحلول موعد الصلاة أو بأنه يريد أن يقضي حاجة، إلا أن محمد الأزعر كان لا يأبه لانسحاب الشيخ بهلول أو بقائه وكان يبدأ حديثه دائماً بقوله:

- اسمه على جسمه.

وأحياناً كان يبدأ حديثه بانشاد عجز بيت الشعر المعروف:

- وفي البزاة شموخ وهي تحتضر.

ويتحدى الشيخ بهلول بأن يذكر صدر البيت، وحين لا يجرؤ الشيخ بهلول على ذلك كان علي الفار يقول:

- وفي الزرازير جبن وهي طائرة.

وكان محمد الأزعر يسأل علي الفار:

- كم رطلاً من الشحم يحمل الزرزور على كرشه؟

فيجيب علي الفار:

- أظن ان ستار الشحم على كرش مولانا المختار يفرش عشرة فدادين.

وهكذا كانت تمضي الجلسات التي كان حظ المختار التعيس يشغله عن حضورها، واذا حدث ان جاء المختار فجأة إلى احدى الجلسات، كان محمد الازعر يقطع الحديث قائلاً:

- أين دسمت شاربك اليوم يا ابو الفهد؟

فيرد عليه المختار بالمثل المعروف:

- قصر ذيل فيك يا ازعر!!

وكان المختار يأخذ مكانه من الجلسة ويبدأ في ادارة الحديث غير مبال بتنكيشات محمد الأزعر التي كانت دائماً تجرح المختار وتنفخ أوداجه، وحين قال محمد الأزعر ذات يوم مناكداً:

- يا خسارة يا أبو الفهد، راحت أيام المناسف!

أحس المختار بامتعاض حقيقي لم يستطع ان يخفيه، ولم يكن

امتعاضه لشعوره بالحرج أمام الحاضرين ولكنه كان ألماً حقيقياً هذه المرة، فمنذ الاحتلال والمختار يحس ان كارثة لئيمة قد حلّت به حتى أنه كان بين الحين والحين يقول لأم الفهد بلوعة:

- صرنا والله مثل الدجاج.

فتقول زوجته:

- وهل تظن ان الليرات المئة بغير ثمن؟

الا ان ذكر الليرات الماية لم يعد يبهج المختار كثيراً فهي مبلغ تافه بالقياس إلى المبالغ الضخمة التي كان المختار "يتسلبط" عليها من وراء الطوشات، وكان يقول لنفسه:

- والله كان الواحد يأكل مناسف بمئة ليرة وأكثر.

هذه الليلة لاحظت أم الفهد انه قد حل بالمختار أرق حقيقي، وقد اعتادت طيلة حياتها ان تسهر على أرق أبي الفهد بالشاي والقهوة وتصليح نار الأرجيلة كلما انطفأت، وعادة ما كان ابو الفهد يعرف اسباب ما يحلُّ به من أرق، ولذلك فهي تحرص على عدم ازعاجه والاستفسار عن أرقه، فهو إما أن يكون على موعد مهم صباح اليوم التالي في احدى الجلسات لاجراء مفاوضات مصالحة أو دية أو عطوة طوشة أو التحكيم في قضية خلاف على أرض، فيقضي ليلته وهو يحضر حججه ويهندس منطقة ويرتب افكاره، إلا انها لاحظت هذه المرة ان ارق المختار غير طبيعي، وانه ينفخ بعصبية ويشتم بين الحين والحين ويلعن أحوال هذه الدنيا العاهرة التي أوصلته إلى هذا الحد من الحرمان والقناعة الجبرية، وسمعته وهو يتخطى الباب خارجاً لقضاء حاجته يقول في لهجة وعيد مكتومة:

-   والله لأطحن دماغه وألعن أجداده إذا تطاول عليّ!!

وهمَّت أم الفهد ان تسأله عن معنى هذا الكلام، إلا انها خافت من لطمة تشقلب رأسها كالعادة اذا كانت "حديدة ابو الفهد حامية" فسكتت وقالت:

-   ربما "تناقر" المختار مع محمد الازعر أو علي الفار.

والحقيقة ان المختار أحس اليوم وهو يغادر مقر الحاكم العسكري في بيت لحم انه تورط في مسألة خطيرة يصعب ترقيعها وان الأمر قد خرج من يده، وان الكذب والتزوير من أجل البلصات غير مأمون العواقب دائماً، فحين أخذته سيارة الشرطة لمقابلة رئيس البلدية قبل ايام أكد له حاييم ديفيد بعد ان شرب فنجان القهوة ان اخباراً قد وصلته عن وجود أسلحة مع بعض الناس في القرية، وان عليه ان يقدم كشفاً باسماء هؤلاء لاستدعائهم وحذره من ان المعلومات مؤكدة تماماً. ووعده ان يدفع له مئة وخمسين ليرة عن كل قطعة سلاح تسلم له.

وقد وقع المختار في الفخ ولم يستطع ان يمنع لعابه من السيلان على المئة وخمسين ليرة عن كل قطعة سلاح يقدمها، وبادر الحاكم العسكري وهو يقول:

-   اعتقد ان بعض اصحاب المواشي عندهم بعض المسدسات.

وراح يعدد للحاكم العسكري الاسماء فلان وفلان وفلان.. ولكنه احس بمرارة العمل الذي تورط فيه..

وحين وصل إلى القرية توجه من فوره إلى دار ابو مطحنة وأخبرهم أن عليهم ان يقدموا المسدس الذي عندهم. فصاح فيه علي ابو مطحنة قائلاً:

-	ومن قال لك يا جاسوس ان عندنا مسدسات؟ والله ان تكلمت بشيء ليكوننّ رأسك الثمن!

فرد عليه المختار:

-	لا تكبر كلامك يا علي، ان الحاكم العسكري يعرف كل شيء وأنا لم أتكلم!

-	العب غيرها يا ابو الفهم!

-	والله انه يعرف!

-	والله لقد وشيت بنا يا نذل وسوف تدفع الثمن.

وانقطعت انفاس المختار، وهجمت على رأسه الهواجس ودب في قلبه رعب شديد.

واقتربت منه ام الفهد وقالت:

-	الدنيا صارت نصف ليل وانت لم تذق الا القهوة هل احضر لك العشاء؟

صرخ فيها ابو الفهد:

-	لا أريد شيئاً اذهبي ونامي يا امرأة!

وقبل ان تتفوه بكلمة كان الباب يطرق بعنف:

هربت كل الدماء من اطراف المختار وتجمد في مكانه، كان خوف حقيقي يتجول في اعماقه ويقرع صدره بعنف واخيراً وجد لسانه يهمس لأم الفهم:

-	اذهبي وانظري من الطارق!

وانطلق صوت علي ابو مطجنة يقول:

- يا ابو الفهد اريدك في كلمتين هل تسمح؟

وراودت المختار نفسه بعدم الخروج، الا أنه ظـنّ أن علياً ربما أحضر له المسدس ليسلمه تحت الليل فقال:

- تفضل ادخل يا علي!

ولم يرد عليه الرجل بل ظل ينتظر في الخارج.

كانت نار الارجيلة قد خمدت تماماً فطوى ابو الفهد المصاصة على عنقها وبحث عن حذائه. وحين ابتعد الرجلان عن البيت قليلاً قال المختار:

- ما لك يا علي؟ كفى الله الشر!

قال علي:

- أما زلت مصراً يا ابو الفهد على ان عندي مسدساً؟ هل تريد يا مختار ان توقعنا في داهية لا نخرج منها؟ أو لا تعلم خطورة ما اقدمت عليه؟

- والله يا علي لم يكن الأمر بيدي لقد اجبروني! ثم لماذا تخاف؟ سلمني المسدس وأنا اتعهد بأن لا يحدث لك سوء!!

- انت جبان، كل ذلك من اجل ان تظل مختاراً وتقبض ثمن المخترة! كم دفع لك الحاكم العسكري حتى اخبرت عنا؟ لقد بعت نفسك لشيطان وتريد ان تبيعنا وتبيع حتى بلادك.. خذ..

وانقضت يد علي تطعن المختار في صدره وأتبعها بطعنة أخرى في بطنه وثالثة في عنقه. وتكوّم سالم الزرزور كالثور الذبيح دون أن يطلق حتى صرخة واحدة.

كان الهدوء يتثاءب فوق بيوت القرية وأزقتها، ومن بعيد كانت تتجاوب في الأرجاء أصداء نباح الكلاب، وكان بعض الرجال ما يزالون يتحلقون في بيوتهم حول أضواء خافتة يتحدثون بهمس عن المختار الذي ذهب اليوم لزيارة الحاكم العسكري.

القدس تموز 1967

التحديق في المرآة

نادراً ما كان علي الجعار يتصفح وجهه في المــرآة، لا لقــبح فــي خلقته، ولكن لأن والدته سبق وأن حذرته بلهجة مرعبة من مغبة التحديق في المرايا ولا سيما في أثناء الليل، ولكنه قرر أخيراً بشكل قاطع ونهائي ان يتعرف على تضاريس سحنته من الأمام والخلف والجـانبين. فهـذه المسألة لم تعد تحتمل التسويف بالنسبة اليه، ذلك لأنه طـوال الـسنوات التي انصرمت على زواج والدته من راشد كان يحس ان جسمه قد توقف عن النمو طولاً وعرضاً، وان شيئاً واحداً كان ينمو ويستطيل في جسده ويتدلى يوماً بعد يوم.

وحين كانت أزقة الحارة تبتلعه كل ليلة بعيداً عن منــزل زوج أمــه كانت بقايا الصفعات التي تفقع فوق دماغه تظل تحتــل رأســه وتقطــر شرراً من عينيه، فكان يتلمس بانكــسار اذنيــه الحمــراوين المتهــدلين كرغيفين من الخبز المحروق ويعزي نفسه "الذي يأخذ امك هو عمــك". وما ان يلتمّ على بعضه في احدى الزواريب حتى تلحــق بــه والدتــه، فينزوي في فراشه مكتوم الأنفاس لا يجرؤ حتى على طلــب العــشاء، فكيف يطلب مرآة يبحلق من خلالها في سحنته الحمراء المتورمة؟!

كل ليلة كان لا بد للجعار من "قتلة" بسبب أو دونما سبب، وما أكثــر الأسباب التي كانت توجب ضرب الجعار، فحيناً كان يضرب لأنه منسخ الثياب، وحيناً لأنه لا يهرع لاستقبال زوج والدته على البــاب وتقبيــل يديه، وفي كثير من الحالات كان علي الجعار يضرب لمجرد انــه لــم

يفطن إلى أن راشداً كان بحاجة إلى الغرض الفلاني أو العلانـــي ولـــم يسرع بمناولته له، وباختصار كان الجعار يضرب فقط لأنـــه موجـــود، ولأنه يصر على ان يظل موجوداً رغم كل انواع الضرب والتنكيل.

ويبدو أن فضائح (قتلات) علي الجعار المتوالية قد تناهت إلى اسماع اهل الحارة عموماً، لا سيما وان حكاية زواج أم علي من راشد بعد وفاة زوجها كانت لها "طنة ورنة" في كل ارجاء البلد، ويومها قالـــت نـــسوة الحارة انها باعت ولدها من اجل ان تبحبح نفسها وتنام في حضن راشد:

وقد تجرأ أولاد الحارة بدورهم على ضرب علـــي الجعـــار فكـــانوا يتحلقون من حوله ينكشه واحد من هنا وينكشه آخر مـــن هنـــاك، ثـــم يطرحونه ويفركون أذنيه بالحصى حتـــى يمـــلأ جعيـــره كـــل الأزقـــة والحارات.

والحقيقة أن علي الجعار لم يتخذ هذا القرار الحاسم بشكل مفاجئ، فقد بدأ يقتنع تدريجياً بأن ما يقوله عنه الأولاد ليس مجـــرد شـــتائم فارغـــة يعيِّرونه بها، اذ ما لهم وما للجعار واذنيه لو لم تكونا طويلتين إلى حـــد البشاعة، حقاً إن الناس عادة يهولون الأمور ويجعلون من الحبـــة قبـــة، ولكن يديه النحيلتين كأظلاف الماعز قد بدأتا تؤكدان لـــه هـــذا الأمـــر المرعب، ولا سيما كلما حاول أن يتلمس بهما اذنيه، وحين اقترح عليـــه أحد الاولاد هذا اليوم ان يعلق ستائر على جانبي رأسه ليستر قبح أذنيه، صمم على أن يجتلي حقيقة هذه المسألة وأن يقطع الشك باليقين.

وحتى يتمكن من تنفيذ مخططه قرر الجعار ان يعود هذه الليلة إلـــى البيت في ساعة متأخرة وفي الوقت الذي يكون فيه راشد وزوجتـــه قـــد ناما، فذلك سوف يتيح له ان يسرق المرآة من خزانـــة راشـــد ويتطلـــع

بهدوء وبطء في سحنته، لا بأس في ان يأخذ قسطاً كبيراً من الوقت (يتصبب) فيه على اذنيه ويستقري معالم خلقته البشعة على مزاجه دونما زاجر أو ناهر.

ولكنه تساءل: أين استطيع ان اختبئ؟ واهتدى إلى أن افضل مكان لذلك هو المتبنة في الجانب الشرقي من الحوش. وقبل ان يحين الموعد المحدد لعودة راشد، كان علي الجعار يغوص مختبئاً في المتبنة وهو يخطط للطريقة التي يستطيع بها ان يتسلل إلى البيت في الموعد المحدد.

ثلاث ساعات كاملة انتظرها الجعار وهو يسمع لغط راشد وزوجته أثناء بحثهما عنه، وكلما كان الصوت يقترب منه كان يتضاءل حتى يكاد يختنق تحت التبن. لا شك أن راشد يبحث عنه بإلحاح من أجل ان يقدم له وجبته المسائية المعتادة من الركلات والصفعات.

قالت والدته: لعله قد نام عند بعض أصحابه من الأولاد..

قال راشد: يجب أن اعثر على هذا الصعلوك..

وأخيراً كفا عن البحث، وانقطع اللغط، وحين خبا ضوء القنديل في البيت، ايقن الجعار انهما لا بد قد ناما. تسلل بخفة ولم تمض لحظات حتى كانت خزانة راشد قد انفتحت وكانت المرآة بين يدي الجعار.

عبر أضواء القنديل الشاحبة بحلق الجعار ملياً في خلقته، في البداية بدا له كل شيء طبيعياً، ولكنه حين أمعن التحديق كاد يغمى عليه؟ كانتا قطعتين كبيرتين من اللحم تتدليان من جانبي رأسه، اذنان طويلتان مشلوعتان مثل اطباق القش المهترئة، أطول وأعرض من أذني فيل، وكان لهما من اسفل طرفان دقيقان مسحوبان كما تنسحب اذنا الحمار.

- حقيقة انني تحولت إلى حمار.

- سوف أطلب اليه ان يكف عن تشليع أُذني.

- ولكنه سيواصل ذلك حتماً، بل ربما أصر على ممارسة هوايته الممتعة، ولسوف تزداد قتلاتك يا علي الجعار..

- ولكنني لن أصبر على ذلك بعد اليوم. أيام زمان راحت، طول عمري وانا "قاروط عند دار عمه" كل يوم قتله وتشليع آذان، ولله اليد التي تمتد إليّ بعد اليوم سأقطعها وأرميها للكلاب.

- يا ولد انت لا تقدر على ذلك. واليَد التي لا تستطيع أن تقطعها (بوسها).

- بل سأقطعها، فمن يأخذ أمك ليس عمك، انه سيظل حتى النهاية زوج أمك، يبصق في وجهك ويهينك ويشتم أباك.. كم تشلعت اذناك يا على الجعار؟ كم مرة خبط راشد على رقبتك وداس في بطنك، وكم مرة لحقك بالهراوة حتى في الزواريب، كنت فيما مضى تهرب بجلدك مثل الكلب الذي أكل العجين، وكانت زوجة راشد التي دفنت أباك وتزوجت في اكفانه تملس رأسك وتمسح دموعك، كنت تظن انها سوف تحميك من هراوة راشد ولكن هراء، ما عاد ينفعك شيء والصبر على المر لن يطعم العسل، وها قد كبرت يا ابن الجعار وصرت رجلاً فماذا تنتظر؟

وانفلت الجعار يجوب أرجاء البيت كالمسعور، كانت حماسة حمقاء تفقس في عروقه، وأحس أن نشاطاً غير عادي قد بدأ يقوم كل الاعوجاجات التي تتكوم في بدنه، قفز بخفة ورشاقة عبر الممر، ومن

ركن البيت القصي أمسك بالهراوة الملساء ذات الرأس الثخين المدور، قلبها بين يديه قليلاً ثم توجه ببطء شديد إلى الركن الذي ينامان فيه..

لماذا عانيت وما تزال كل هذا الاذلال؟ من أجل هذه المرأة التي قبرت زوجها لتنام في حضن راشد؟ هذه المرأة اتي لم تكن تحس يوماً بأن هذا المخلوق الذي ينتصب أمامها بأذنيه الطويلتين المتهدلتين ينتمي اليها؟ لقد نسيت في غمرة انشغالها ان لها ابناً قد سطا راشد على كل حقوقه وارثه بل وحتى على مجرد أمومتها له؟ انها مثل راشد بل واكثر قذارة..

وتقدم الجعار خطوتين، كان الشخير يتعالى ويمتد كأنه صوت جاروشة تدور، وكان فك راشد السفلي يتدلى وفمه يتسع مثل شدق أفعى تتأهب للالتهام، أما ذراعه البشعة العملاقة فقد كانت تلتف حول والدته..

أحس بالهراوة ترتعش فجأة بين يديه وتجمد في مكانه لحظة وهو يحدق بارتياع، تراجع قليلاً ووضع الهراوة بهدوء على الأرض ثم أخذ يتلمس اذنيه من كل جانب، لم تكونا طويلتين فحسب ولكنهما كانتا ساخنتين كحجارة الطابون، تكوم في الركن قرب الممر وعاود البحلقة في ذراع راشد الملتفة حول والدته وبكى بصمت.

فرج الهمشري

على غير عادة أقفر مقهى الباشورة تلك الليلة في ساعة مبكرة، ففي اغلب الاحيان كان لاعبو الورق وطاولة الزهر يظلون إلى ما بعد العاشرة مساء. كان فرج الهمشري يتابع بنظراته المعلم ابو بلطة وهو يقلب الكراسي فوق بعضها بينما كان الصبي يكنس المقهى من الناحية الغربية، تلمس فرج بعصبية وقهر هراوته التي تتمدد على الكرسي بجانبه ثم نبش كم سترته وتطلع إلى الساعة، كانت لم تتجاوز بعد الثامنة والنصف مساء حدث نفسه:

- في هذه الليلة اللعينة سوف تنهد رجلاي من الوقوف والتسكع بين باب الخليل وسوق الدباغة، لو يظل هذا المقهى اللعين فاتحاً..

وقاطعه المعلم ابو بلطة بصوته الغليظ الأجش.

- يا رجل! لماذا لا تذهب وتتهوى؟ ألا ترى انناعلى وشك ان نغلق؟

قال فرج الهمشري وهو يتوجه إلى المعلم ويناوله قرشين ثمن الطلب:

- معك حق، يجب أن أغادر فقد بدأت نوبتي.

وأجاب المعلم أبو بلطة بلهجة اعتذار:

- لا تؤاخذنا يا عم فرج. ولله لو كان هناك زبائن لما أغلقنا.

قال الهمشري:

- الزبائن يأتون عادة بعد التاسعة.

قال المعلم أبو بلطة وهو يغمز بطرف عينيه:

- اذا لم يكن هناك زبائن عرب فان ربع شلومو لا يجلسون.

قال الهمشري:

- يا معلم طول بالك، أصحاب الكار لا يأكلون إلا في مواعيدهم.

وسبحت أمام مخيلة فرج صورة مريام وهي تجلس إلى جانبه في الليلة الماضية وتمسك بطرف شنبه الكالح الطويل بينما ينحسر ثوبها عن فخذين ممتلئتين وتقول له:

- شنبك صار ازرق من الكيف.

قال لها فرج:

- لا والله يا ست من الدخان الهيشي.

وأفاق الهمشري من تخيلاته على صوت المعلم ابو بلطة وهو يصيح بصبي المقهى:

- اغلق الباب الغربي يا ولد، وتعال امسح الطاولات.

ثم قال مخاطباً فرج:

- يبدو أن الجماعة معهم كيف هذه الليلة وإلا لكانوا انتظروا رَبع شلومو. ولم يجد فرج بداً من مغادرة المقهى فتناول هراوته ووضعها تحت ابطه، ثم شرب جرعة من بقية الماء في الكأس التي أمامه ومسح شنباته وقال وهو يصلح وضع سترته ويشبك ازرارها المتفلتة.

- كل واحد على دينه الله يعينه.

ثم خطا من الباب الشرقي لمقهى الباشورة وتطلع إلى السوق الـذي يمتد جنوباً إلى حارة اليهود ثم إلى السوق الذي يمتد شـرقاً إلـى بـاب السلسلة وحدّث نفسه:

- حارة الشرف رجعت لاسمها العتيق وصارت حارة اليهود، فما الفائدة من تغيير اسمها؟

كانت الحركة في الأسواق خفيفة وأصحاب دكاكين الخضار يروحون ويجيئون من دكاكينهم وهم يرتبون خـضارهم فـي الـداخل اسـتعداداً لاغلاقها. ثمة اثنان من "السكناج" أصحاب السوالف الطويلـة كأذنـاب الفئران يعبران سوق العيش باتجاه طريق حائط المبكـى، ظـل فـرج يراقبهما حتى وصل ناحية سوق العطارين فرأى فتـى وفتـاة يهـودين يتأبطان بعضهما بعضاً قادمين باتجاهه، إلا أنهما استدارا غرباً نحو باب الخليل وتمنى لو انهما يكونان شلومو ومريام قادمين إلى المقهى، ولـو صحّ ذلك لاصبح بامكانه ان يجلس نصف ساعة اخرى بدلاً من التسكع والوقوف في الاسواق.

تحرك فرج الهمشري باتجاه سوق العطارين ثم انفتل غربـاً باتجـاه باب الخليل. كان السوق خالياً إلا من الفتى والفتاة ورآهمـا يـصعدان الأدراج وهي تسند رأسها إلى كتفه بينما هو يقبلها. لقـد أصـبح هـذا المنظر بالنسبة لفرج مألوفاً تماماً، كما كان مألوفاً لديه قبـل الاحـتلال منظر الفلاحات اللواتي يحملن سلال الخضرة الفارغة على رؤوسـهن ويغادرن سوق الخضار من هذا الشارع قبيل المساء عائدات إلى قراهن، وتحسّر الهمشري على تلك الأيام وحين عدل من وضع العـصا تحـت

ابطه الأيسر، خطر بباله ان مهنة الحراسة الليلية من أسوأ المهن وتساءل: ما الذي دفعه إلى اتخاذها مهنة له منذ سنين طويلة؟

ربما كانت هيئته الضخمة وشنباته الثخينة وشكله العام الذي يوحي بالبلطجة هي التي دفعت بلدية القدس ايام زمان، لاختياره لهذه المهنة، وعلى الأقل اذا لم يكن شجاعاً فان منظره وصوته العكر يوحيان بالرهبة. الا انه حين تذكر ان البلطجة في هذه الايام اصبحت سلعة لا رواج لها، بالنظر إلى هراوات الشرطة، تلمس عصاه القابعة تحت ابطه وأحس بأنها عود قصب صغير فقال يرثي نفسه بشماتة:

- طول عمري مثل الزبيبة في قفاها عود..

ليس ذلك فحسب فكم من مشاكل جلبتها له هذه المهنة التعيسة، وهراوته العظيمة لم تعد عليه طيلة حياته الا بالنكد والخوازيق، وتذكر كيف ان زوجته كانت تقول له كلما رجع ورأسه مفغّر:

- يا غاوي النكد والخوازيق، ولكنه كان يرد عليها باصرار وغطرسة:

- هذه مهنة رجولة والله ان لم تسكتي يا أمرأة لانجر رأسك.

ويضيف:

- ان أولاد الحرام يرتعدون هلعاًمن هذه الهراوة.

إلا أنه كان مقتنعاً بينه وبين نفسه ولا سيما كلما تورط في طوشة مع اولاد حرام، بأنه فعلاً غاوي نكد وخوازيق، وحين اصطدم قبل أيام بشلة الزعران مهربي الحشيش وبطحوه ورقصوا على بطنه قرر أن يترك هذه المهنة ويعمل ناطوراً في حدائق المتحف.

وتنهد ثم قال لنفسه بحزم:

- الله يخلصنا من هذه المهنة على خير.

ودس يده في جيبه يتلمس علبة الهيشي فقد شعر بالحاجة إلى سيجارة، وحين فتح العلبة لعن المعلم ابو بلطة وبصق عليه وعلى مقهى الباشورة، فقد تعود في أثناء جلوسه في المقهى ان يلف عدداً من السجاير ليرتاح من مهمة لفها اثناء تجوله أو وقوفه في الأسواق، لقد كان قبل الاحتلال يدخن سجاير اللولو الفاخرة ولكن ما العمل، وقد انقطعت هذه السجاير بعد الاحتلال، وارخص انواع السجاير اصبح لا يقل ثمن العلبة منها عن نصف الليرة، حتى سجاير الديجل الحقيرة! ثم انه تساءل: ماذا ينفع مبلغ المئة وخمسين ليرة الذي تدفعه له بلدية اورشليم؟ ولولا انه يدخن الهيشي ويختصر ثلاثة ارباع طلبات زوجته، أم بطن كبير، لما كان بامكانه ان يعيش على الاطلاق وحين اشتطت احلامه الحزينة في التفاؤل لعن نفسه قائلاً:

- مكتوب علي التعاسة لو انني كنت اعمل موظفاً على حساب الدولة لكنت الآن آخذ راتبي من عمان كمئات الموظفين، ولكن حظي التعيس شاء لي ان اظل على حساب البلدية ورغم ان بلدية اورشليم زادت راتبي ثلاثة دنانير إلا ان اللفت يظل أخا الجزر فماذا تنفع الثلاثة دنانير في مثل هذا الغلاء الفاحش؟

في هذه الأثناء كان فرج الهمشري قد وصل سوق حارة النصارى واستدار متجهاً صوب الشمال وفي نيته ان يهبط درجات القيامة إلى جامع عمر حيث يصلي هناك صلاة العشاء ويرتاح نصف ساعة من الزمان.

وحين وصل باب الجامع وهمّ بالدخول راودته فكرة أن يقوم بجولة في سوق الدباغة يكون بعدها قد اصبح فعلاً بحاجة إلى استراحة قصيرة،

فالليل ما يزال في أوله وأمامه وقت طويل لأخذ قسط من الراحة وتمديد رجليه على طولهما بعد الصلاة، بل انه ربما غفا قليلاً، وكثيراً ما كان فرج الهمشري يفعل ذلك خاصة بعد أن يثبت وجوده أمام دوريات الشرطة التي تمر من الدباغة وباب خان الزيت قبل منتصف الليل.

هبط فرج درجات القيامة وحين مر ببابها كاد يتعثر بأكوام الرمل والحجارة والاسمنت المكومة هناك ولم يملك نفسه ان قال:

- طول عمرهم وهم يصلحون هذه الكنيسة، منذ عشر سنوات وهم يصلحونها لو كنت مكانهم لبنيت في هذه الفترة مائة كنيسة.

وانطلق من الباب الصغير الذي يلج إلى ساحة الدباغة وسوق الذهب وحين وجد ان الساحة مقفرة تماماً من الناس تطلع إلى ساعته وحدث نفسه:

- لعل ساعتي واقفة، والا فمن غير المعقول ان ينقطع الناس في مثل هذا الوقت؟

وما ان استدار إلى سوق الدراويش حتى بدأ يتبين ان هناك كمية ضخمة من الأوراق البيضاء تربض على أرصفة الشوارع وفكّر:

- ما عسى أن تكون هذه الأوراق؟

وتناول ورقة وتفحصها. انها مطبوعة على الوجهين! ترى هل هي منشورات؟ ولكن لماذا؟ وتمنى لو انه كان يحسن القراءة.

إلا انه سرعان ما داهمته الحيرة فماذا سيفعل بهذا الخيط الطويل من الاوراق التي تتبعثر على امتداد الشوارع؟ راودته فكرة أن يبدأ بجمعها ولكن: أين اذهب بها؟ هل اتركها؟ واذا عثرت عليها الشرطة فسوف يسألونني عمن وزعها؟ وأين كنت وهم يوزعونها؟ يا الله! ما هذه

الورطة اللعينة؟ ماذا أفعل؟ ووقف مندهشاً مثل بغل المعصرة! وفاجأه وقع اقدام تهبط من حارة النصارى باتجاه الدباغة وتبين من الأرجل التي بدأت تظهر انهم رجال الشرطة!! عليه ان يتصرف بسرعة! هل يهرب؟ اذن ستثبت عليه الجريمة. هل يظل واقفاً؟ سوف يسألونه: من قام بتوزيع المنشورات؟ وخطر له ان يبدأ بجمعها وسيقول لهم، انه جاء فوجدها وها هو يجمعها ليسلمها لهم، وبدأ يجمع: واحد اثنين ثلاثة.. وكان يتطلع بطرف عينه نحو الاقدام السوداء التي بدأت تداهمه، وخيل اليه ان هذه البساطير اللامعة هراوات سوداء ضخمة توشك أن تهوي على يافوخه فتسحقه سحقاً، وأحس بقلبه يكاد يهوي من فمه وهو ينحني لالتقاط المنشورات، وزاد اقتراب البساطير من وجهه وهو لا يجرؤ على ان يرفع رأسه ويتطلع إلى ناحيتها، وحين أحس بعصا تمتد إلى ظهره لم يتمالك نفسه من السقوط ولم تحمله رجلاه فبرك. سمع صوتاً حاداً يصرخ بلغة ركيكة:

- ها.. ها ماذا تفعل؟ توزع المنشورات؟

واحس بأن ريقه قد نضب نهائياً من فمه وان لسانه ينتفخ ليسد حلقه مثل بسطارٍ عتيق. قال:

- لا والله يا سيدي انني اجمعها!

- اخرس عندما أبصرتنا قادمين تظاهرت بأنك تجمعها.

وانتزعت يد الهراوة من تحت ابطه، وصرخ في وجهه الصوت نفسه:

- ماذا تفعل هنا؟ لماذا تحمل هذه العصا؟

وانتعش الهمشري فهذا السؤال قد يفتح عليه باب الفرج فقال بلهفة:

- انني شومير يا سيدي[1].
- ها.. ها شومير وحبلان[2].

ولم يفهم الهمشري معنا "حبلان" هذه، ورغم جلافة اللهجة التي انطلقت بها هذه الكلمة إلا انه ظن انهم قد بدأوا يمازحونه ما دام يعمل شومير لبلدة اورشليم، وها هم يتندرون على ضخامة جثته وكرشه العريض قائلين: إنه حبلان.. وهمّ ان يمضي بممازحتهم قائلاً ان كرشه مليء بالبطيخ، إلا أنه احس بالهراوة التي طالما رافقته تحت ابطه تنقض على ظهره انقضاضاً مؤلماً فصرخ:

- يا سيدي مظلوم والله العظيم مظلوم.

وبدأت الضربات تنهال عليه من كل جانب وضربه احدهم بقبضة يده على معدته فهوى ارضاً ورأى البساطير تملأ عينيه ويزداد عددها، وعادت الأيدي ترفعه من جديد فصاح:

- أنا في عرضكم.
- اخرس يا كلب يا حقير.
- وشرفكم انني اجمع هذه المنشورات ولا اوزعها!!
- ماذا ستنفعكم هذه المنشورات قل لي: لقد هزمنا دولكم! فهل تظن حفنة منكم انها قادرة على هزيمتنا بالمنشورات والاضراب؟ مجانين.

---

[1] شومير كلمة عبرية ومعناه حارس.

[2] حبلان بالعبرية مخرب.

- يا سيدي والله لا اعرف عن هذه المنشورات شيئاً.

- تدعون للاضراب بمناسبة خمسة حزيران ها؟ سوف نسحقكم جميعاً ونحطم كل من يحاول الاضراب!

والتوت يدا فرج الهمشري خلف ظهره والتفّت حول معصميه الكلبشات، وحين دخل القلعة عند باب الخليل كانت الركلات والصفعات التي انهالت عليه قد امتصها بدنه الضخم حتى كأن شيئاً لم يكن، فقد اعتاد الهمشري من خلال مهنته العريقة أن يكون "مطبة قتل" إلا أن الشيء الذي كان يؤلمه ويحز في نفسه: كل هذا وأنا لم أفعل شيئاً ضدهم، بل انني كنت اجمعها لهم!! فكيف لو انني كنت أوزع هذه المنشورات حقاً؟؟ وأولئك الذين وزعوها ماذا يفعلون بهم لو انهم وقعوا تحت أيديهم؟..

وحين استقر الهمشري داخل دهاليز القلعة المعتمة، كانت كل خواطره فد تجمعت في عبارة واحدة يرددها في صمته:

- اذا اتيح لي ان أفلت من بين ايديهم فلن أتوانى لحظة عن توزيع المنشورات.

وظل خيال فرج الهمشري يشرق في الدهاليز المعتمة على صورة اولئك الشباب الأشداء الذين جابوا شوارع القدس وملأوها تلك الليلة بالأوراق المطبوعة.

المتفرجون

حين تمكنت من العثور على عمل بعد الاحتلال بعدة شهور، وجدت نفسي مضطراً أن أسكن القدس، لم يكن ذلك ترفاً ولكنه اختصار لمشقات السفر من القرية إلى المدينة، ومن المدينة إلى القرية، فطبيعة عملي كانت تحتم علي الحضور منذ الصباح الباكر، والعودة في ساعة متأخرة من الليل، لم أكن كتاباً أو مديراً أو صاحب متجر أو حتى مراسلاً في احدى المؤسسات، كنت مجرد سفرجي لطيف الهيئة واللسان، ولي بعض الخبرة في مسائل التملق واسترضاء الزبائن، وحين قرر مدير فندق الزهراء تشغيلي سفرجياً اخذ بعين الاعتبار دماثتي الزائدة إلى حد الخنوع وضآلة الراتب الذي قبلت به وهو مائتان وعشرون ليرة اسرائيلية مضافاً اليها وجبات الطعام والملابس السوداء الأنيقة.

وقد زاد اقتناعي بضرورة السكن في القدس انني اصطدمت اكثر من مرة بدوريات الجيش الاسرائيلي اثناء عودتي ليلاً على طريق القرية، وفي كل مرة كنت أفلت من ايديهم بعد تحقيقات طويلة ينشف لها الريق وتنقطع الأنفاس.

حاولت جهدي أن أسكن في واد الجوز او الشيخ جراح او المصرارة أو في أي مكان خارج السور، تسلخت رجلاي وأنا ابحث عن غرفة مهما كانت الأجرة، ولكن عبثاً. ووجدت نفسي أخيراً في غرفة حقيرة في حي من أسوأ واقذر احياء القدس القديمة وهو (حي الواد) وكثيراً ما

سمعت عمال الفنادق يتحدثون عن تجارة الحشيش والشذوذ الجنسي والعاب القمار التي تمارس فيه، قلت لنفسي:

- اسكن مؤقتاً ريثما يتاح لي العثور على سكن ما خارج السور!

كانت غرفتي تقع على سطح احد البيوت المؤلفة من طابقين، والتي تتكوم غرفها فوق بعضها تكويماً بشعاً، وكان لا بد لي وأنا اصعد اليها على السلالم الكثيرة المتآكلة من ان اتنحنح عند مدخل كل بيت أو أن أقول "يا ساتر" فعادة ما تكون ربات البيوت في اوضاع غير لائقة، ولذلك يتحتم عليّ ان اجلب انتباهن إلى صعودي أو نزولي حتى يسترن انفسهن.

كان من الصعب علي أن أتعرف دفعة واحدة على كل أهل هذا "الحوش" الكبير، ولكنني استطعت أن أعرف أن هناك خمس أسر بالاضافة إلى امرأة وحيدة متقدمة في السن، لاحظت ان عموم اهل الحوش يتحاشونها وينظرون اليها بنوع من الريبة والنفور، والحقيقة ان مثل هذا الشعور لم يداخلني تجاه المرأة، فقد كان وجهها يبدو لي قديماً ومعروفاً وشبيهاً إلى حد كبير بوجه خالتي نعمة التي داهمها منذ سنين وباء غريب امتص حياتها وقالوا يومها انه "السُّل الله يحمينا".

غير ان مسألة ازدراء أهل الحوش لهذه المرأة ظلت تحيرني وتثير ارتباكي لا سيما وأنني بدأت اشعر تجاهها بنوع من الألفة يزداد يوماً بعد يوم، حتى انني قررت أن (ابعط هذا الدمل) واكتشفت خفيا هذه المسألة، فانتهزت فرصة زيارة صاحب البيت لي ليلة أمس لأخذ اجرة الغرفة وقلت له:

- من تكون هذه المرأة التي تسكن الغرفة المنفردة قرب مدخل الحوش؟

تطلع الي صاحب البيت لحظة ثم قالوهو يغمز بعينه:

- مالك وللناس يا بني؟ الله يستر على "الولايا"!

وقد أثار كلام الرجل وغمزه استغرابي وفضولي، فسحبت كرسي القش الوحيد الذي كان في غرفتي، والذي كنت اضعه قرب الشباك حتى اتكئ عليه وأنا أراقب بهدوء حركة الناس في الزقاق ومدخل الحوش ومداخل البيوت التي يطل عليها شباكي، وقد اعتدت في كثير من الأحيان ان افتح جهاز الترانزستور بعد ان اطفئ المصباح وأجلس لاراقب الداخلين والخارجين عبر البوابة الكبيرة، سحبت كرسي القش، وقلت للرجل:

- تفضل يا "ابو العبد" ارجو أن تبقى لتشرب عندي كأساً من الشاي.

إلا أن الرجل احكم اغلاق محفظته على الخمسين ليرة اجرة الغرفة، وقال وهو يضع المحفظة في جيبه ويهم بالانصراف:

- ان شاء الله في فرصة اخرى.

سارعت بامساك يده، فقد كنت اعلم ان الفرصة الأخرى لن تكون قبل نهاية شهر كامل، فهل انتظر شهراً كاملاً؟؟

قال الرجل:

- كل الذين سكنوا هنا قبلك سألوني عن هذه المرأة! وعلى كل حال اريد أن اريح بالك! الجميع يقولون انها من "بنات الحلال" وان بعض الرجال يترددون عليها بعد العاشرة مساء.

وأخذ الرجل يهز أطواق ملابسه متظاهراً بالبراءة التامة واستطرد:

- انني لا اضع شيئاً في ذمتي.

كنت اتوقع أن يقول الرجل أي شيء إلا هذا الكلام فليس ثمَّة ما يدل على ان المرأة يمكن ان تتعاطى هذه المهنة، فقد طحنها الكبر، ولم يبق لها ما يمكن ان ينفعها في مثل هذا الأمر أو يجلب لها زبائن، انتباني شعور مفاجئ بالغثيان والقرف وقلت:

- سبحان الله تحت السواهي الدواهي!!

إلا أنني أحببت ألاّ أصدق كلام الرجل:

- يا رجل (قل وغير) ما هذا الكلام؟

- استغفر الله العيم!!

قالها وهو يتبرم والحقد الأسود يتربع في عينيه:

- هل تعرف اسمها؟

- ينادونها أم احمد ولا أدري ان كان ذلك هو اسمها الحقيقي؟

- من اين هي؟

تقول انها في الأصل من حيفا وأن زوجها مات في حرب عام ثمانية واربعين وتزعم ان لها ابناً في الكويت، ولكنني لم أسر سحنته على الاطلاق طيلة العشرين عاماً التي سكنتها عندي.

- هل تدفع لك اجرة الغرفة بانتظام؟

- يا حسرة! وكم تظن انها تدفع لي في الشهر؟ ان أجرة غرفتها عشر ليرات اسرائيلية فقط. لقد حاولت طردها مراراً، ولكن للأسف لم يثبت عليها أي شيء ولم استطع طردها. ولا أظن أنني قادر على ذلك الآن.

ثم استطرد بلهجة اشمئزاز وتشفٍّ:

- ولكن مهلاً فهي لن تستطيع ان تدفع الاجرة خلال الشهور القليلة القادمة، فالعاهرات من بنات اسرائيل يملأن شوارع القدس ولن يبقى لأم احمد أي سوق بعد الآن!!

حاولت جهدي بعد أن غادرني ابو العبد ان اتناسى الموضـوع وان أطرد من تفكيري كل محاولة للاهتمام بها، ورغم عدم اقتناعي بما قاله الرجل فقد بدأت أدرك سبب نفور أهل الحوش منها، وبدأت تترابط فـي مخيلتي بعض الظواهر الغامضة في سلوكها.

اسدلت الستائر على الشباك المطل ناحيتها وخلعت ملابسي واستلقيت في فراشي محاولاً النوم، إلا أن موضوعها ظل يساورني حتى تحـول عندي إلى ما يشبه الكابوس، وتساءلت فجأة وأنا اجلـس فـي فراشـي واغلق مفتاح الترانزستور.

- مومس؟ فلتكن! لماذا أهتم بها إلى هذا الحد؟ لقد سـبق لـي أن رأيت العشرات من أمثالنا يترددن على مختلف الفنـادق التـي عملت بها؟ فما الذي يشغلني من امر هذه المرأة؟

مساء اليوم التالي وحين كنت أعبر بوابة الحوش قـابلتني أم احمـد، كانت تغلق باب غرفتها استعداداً للخروج، قلت لنفسي:

- هذا حال بنات الحلال تظل احداهن "دايرة من بيت اشكع لبيـت اركع"[1].

كان وجهها قديماً وبائساً وبدت لي تجاعيده ألسنة بكماء ترثي جمالها

---

[1] مثل شعبي فلسطيني ومعناه عدم التزام المرأة بيتها.

الغابر، وصدرها وأردافها المتهدلة "كالفرشة" المغبرة الكالحة من كثرة الاستعمال، تطلعت إليّ بحزن وانكسار ثم طبقت حقيبة يدها على المفتاح ومضت، تلك اللحظة فهمت لماذا قال أبو العبد أنها لن تستطيع في المستقبل دفع أجرة غرفتها، راودتني فكرة ملاحقتها والتعرف على المكان الذي تقصده، ولكنني خجلت، وظللت وراء زجاج الشباك مرتقباً عودتها، وقد تحولت بقية الأبواب والشبابك التي تقع بمحاذاة غرفتها إلى خلفيات باهتة لا تثير لدي أي اهتمام، وفي حوالي الحادية عشر ليلاً عادت أم احمد وهي تحمل في يدها بعض الاغراض، واستطعت من خلال الشباك ان اتبينها وهي تجلس قرب السرير وتتناول عشاءها. ماذا لو ذهبت لزيارتها؟ انها تعرف سحنتي بالتأكيد، ولكن هل تفتح لي؟ وان فتحت فما عساي أقول لها؟ جئت أبادلك الحديث؟ ذلك أمر سيخف! ثم ماذا لو رآني أحد الجيران من سكان الحوش؟ سيقولون لقد سقط النازل الجديد لا لن أذهب!!

ومن جديد بدأت أسائل نفسي: ما الذي يدفعني إلى الاهتمام بهذه المرأة؟ ألأنها تشبه خالتي المرحومة نعمة؟ الأنني أشفق عليها؟ ام انني أحاول التعرف على سبب سقوطها مثلما يفعل الكثيرون ممن يرتادون المومسات متظاهرين بالانسانية والاخلاق الرفيعة؟ بالتأكيد ليس لدي أية رغبة في مضاجعتها ولن يكون، وحتى لو رغبت فان المبلغ الذي اقدمه لوالدي واخوتي كل شهر لم يترك لي ما يمكنني من الذهاب إلى السينما ولو مرة في الشهر!

حاولت في اليوم التالي ان أعود مبكراً، وصلت البيت في حوالي التاسعة والنصف، ولكنني لم أجدها، يبدو انها تغادر غرفتها كل مساء

وفي مثل هذا الموعد تقريباً حين عادت كان بصحبتها رجل انتظر في الخارج ريثما فتحت الباب ثم دخلا، اسدلت ستائر نافذتها وكنت أرى ظلها يروح ويغدو من وراء الستارة، ولما جاوزت الساعة الثانية عشرة انطفأ الضوء في غرفتها وفتح الباب فجأة وخرج الرجل، لقد تأكد لي الآن أن هذه المرأة ليست نظيفة، فمن هو هذا الرجل؟ ولماذا تعمدت ان تخرجه في الظلام؟ هل تكون قد أحست بأنني أراقبها؟ أم انها تعرف ان هناك أناساً آخرين يراقبون كل من يأتي لزيارتها؟

حين عدت مساء اليوم التالي كانت أم أحمد ما تزال في غرفتها، ولكنني استطعت ان أتبين ان هناك امرأة أخرى تجلس عند حافة سريرها، لم أصدق عيني في بادئ الأمر حاولت أن أجد لذلك أي تفسير معقول فمن تكون هذه المرأة؟ هل هي احدى جاراتها من نفس الحوش؟ ذلك ممكن، هل تكون هذه الزائرة هي إحدى زميلاتها في المهنة؟ ربما! ولكن هناك انسجاماً مفرطاً واستغراقاً غريباً فيما يدور بينهما من حديث؟ كيف يمكن أن يكون لامرأة من هذا الطراز صديقات حتى لو كانت زميلة عمل؟ فكل مومس تكره بلاشك من ينافسها في مهنتها، والشحاذ لا يحب صاحب الكشكول كما يقولون؟! ولكن ما بال هاتين المرأتين تتحدثان بانهماك تام وكأنهما تبحثان في موضوع على غاية الأهمية والخطورة؟

في حوالي الحادية عشرة غادرت المرأة الزائرة وشيعتها أم أحمد حتى الباب الخارجي وصافحتها بحرارة وكأنها تؤكد لها على موعد آخر، ثم عادت لتجلس بهدوء في المكان الذي كانت تجلس فيه المرأة الزائرة.

كانت ستائر نافذتها مفتوحة، واستطعت ان أراها ساهمة مستغرقة فيما يشبه أحلام اليقظة أو التفكير العميق، قلت لنفسي:

- كثيراً ما يبعث البؤس والهرم على الجد والرزانة!

وأحسست في هذه اللحظة بفجيعة ما، مثل تلك الفجائع التي كنت أحس بها عندما أغادر قاعات السينما بعد مشاهدتي للروايات الحزينة، تلك الأحاسيس كانت سرعان ما تذوب وتتلاشى، أما أحاسيسي بفجيعة هذه المرأة فقد أصبحت أمراً واقعاً وكابوساً يظل ماثلاً في مخيلتي كل ليلة، وحتى أثناء العمل وأنا أقدم صحون الحساء أو أطباق الطعام للفتيات والشبان اليهود كان ينتابني شعور بالمرارة والحقد، فكلما مرت أمام مخيلتي صور أم احمد الحزينة البائسة وطالعتني وجوه هذه الفتيات احسست بمدى بشاعة ماساة أم احمد، كنت أحدث نفسي:

- أم احمد ولّى زمانها وراح، شأنها في ذلك شأن السفرجية حين يهرمون وتبدأ أيديهم بالارتعاش وظهورهم بالانحناء وهم يقدمون أطباق الطعام!!

ترى فيم تفكر أم احمد؟ هل تبكي شبابها الغابر؟ أم انها تلعن جيوش الاحتلال التي أوصلتها إلى هذا الدرك البائس؟

صبيحة هذا اليوم نهضت مبكراً كعادتي، وقد قررت أن أقضي عطلتي لهذا الأسبوع في مراقبة أم أحمد ومتابعة حركاتها وسكناتها، ارتديت ملابسي وجلست قرب الشباك، كانت المرأة تتحرك بنشاط غير عادي وكأنها تستعد للخروج وقد ظلت كذلك حتى جاوزت الساعة الحادية عشرة صباحاً، فرأيتها تخرج وقد ارتدت ثياباً قاتمة، قبل أن تنتهي من اغلاق غرفتها كنت قد بدأت أنزل الدرجات ولكنني تعمدت ان اتباطأ قليلاً حتى أتيح لها فرصة لتغادر دون أن تراني، حين عبرت البوابة الخارجية كانت أم أحمد تنحدر جنوباً باتجاه (حبس العبيد)،

عبرت، وراءها في ذلك الدهليز المعتم الذي يفضي إلى باحة المسجد الاقصى الفسيحة ذات الأبواب والمداخل الكثيرة.

- ترى إلى أين تقودني هذه المرأة؟ هل تنوي حقاً الذهاب إلى المسجد الاقصى؟ هل يعقل أن تذهب أم أحمد لأداء فريضة الجمعة؟ هل تكون قد تحولت بين يوم وليلة إلى رابعة العدوية؟ هل وصل أبو العبد إلى هذا المستوى من الانحطاط فراح يزعم أن هذه القديسة امرأة زانية ساقطة؟ يا الله! ماذا أرى؟ أم أحمد تدخل المسجد الاقصى؟!

أحسست بصداع يجتاح رأسي من كل جانب. ما كنت أتصور على الاطلاق ان تقودني امرأة ساقطة إلى هذا المكان. وما كنت أتصور ان ينتظر رجل مثلي امرأة زانية في ساحة المسجد الاقصى.

جلست قرب نافورة الوضوء وقررت أن أصلي في الساحة الخارجية حتى يتاح لي أن أرقب خروجها، راودتني فكرة ان أعود ادراجي إلى البيت فانتظرها على مدخل البوابة وأصافحها واعتذر لها عن الهواجس الشريرة التي كانت تراودني، إلا انني فضلت البقاء في ساحة المسجد!!.

بعد انتهاء صلاة الجمعة انتعلت حذائي بسرعة ووقفت انتظر في الممر الغربي بين أشجار الصنوبر، وعلى الطريق المؤدي إلى مسجد الحريم، فوجئت بمجموعة كبيرة من النساء يتكدسن فوق بعضهن، ثم تبين لي أن هناك عدداً من أكاليل الزهور تحملها بعض هذه النسوة، وزاد اندهاشي حين رأيت بعض اليافطات البيضاء المخططة بالسواد قد بدأت ترتفع فوق الرؤوس واستطعت أن أتبين من بعض اليافطات

العبارات: المجد والخلود لشهدائنا الأبرار، انسحبوا من القدس ايها الغزاة. ثم أخذت أصوات النسوة ترتفع بالهتاف:

- القدس عربية وستبقى عربية!!..

كان الحماس العارم يتنامى في صفوف النساء، ونبرات الأصوات الهاتفة تعلو وتشتد حتى تصبح كالهدير، وفي الجانب الشرقي حيث يتدفق سيل الرجال الخارجين من المسجد كانت موجة من الفوضى والاندهاش تسري بينهم، ثمَّ دبَّ اللغط ولاذ البعض الآخر واجماً منذهلاً يرقب مسيرة النساء التي اخذت تزداد احتشاداً وكثافة، وظللت اقف فاغراً فمي محدقاً، وعيناي تبحثان عن أم احمد، وفجأةً عثرت عليها بلهفة وكما يعثر الطفل المفقود في الزحام على أمه الضائعة، كانت تسير وراء الأكاليل ورأيتها تهتف بانفعال صادق: "القدس عربية، يسقط الاحتلال!"

يا الهي! ماذا حدث؟ هل يكون هذا الحشد الهائل من النساءمثل أم احمد قد فقدن مصدر قوتهن بسبب الاحتلال؟ أم أنها الوحيدة العاهرة بينهن؟ لماذا إذن يتظاهرن معها؟؟

تذكرت فجأة اننا في مطلع حزيران الثاني، لا شك في أن هذه المظاهرة قد نظمت لهذه المناسبة! يا للعار! أم أحمد تدري بهذا وتشارك به ونحن الرجال، الهلافيت الضائعون لا ندري ولا نشارك!!

ولكن كيف علمت أم أحمد بهذا؟ لعل صاحبتها التي زارتها ليلة أمس هي التي أخبرتها بذلك، ولكن ما الذي تستفيده أم أحمد بالذات من ذلك؟ هل تظن أنها بهذا تسهم في إخراج أرتال العاهرات الاسرائيليات من شوارع القدس؟

واصلت مسيرة النساء سيرها حتى ارتقت الدرجات التي تصعد إلى باب الساهرة، بينما كان بعض الرجال يحاذرون أحياناً ويتخلفون أحياناً عن المسيرة، تجمع بعض رجال الشرطة عند المدرسة العمرية وحاولوا اقتحام حشد النساء إلا أنهم تراجعوا، لست أدري لماذا؟ هل لأنهم يخافون من الأزقة الضيقة أم لأن كل جماهير المسيرة كانت من النساء.

شعرت بأنّ متابعة المسيرة داخل الأسوار وبين الأزقة لا تخلو من الخطورة، وقد بت أخشى أن تداهمها الشرطة على حين غرة، فحاولت جهدي أن اتجاوز المسيرة من زقاق آخر، وفكرت أن بامكاني الانتظار في الساحة الخارجية لباب الساهرة، فمن هناك سيكون التفرج على المسيرة اكثر وضوحاً وأقل تعرضاً للأخطار، وحين عبرت باب الساهرة فوجئت بارتال ضخمة من الشرطة التي تمتطي الخيول تنتظر في الساحة، فواصلت سيري وعند حائط البريد المواجه لباب الساهرة وقفت أتفرج.

عبر الباب أولاً ثلاث نساء يتقدمن المسيرة وتحمل كل منهن إكليلاً ثم اثنتان تحملان يافطة كتب عليها بالخط الاسود: المجد والخلود لشهدائنا الأبرار، ثم تدفق سيل من النساء وخرجت يافطة اخرى لم اتبين ما كتب عليها ولكنني استطعت أن أرى بوضوح أم احمد وهي تتصدر المسيرة.

لم تنتظر خيول الشرطة حتى تخرج بقية النسوة، فقد سارع الدرك بشد أعنّة خيولهم وبدأوا في اقتحام المسيرة فازدادت كثافة النسوة واشتدت حمحمة الخيول وهي ترفع رؤوسها وتزبد، وبدأت الاكاليل تتدحرج على الارض، والنسوة تفر من بين حوافر وأعنة الخيول المقتحمة، وانطلقت الصرخات المتألمة، وسمعت ولولة حادة تنساب بين جموع الرجال الذين

اصطفوا يتفرجون مثلي على المنظر المروع، ودوت فجأة صيحة ألم رهيبة، وشهدت احدى النساء وقد انطرحت ارضاً وداستها حوافر الخيول. وحين انطلقت سيارة الشرطة وهي تعوي كان الناس قد بدأوا يتجمعون ذاهلين حول بقع وخيوط الدم وبقايا أكاليل الورود المهشمة تحت حوافر الخيل، ولكن الشرطة بدأت تطاردهم من جديد.

طفقت أبحث في جموع النساء الهاربة عن ام احمد ولكنني لم أجدها، ووجدت نفسي اخيراً اعبر بوابة الحوش وأقف امام باب غرفتها الذي كان ما يزال موصداً، وجاوزت الساعة الثانية عشرة ليلاً وظلت العتمة الكئيبة تلف غرفتها وأنا ساهر أترقب بأمل حزين أن ينبثق الضوء فجأة من شباكها. في اليوم التالي كان عمال الفندق يتحدثون بأسى عن امرأة يقال لها أم أحمد لاقت حتفها بعد ان داستها خيول الشرطة في باب الساهرة وذلك في اثناء خروجها في مسيرة إلى قبور الشهداء، وزعم بعضهم ان زوجها قد قتل في حرب حزيران بينما قال آخر ان الذي قتل هو ابنها لأن زوجها قد قتل في حرب عام ثمانية وأربعين، أما انا فلم اعلق بشيء، اذ لم يكن باستطاعتي أن أقول لهم ما سبق أن قاله ذلك الرجل حين زارني ليأخذ أُجرة البيت، ولكنني عزمت على أن أغير مسكني في الحال.

القدس 1968

الذين مروا من هنا

حين اصطفق وراءه باب الزنزانة كان خائراً تماماً ومسلوب القوة، ثمة رجفة لئيمة تجتاح كيانه وبالتحديد فكه السفلي، ارتمى على وجهه وانكفأت إلى جانبه احدى فردتي بسطاره الهرم، لقد احضروه حافياً من غرفة التعذيب، القى الشرطي بحذائه في الزنزانة ودفعه إلى داخلها دفعاً، مدّ يده واحتضن فردة بسطاره ثم وضعها تحت وجهه، أحس فجأة بحنان غريب يشده إلى هذه الفردة البائسة من البسطار، وخطر له ان يتساءل: لماذا تصبح اشياء الانسان التافهة الحقيرة حبيبة إلى نفسه في السجن؟.. منذ شهور طويلة وهو ينوي ان يقذف بهذا البسطار العتيق المرقع في ابعد مزبلة، وها هو الآن يضمه إلى صدره ويسند وجهه عليه، في آخر كل شهر وكلما اعتزم ان يذهب إلى سوق الباشورة لشراء حذاء محترم بخمسين أو ستين قرشاً، كانت ضائقة مالية ما تأتي له من السماء او من تحت الارض لتجعل هذا البسطار يرافقه شهراً وراء شهر، وكأنه مكتوب في اللوح المحفوظ أن يدخل معه هذه الزنزانة ويشهد مئات العصي التي تنهال على رجليه ورأسه وكل أنحاء جسمه.

صعد بطرف عينه نحو باب الزنزانة، كان الشرطي هركافي قد انصرف بعد ان انتهى من احكام القفل الخارجي، احس بخيوط الألم تسري من قدميه إلى مؤخرة دماغه وكأنها ابر تسبح في عروقه،حاول ان يستلقي على ظهره ولكن شيئاً يشبه النيران كان يشتعل في مؤخرته، بينما العرق يتصبب من كل انحاء جسمه، عرق بارد منتن، لم يعرف

جسمه مثيلاً له ابان حياته الطويلة التي قضاها وراء موقد الأفران. وحتى حين كان يأخذ نوبة عامل آخر من عمال المخبز في الأعياد لم يكن يحس مطلقاً بأن جسده قادر على افراز كل هذه الكمية من المياه المالحة المنتنة.

طوال حياته كان عزيز الهشلمون ينتقل من فرن إلى فرن حتى احترق صدغاه من مواقد الافران، انه لا يذكر على وجه التحديد ما الذي اوقعه في جحيم المخابز، ولكنه يعلم انه لا يستطيع الآن إلا أن يكون خبازاً يواجه النيران في الحر والبرد والليل والنهار، في يافا وتل ابيب قبل عام ثمانية واربعين، وفي القدس ورام الله بعد ذلك واخيراً في مخبز العائلات في بيت حنينا، ولكن كل جحيم الافران يظل اهون الف مرة من هذا الجحيم الذي وقع فيه، فهذه هي الليلة الثانية التي يقضيها عزيز الهشلمون في المسكوبية يتلوى تحت نيران التعذيب، في الليلة الماضية جاءت سيارة جيب حمراء، وقف امام المخبز في بيت حنينا، ونزل منها رجلان يحمل احدهما جهازاً في يده يشبه المذياع وله هوائي طويل، وقف الرجلان على باب المخبز وقال احدهما:

- اين عزيز الهشلمون؟..

كان عزيز قد نزل لتوه امام موقد الفرن، وبدأ في فتح صنابير السولار داخل الموقد على آخرها، ومد خرقة المسح السوداء المبلولة بالماء لتنظيف بلاط الموقد، وبدأ العجانون بتسفيط طرحات العجين إلى يمينه، قال احد العجانين:

- هذا هوعزيز الهشلمون،

قال له الرجل الذي يحمل الجهاز:

- انت عزيز الهشلمون؟..

- نعم..

- تعال

ودون ان يصعد الدرجات من ساحة الموقد قال عزيز:

- ماذا تريد؟ إن نوَبْتي قد بدأت الآن.

قال الرجل الذي يحمل بيده الجهاز:

- نحن من رجال الشرطة، ونريدك لخمس دقائق فقط!.

- يا الهي، ماذا تريد الشرطة مني؟ انا رجل "لا بساسي ولا بواسي"[1]. ليست هذه هي المرة الأولى التي يساق فيها عزيز الهشلمون إلى السجن، فمنذ أكثر من خمسة وعشرين عاماً ساقته الشرطة الانجليزية إلى السجن، حين وقعت بينه وبين اثنين من اليهود طوشة دامية في فرن "هبوعيل"[2] بيافا، كان "الياهو" صاحب الفرن يريد ان يطرده حتى يشغل "اهرون" اليهودي مكانه، وحين انحشر عزيز في داخل الفرن كان الياهو قد انطرح على الارض ووجهه معفر بالدماء، أما "اهرون" فقد ولى هارباً واحضر الشرطة، وحكم يومها على الهشلمون بالسجن ستة اشهر قضاها في سجن الرملة.

لم يكن عزيز وقتها يعرف معنى المسوؤلية، لا زوجة ولا أولاد،

---

[1] مثل شعبي فلسطيني ومعناه: انني لا اعمل شيئاً ضد الآخرين.

[2] "هبوعيل" كلمة عبرية، ومعناها "العامل".

وليس وراءه (لا فاطمة ولا محمد) ولا يظل البسطار يمتلئ في رجليه عرقاً عاماً بعد عام، كان الهشلمون (قبضاي) بمعنى الكلمة، والسجن كما يقولون، للرجال، وستة اشهر؟ طز!! تمر وكأنها ستة ايام، وحين يخرج من السجن فسوف يمشي امام الناس مرفوع الرأس يبرم شنبه مثل ابو زيد الهلالي وكأنه (جايب رأس كليب)، الرجال يزورونه مهنئين على جدعنته، ونسوة الحي يسهرن ثلاث أو اربع ليال يغنين ويرقصن له.

أما اليوم فقد تغيرت الدنيا، عزيز الهشلمون ينكفئ على وجهه في المسكوبية مثل الفار المقطوع الذنب، لا أحد يسأل عنه، أو يهنئه ويغني له اذا خرج، ومسؤولية الزوجة والأولاد، ومعلمه فؤاد افندي صاحب مخبز العائلات سوف يطرده من عمله اذا ظل محبوساً، واذا حبسته الشرطة الاسرائيلية سنة أو عشر سنوات فمن الذي سيجرؤ على السؤال عنه؟.. أو حتى المراجعة بشأنه (طاسة ضايعة ومن يقع فقد راحت عليه) ولكن ماذا يفعل حتى يثبت لهم انه بريء؟

تمدد عزيز الهشلمون على ظهره وأحس بخدر لذيذ يسري في أطرافه، فمن يدري فلعلهم يتركونه يرتاح هذه الليلة، طوال هذا اليوم والليلة الفائتة وهم يأخذونه مرة كل ثلاث ساعات يضربونه حتى يفقد وعيه، ثم يرشون عليه الماء ويسألونه:

- ألا تريد أن تعترف؟..
- والله يا سيدي انني لا اعرف احداً..
- كذاب حقير اضربوه.

وإذا أفاق من جديد عادوا إلى سؤاله:

- من هم الذين أعطيتهم الخبز وبدلت لهم العملة الأردنية بعملة اسرائيلية؟..

- والله يا سيدي إنني لم أر أحداً.. هذا تلفيق أولاد حرام.

- انت تعرفهم، إنك واحد منهم!؟

كانوا ثلاثة رجال، مروا تلك الليلة الباردة من شباط بالمخبز، أحس عزيز الهشلمون بانهم ليسوا غرباء، ولكنهم كانوا متعبين ويرتجفون من البرد، لم يخبروه إلى اين ينوون الذهاب ولكنه خمن بعد مغادرتهم انهم يقصدون (النبي صمويل). كان من عادة عزيز الهشلمون ان يضع ابريق الشاي عند فوهة الموقد ليغلي ويتخمر، قال لهم عزيز:

- يظهر أن مشواركم بعيد؟

قال احدهم:

- من أين أنت يا عم!

قال عزيز:

- من يافا ولكنني أسكن باب حطه في القدس.

- هل تسمح لنا بالدخول؟

قال عزيز:

- أهلاً وسهلاً، الله يحييكم!!

ودخلوا، شربوا الشاي عند عزيز، وأخذوا تسعة أرغفة، وأعطوه عشرة دنانير أردنية، وطلبوا أن يعطيهم بدلها عملة اسرائيلية، وفعل عزيز، وحين طلبوا اليه ان يأخذ خمس ليرات اسرائيلية مقابل الخبز والشاي الذي شربوه رفض باصرار، ولكنهم أجبروه، وقالوا له:

- انت رجل طيب، اذا سألك أحد عما حدث فلا تقل شيئاً!..

لم يكن عزيز يدري أن ثمن المعروف سيكون لطش كفوف، كان يعتقد ان جزاء الاحسان هو الاحسان، فكر عزيز:

- من الذي أخبر الشرطة بما حدث؟ هل يكونون هم؟ مستحيل.. لقد طلبوا اليّ ألا أخبر احداً، فهل يقومون هم بابلاغ الشرطة؟ لعلهم وقعوا، واعترفوا، فهل اعترف أنا؟ هل أقول للشرطة انهم مروا عليّ في تلك الليلة؟.. واذا قلت الآن فستقول الشرطة لي:

- لماذا رفضت ان تعترف منذ البداية؟ لماذا أنكرت أنهم مروا عليك؟ وشربوا الشاي واشتروا الخبز وبدلوا العملة؟..

- لا.. ان الجريمة سوف تثبت عليّ، وسأظل منقوعاً في السجن إلى أبد الآبدين وزوجتي وأولادي من سينفق عليهم؟.. سوف تطردهم صاحبة البيت! وسوف يدورون في الشوارع مثل الشحاذين!.. لا، لن اعترف، سوف أتحمل، كلها يوم أو يومين وينتهي التعذيب وتتأكد الشرطة بأنني بريء!..

- والله يا عالم انني بريء وان لي أطفالاً أريد أن أعيلهم!!

وانفتح باب الزنزانة، كان وَجْهُ هركافي معتماً وكالحاً مثل وجه الذئب، وكان حديد الزنزانة يرن في إذن عزيز مثل الطبول.

- سأتظاهر بأنني نائم، ولن أقوم، دعهم يضربونني هنا، فلم يعد بي حيلة للمشي او الوقوف!

صاح هركافي:

- تعال يا كلب!

وظل عزيز ممدداً، وازداد وجهه التصاقاً بالبسطار.

- قم يا ابن..!

ولكن عزيز لم يتحرك، اذا كانت المسألة كلمات وشتائم، فالأمر هينّ:

- أقول لك قم يا ابن الزانية!!

لقد اعتادت اذنا الهشلمون منذ دخوله المسكوبية على سماع هذه الكلمات وأكثر منها، بل لقد اصبحت الشتائم تعني بالنسبة له امراً مريحاً وممتعاً فهي الوصلات التي تفصل بين "قتلة" واخرى، انقضّ عليه هركافي ركلاً بالبسطار، وضربه بقبضة المفاتيح التي في يده على رأسه، انتفض عزيز واقفاً، وبحركة مجنونة اختطفت قبضة المفاتيح من يد هركافي، ورماها خارجاً في اقصى ساحة السجن، وبكل ما تبقى له من قوة صفع هركافي على وجهه وصرخ:

- والله لألعن والد والدك!!

لم يدر عزيز الهشلمون كيف تجمعوا عليه بتلك السرعة العجيبة، ولم يدر كيف اعادوه إلى الزنزانة وتركوه ينام هكذا، حين أفاق كان الوقت مساء، لقد نام بالتأكيد طيلة الليلة الماضية وحتى مساء هذا اليوم، ولكن الذهول عقد لسانه حينما امتدت يده إلى رأسه، فقد كان رأسه محاطاً باللفائف من كل جانب، تطلع إلى ملابسه فاذا هي ملطخة تماماً بالدماء.

كان الخدر يقتات أطرافه حتى يكاد يغشاها تماماً، حدق في سقف الزنزانة فطالعه وجه هركافي المحتقن اللئيم وتذكر كل ما حدث له.

- والله ما عاد لي أي أمل بالخروج!.

- ولكن ماذا أفعل؟

- لم يبق لديك اي قدرة على الاحتمال، ان قمت فانت مضروب او نمت فانت مضروب، انسكت او نطقت فانت مضروب، تأكل كل هذا الضرب وتبقى ساكتاً؟..

تلاشت صورة هركافي تدريجياً في عيني عزيز، ورأى نفسه يهبط درجات باب حطة، ويدخل البيت وزوجته تفقع زغرودة في الهواء، وسمع نساء الحارة يتحلقن حول زوجته وتعلو اصواتهن بالغناء:

الليلة واخرى ليلة يا حبايب جمل العيلة روّح بقى غايب

الليلة وأخرى ليلة بنعد فلوس جمل العيلة روّح بقى محبوس

ورأى أولاد الحارة وهم يحتشدون من حوله ويتطلعون في وجهه وهو يبرم شنباته ويصافح الرجال المهنئين له.. أخذت وجوه الرجال تتحول إلى اشباح باهتة سرعان ما تتلاشى، ولكن وجهاً واحداً ظل يزاحم الوجوه الأخرى أمام ناظريه، انه وجه فؤاد افندي صاحب الفرن.

وبغتة لمع في ذهن عزيز الهشلمون خاطر مذهل، فرك عينيه وحدق في السقف، لماذا يزاحم وجه فؤاد افندي كل الوجوه الأخرى؟.. لماذا تتلاشى من مخيّلته وجوه كل الرجال والنساء في الحارة؟.. كل الذين توافدوا لتهنئته بسلامة الخروج؟ لماذا تشحب وجوههم وكأنها تطل من نوافذ قطار يمضي سريعاً؟.. سحنة واحدة ظلت تواجهه بلؤم وخسة مثل سحنة هركافي!

- مستحيل!! هل يكون فؤاد افندي هو الذي اخبر الشرطة بما حدث!..

وتذكر الهشلمون ان فؤاد افندي قد جاءه بعد منتصف تلك الليلة واطلع على حساب صندوق المخبز وسأله عن العشرة دنانير الاردنية، تذكر أنه لم يستطع ان يكذب عليه، وانه قال له إن ثلاثة من الرجال مروا من هنا واستبدلوا هذه العملية بعملة اسرائيلية!؟..

- فؤاد بعينه الذي قام بابلاغ الشرطة عني!.. فؤاد هو الذي سلمني إلى أيدي هؤلاء الأوغاد، تفو..

كل شيء من حول الهشلمون بدأت تغزوه البرودة والبهوت، كانت اصداء غناء النسوة المبتهجات بعودته تخبو وتتراخى، وتستحيل في اذنيه وشيشاً نادباً متفجعاً، إلا أن ايقاع العصي التي طالما هوت على رأسه كان يشتد ويشتد ويتناهى من خلال ايقاعها المتفجر ندباً طالما ردده الهشلمون مع العجانين في لحظات الاختناق الحزينة:

يا ليل خلي الأسير تايكمل نواحوا

راح يفيق الفجر ويرفرف جناحو

تا يتمرجح المشنوق في هبة رياحو

شمل الحبايب ضاع وتكسروا قداحو

وأحس الهشلمون بدموع باردة تنحدر إلى اذنيه، وحين همّ بمسحها كانت يداه ترتخيان بلا حراك، وظل الصوت يقرع قادماً من بعيد:

يا حيف كيف انقضت بيديك ساعاتي

لا تظن دمعي خوف، دمعي على اوطاني

وعَ كمشة زغاليل بالبيت جوعاني

كانت أطراف عزيز الهشلمون تسترخي لحظة بعد لحظة، والبـــرودة تغزو ظهره وتلتف ببطء حول صدره، ظلت عيناه مثبتتين في الـــسقف، كانت ملامح كل الوجوه تتلاشى وتمحى ليحل مكانها وجه زوجته، ولكنه لم يرها مزغردة، بل رأى دمعتين كبيرتين تتعلقان برموشها، ثم تداخلت في دموعها وجوه أطفاله حزينة بائسة، تبكي وتستجدي..

وحين أطبقت البرودة الصفراء جفنيه لآخر مرة، كانت وجوه الرجال الثلاثة الذين مروا عليه في تلك الليلة الباردة تشرق باسمه أمام عينيه.

القدس – نيسان 1969



للحزن ذاكرة ولللياسمين

إلى أميرة

الزوجة والصديقة

ورفيقة الدرب

من بدايات الربيع إلى تخوم الخريف

مدخـــل

لست أدري من هو الناقد الذي أدخل إلى عـــالم الإبـــداع مـــصطلح "النص" ليكون بديلاً عن "قصيدة النثر" أو "الشعر المنثور".

والنص، هو في حقيقة الأمر، ليس بديلاً لقصيدة النثر، ولا يدّعي هو ذلك، فرواد الشعر المنثور الذين عرفناهم منذ أواخر الخمسينات، كـــان لديهم أو لدى معظمهم طموح لالحاق أنفسهم بقافلة الـــشعر والـــشعراء، ولكن الأمر لا ينطبق غالباً على كتّاب النصوص.

ويظل النص، فيما أرى، نوعاً أدبياً متميزاً، يأخذ من الشعر بعضاً مـــن صفاته ومن الخاطرة الوجدانية بعضاً من صفاتها، يجمع التوهج والايقاع ولكنه لا يتوافر على الوزن أو القافية.

هذه النصوص التي أقدم بعضها هنا، كتبتُ ونشرتُ منهـــا الكثيـــر، معظمها ضاع في الصحف والمجلات، وبعضها تعمدت أن أتركه فـــي مهب الريح، وهذه هي عينة منها قمت بجمعها في هذه الصفحات القليلة، ربما لأنني وجدت فيها ما يستحق أن يعاد نشره في كتاب.

هذه النصوص كتبتها في مدى زمني يمتد من حزيران 1969 إلـــى اواخر عام 1992، في رحلة النفي عن الـــوطن التـــي امتـــدت اربعـــة وعشرين عاماً توقفت في ايار 1992 ولكنها مع ذلك لم تنته بعد.

وهي نصوص لا تدّعي شيئاً أكثر مما هي عليه واكثر مما تحمله مـــن مشاعر توافرت لها في لحظة الكتابة.

وإذا كان بعضها قد أخذ شكل "المناسبة" فإن المناسبة لم تكن اكثر من شرارة تقدح الوجدان، وتثير فيه هذا الاعصار الموغل في الحزن، حتى في اللحظات التي ترتدي ثوباً خارجياً من الفرح الذي سرعان ما ينطفئ.

للحزن ذاكرة، وأما الفرح فليس له في ذاكـــرة الفلـــسطيني، حتـــى اللحظة، أي متسع من زمان أو مكان.

خليل السواحري ـــ عمان 1994

كتاب الوطن



الخيول تـركض في الذاكرة

إلى محمود شقير

"يا اورشليم.. يا اورشليم.. يا قاتلة الانبياء وراجمة المرسلين!!

انجيل متى – الاصحاح 23"

أيتها المرأةُ المسوّرةُ بالحزنِ والبنادق

يا من طَرَدْتِني من خبائِكِ عند الفجر

وأنا مُكبّلٌ بالعسسِ وبقايا النوم

حين بكى القلبْ

ونحنُ نهبطُ التلالَ الشرقيةَ

كنتُ وحيداً كنخلةٍ في الصحراءْ

فيما هم يحاصرون دموعي

بكلابِ الصيدِ وأجهزةِ الاتصال

بالحرّاسِ الموصدينَ كأبوابِ القبورْ

وأنا العصفورُ الملويُ العنقْ

أبكي مثل قَلْعَةٍ مهدّمةٍ

مثلَ بندقيةٍ هرمةٍ تَصفُرُ فيها الرياح

عند تلالِ "وادي الحوض" و"الخان الأحمر"

والنبي موسى[1] الذي اسودّت حجارتُه

كنتُ محمولاً بينهم

نعشاً بلا كَفنْ!

وطناً ممزقاً وملفوفاً براياتٍ اضاعتْ لونها

قنديلاً مُطْفأً منذُ قرونٍ

جسداً ماتَتْ فيه الأشياءُ

غيرُ اصطفاق ابوابِ الزنازين

وهي تعوي كالحرابِ اللامعةْ

* * *

لم أعدْ اذكرُ الان

ما اذا كنتُ نائماً

ام أنها اليقظةُ الساطعةُ

حين جاءوا اليَّ

ضجيجاً صاعقاً كالرعبْ

حاداً كانيابِ الافاعي

---

(1) وادي الحوض والخان الأحمر والنبي موسى مواقع شرقي مدينة القدس على الطريق إلى اريحا.

ستةٌ... ثانيةٌ.. اكثرُ أول أقلُ لا فرق

قوةٌ قادرةٌ على اعتقالِ الوطنْ

واغتيالِ الفرحِ والأحلامِ الطازجةْ

فَتّشوا صدري... أطلقوا كِلابَهم

في تلافيفِ دماغي

تَحسَّسوا جيوبي وذاكرتي ونعلَ حذائي

قَلَبوا كلَ شيء

حجارةَ البيتِ والوسائدْ

بحثاً عن الاسلحةِ والمنشوراتِ السّرية

والاصدقاءْ

بحثاً عن بقايا جمرةٍ تَخْتَبِئُ تحتَ الرمادْ

حين اقتادوا الجسدَ المدببَ كالريح

العاريَ كجذوع تينةٍ في الخريفْ

كانت الظلمةُ سيلاً يُغرِقُ الكونْ

والفجرُ يبدو محاصراً

بالافِ البساطيرِ والكلبشات..

* * *

مَن أنتَ؟

أيُّها الطالعُ من اشلاء الفجرِ

المشتعلُ كعمودٍ من ضياءْ

مَنْ أنت؟

أيُّها القادمُ قبلَ صياحِ الديك

مَلِكاً غيرَ متوّجْ

حُزناً يَبرِئُ الاحزانْ؟

مَنْ أنت؟

أيُّها الغضبُ المعلّقُ بالسلاسلِ وملفاتِ المحققين؟

ايُّها الفرحُ المحاصرُ بالسجونْ

العابقُ برائحةِ الوطنِ والرفاقْ

إنّي هنا

بقايا جَسَدٍ يَمدُ جناحيه لاحتضانِك

في هذه الكومةِ من الظلامِ المدّمى

هذا جسدي

خرائبُ تُعْولُ فيها السياطُ

بقايا وَطنٍ يَمُّدُ لسانَه للغرباءْ

إنّي هنا

شوكةٌ في الحلق

ادْنُ مني

هاتِ صدركَ العاري اليَّ

رُوحي التي ترتعشُ من البردِ والسعالْ
تُشْعِلُ النارَ في عيونهم
تُدحرجُ في اعماقهم
صخورَ الحقدِ والجريمةِ واليأس..
ادْنُ مني:
يا رُمْحاً معبأً بالوطن
يا فَرساً خانتُه الصحراءْ
صحراءْ النفطِ وداحسَ والغبراءْ..
أيَّتها المرأةُ المغسولةُ بدموعِ الانبياءْ
ألمُكللةُ بشوكِ التاريخِ وسعفِ الفاتحين
فَيمَ تعبرينَ الازقةَ القديمة
من بابِ الاسباطِ[1] الى درب الالام[2]
عاريةً الا من قيودِ الغزاة
من حبالِ المشانقْ
حين عانَقْتُ شَعركَ المبللَ بالعويلِ
عند باب الساهرة[3]

---

[1] باب الأسباط: أحد الأبواب الشرقية لمدينة القدس القديمة.
[2] درب الآلام، الطريق الممتد من باب الأسباط إلى كنيسة القيامة.
[3] باب الساهرة: أحد الأبواب الشمالية لمدينة القدس القديمة.

في ذلك الفجرِ الكالحِ كغبارِ الموت

كانت أشجارُ الصنوبرِ تَخْلعُ أفراحها

وَتَنّدسُ في حقائب السفر

وابو موسى الأشعري

يخرجُ من الأسوارِ شاهراً حُزْنَهُ

مثل عباءٍ تنامُ فيها القصائدُ

وبقايا السيوفِ والمحابرِ

* * *

عِنْدَ اقدامِ أريحا

المدينةِ الغارقةِ في الغفلةِ والرعبْ

الداميةِ مثلَ امرأةٍ فقدتَ بكارتها

وقفوا بي على الضفةِ الغربيةِ للنهر

في ذلك الفجرِ الغُرابيّ الموحش

كانت صيحاتُ يشوعَ بن نون

تغتصبُ براءةَ التاريخ

قرأوا عليَّ مزاميرهم:

(هذه ارضُ كنعانَ التي أَقطَعَها الربُ لبني اسرائيل)

قرأوا اصحاحاً من يشوعْ

وآخرْ من صموئيل الأولْ

وثالثَ من سفرِ الخروج

وأشاروا:

وطنُكَ تلكَ الصحراءُ الممتدةُ ما بين النفطِ وبين الموتِ

وامتدّتْ أفواهُ بنادِقِهِم

تغتالُ الوطنَ المرسومَ على جدرانِ القلبْ

* * *

يا وطني

يا زوبعةً في الصدرِ

يا خيلاً تركضُ في ذاكرةِ المنفيين

يا قبضاتِ النسوةِ

مُشْرعَةً في وجهِ الريحِ الغريبةْ

يا حجراً

في أيدي الاطفالِ له حدٌّ

لو أنني حَجَرٌ... لو أنني وَتَدُ!!

العبــور

وحينَ عبرتُ الجسورْ...

تَركتُكِ يَغْمرُ وجهكِ..

موجُ الأسى والوجعْ

تَركتُكِ للريحِ

تنهبُ شطانكِ العاريةِ

تَركتُكِ للحزنِ،

يأكلُ منكِ المفاصلَ

يَفْتَحُ آبارَ ماضٍ سحيقْ

وينبشُ جرحاً عميقْ

أأنت الغريقةُ يا توأمَ الحزنِ

يا رملةَ البحرِ

أم أن قلبي غريق

* * *

ما كنتُ أرغبُ أن أقولَ لك الوداعْ

أو أن أسدَّ على يديكِ

كزهرةٍ يبستْ

تجمّدَ في ثناياها الرحيقْ

ما كنتُ أرغبْ أن أقول...

لولا حِرابُ الجندِ

قد دُقّتْ بظهري

والبادقُ والرصاصْ

وداعُك ما كان حُلماً

على الدربِ يمضي

وما كانَ يوماً خلاصْ

* * *

وداعُكِ إن جازَ حيناً،

مع الليلِ والخوفِ والشرطةِ الساخرين

ففي صحوةِ الفجرِ يغدو سراباً

وظلاً يطارِدُ قلبي الطعينْ

وداعُك لا لن يكونْ

وداعُك لا لن يكونْ

أميركا

"اعتقد ان امريكا تحكم من قبل اناس جهلاء، لا يعرفون شيئاً عن الحوادث العظيمة في التاريخ"

الشاعر الانكليزي ازرا باوند

"في امريكا ثمة شيء يسمى "معجون الغباء"

الروائي الامريكي جون ابدايك

أميركا

يا قاتلةَ الاطفالِ وراجمةَ الانبياءْ

ايتُّها القوةُ الطاعنةُ في الجنون

ها إنني اقفُ اليومَ

من وراءِ بحارِ الغضبِ والكراهيّةِ

لأبصقَ على جبروتكِ الأجوفْ

جبروتكِ الذي غادرته الحكمةُ

وفارقته الانتصاراتْ

اميركا

أيتّها الجحافلُ التي تتلفعُ الصحراءَ والزبدْ

وتدقُّ بالحديدِ والضجيجِ وجهَ الرملِ والسرابْ

أُقسمُ أنّكِ لن تحصدي

غيرَ قبضِ الريحِ والغبارْ

وأَنَّ وجهكِ المقيتْ

لا بُدَّ أن يغادرَ المكانَ والزمانْ

معفراً بالعارِ والدخانْ

اميركا

أيتّها الوحشيّةُ المتدثرةُ بالرعبِ

الباعثةُ على الخزي

أيتّها الرؤوسُ المحشوةُ بالافيونِ

والهامبرغر وضجيجِ الحاناتْ

أيتّها الأيدي الملطخةُ بالجريمةِ

عليكِ لعنةُ الأطفالِ

من أحياءِ الزنوجِ في نيويورك وشيكاغو

من اكواخِ الفلاحينَ في نيكارغوا والبرازيل

وفيتنامْ

عليك لعنةُ الاطفالْ

من الهنودِ الحمرِ في كولورادو

من الفلسطينيين في الدهيشةِ والبريجِ وصبرا وشاتيلا

من العراقيين المدججين بالموت
ليُعيدوا إلى الرؤوسِ الفارغةِ
بعضاً من الرشدْ
أو كثيراً من الندمْ
اميركا
أيةَّ حماقةٍ تنشرينَ في هذا الكون؟
أيَّ وباء؟
أيةَّ حماقةٍ تنشرينَ في هذا الكون؟
أيَّ وباء؟
أيةَّ غطرسةٍ تسممينَ بها أرجاءَ الروحْ؟
إلام تملأينَ الدنيا نُباحاً وقسوة؟
وراياتٍ مُلطّخةٍ بالنفطِ والدولار؟
اميركا
ايتّها السطوةُ الرعناءْ
المدججةُ بالبوارجِ والمدمراتِ وأقمار التجسسِ
بالطائراتِ ورجال الــ C.I.A
بالعلكةِ وأقنعةِ الغازِ والصواريخِ العابرة للقارات
بالرجال الموشومينَ على أقفيتهم بالدمغةِ الاميركيةْ
عُودِي إلى مواخيرك

إلى الازقةِ الهمجيةِ الرابضةِ تحتَ أقدامِ التمثالْ عُودِي

فليسَ في الخليجِ

غيرُ المحارِ والردى

وليسَ في الجزيرةِ

غيرُ (الطوزِ) الأصفر والسراب

اميركا

لماذا اخترتِ أنْ تكوني جلاّدَ هذا العصر؟

شاويشاً يبيع الماريجوانا والرصاص والكوكاكولا

خفيراً على أبار النفط (والسخام)

لماذا اخترت ان تكوني نقيضاً

للحقِ والخيرِ والجمالْ

للسلامِ والصفاءِ والوئامِ؟؟

الرأي الاردنية ــ 1992/2/14

خنجر الأقصى

"في الصبيحة المبكرة ليوم الأحد 21 تشرين الأول 1990 كـان الفتـى المقدسي عامر سعيد أبو سرحان ينقضُّ بخنجره علـى المـستوطنين اليهود في حي البقعة جنوب القدس فيقتل ثلاثة ويجرح رابعاً، وكانـت هذه أول عملية ثأر لشهداء الأقصى الذين سقطوا يوم 1990/10/8".

- **"هذا ما أعطى عمرُ بنُ الخطاب أميرُ المؤمنين أهـلَ ايليـاء مـن الأمان، أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم، لا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بايلياء معهم أحد من اليهود".**

(من العهدة العمرية لصفرونيوس بطريرك القدس)

مَنْ هذا القدرُ الطالعُ من خارطة الأشياءْ

مَنْ هذا المجدُ الموغلُ في المجدِ

وهذا الفرحُ القادمُ من غابات الحزنِ

ومَنْ أشواق الفقراءْ

مَنْ هذا الغضبُ المثقلُ بالقهرِ وبالليلِ الذئبي

مَنْ هذا السيفُ الصاعدُ من جرحِ الوطنِ

الاشلاءْ

مَنْ هذا السوطُ المنهمرُ نجيعاً وقبوراً ودخانْ

هو أَسَدُ الأقصى

خِنْجُرةُ، وذراعُ الشهداءْ

هو عامرُ ابو سرحان!!

* * *

أيها الفتى العبيديّ[1]

يا هذا الرعبُ الضاربُ في قلبِ يهوذا

لَكَ رائحةُ الخوفِ المُعلَنِ في كلِ زقاقْ

لَكَ طعمُ المَوتِ ولونُ الحزنِ السريّ

لَكَ أطنانُ الأوسمة

المنزوعةِ عن ياقات الجنرالاتِ

وصدورِ "دروع الصحراء"[2]

لَكَ هذا الوطنُ الراحلُ عن مُدْنِ النفطِ

وعَنْ عوراتِ الأمراءْ

هل أنتَ دمُ الأقصى

---

[1] العبيدي نسبة إلى قرية العبيدية جنوب شرقي القدس وهي بلدة عامر أبو سرحان.

[2] دروع الصحراء: نسبة إلى درع الصحراء وهو الإسم الذي أطلقعه جورج بوش على ترتيبات الغزو الأميركي الإمبريالي للخليج العربي بعد 2 آب 1990 والإعداد للحرب القذرة ضد العراق.

أم بقايا جمرة من ثرى كربلاءْ؟

* * *

عامرُ أبو سرحانْ

هذا الجرحُ الساطعُ

هذا المقتولُ القاتلُ

هذا المنذورُ الطالعُ من بريّةِ بيتِ المقدس

البريّةِ الراكعةِ تحتَ اقدامِ اورشليم

على مرمى زخّةٍ من الدمِ

أو زَخّةٍ من الحزنِ

يا عامرُ أبو سرحان

هل هي محضُ الصُدْفَةِ

أن يندلعَ التاريخُ فجأة

مِنْ خنجرِ فتى مقدسي؟

فاذا ابنُ الخطابِ يعبرُ أبوابَ "ايلياء"[1]

شاهراً "عُهْدته"

---

[1] إيلياء: إسم مدينة القدس حين تسلمها عمر بن الخطاب عام 15 هـ وأعطى عهدته العمرية لصفرونيوس بطريرك القدس حينذاك وجاء فيها: "هذا ما أعطى عمرُ بنُ الخطاب أميرُ المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم، لا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود".

في وجهِ أحفادِ يهوذا الاسخريوطي؟

هَلْ هيَ مَحْضُ الصدفةِ

ان يُشْهِرَ الأقصى دماءَهُ

في ذكرى الدخولِ الأولِ لابنِ الخطاب

* * *

هوذا عامرُ أبو سرحان

شهيداً تمشي به الأصفادْ

في سجونِ "اروشليمَ القاتلةْ"

هو ذا عامر أبو سرحان

وَطَناً مطعوناً في الظهرِ

ومُجْداً يتطاول من خلفَ

تشتد له هامات القضبانْ

رُعْباً يحتّلُ نهارَ السجنِ وليلَ السجانْ

يا عامرُ ابو سرحان

خُذْني اليك:

قَطرةَ دمٍ

لَهفةَ أمٍ

دمَعةَ طفلٍ

أو غضبةَ حُرٍ في زمنِ شيوخِ النفط

مِنَ الأمراءِ الخصيان!!

* * *

يا عامرُ أبو سرحان

يا وردةُ هذا الوطنِ المسفوحِ

الوطنِ المصلوبِ

الوطنِ المنهوب من "الآبارِ" إلى كُلِ مكانْ

يا عامرُ أبو سرحانْ

لستَ النفطَ ولستَ الغاز ولستَ الأرصدةَ البلهاءْ

أنتَ صهيلُ الموتِ الظامئِ في الصحراءْ

أنتَ الحُلُمُ البركانْ

أنتَ الوعدُ الأخضرُ

من بغدادَ إلى عمّانَ إلى تطوان!!

مبعدون

"ليلة 18/17 كانون الأول 1992م قامت قوات الاحتلال الاسرائيلي بنفي 415 فلسطينياً عن وطنهم، وقذفتهم الشاحنات الاسرائيلية في الاراضي اللبنانية عبر ما يسمى بالشريط الحدودي، وقد اختار هؤلاء البقاء في اللامكان إلى ان يقيض لهم العودة إلى فلسطين".

يا أرزَ لُبنانَ المعفرَّ بالسبايا واليمامِ المهاجرِ

منْ أرضِ كنعانَ

قُمْ واخلعْ معاطفكَ الكئيبةَ او نعالكَ

لاحتضانِ القادمينْ

جاؤوك في الاصفادِ

من ارضِ كنعانِ

لم يَهْدموا هيكلاً

أويعيثوا فساداً في الكرومِ

ليسوا فؤوساً لاحتطابكِ

غُرفةً خضراءَ للنومِ

أو مخدعاً لشولوميتَ والملكِ الجديدْ

ليسوا فؤوساً لاحتطابكَ، هيكلاً

أو جيتارةً للفاتحين

فافتحْ لهم درفةَ القلبِ

وافردْ جناحكَ أيُّها السوسنُ البريُ

كُنْ سقفاً لَهم ومدفأةً

وكُنْ ظلاً ظليلْ

وانتَ يا حَجَلَ السهولِ ويا وعولْ

يا حنطةَ الله

كوني لهم زاداً، كِسرةُ تُسندُ القلبَ

حتى يحينَ الرحيلْ

يا أرزَ لبنانَ

كُنْ شرفةَ الروحِ

للقادمينِ من الجنوبِ إلى الجنوبْ

من سفحِ غرناطةَ الاخرى تغدرُ اهلَها

في هزيعِ الخروجِ الاخيرْ

يا ثلجَ صنيّنَ لا تُرسلْ ثلوجكَ

لا ملِحَ في جذعِ هذا الليلِ

لا أفقَ للناي الحزينْ

لا غُصنَ يَحْمِلُهُ الحمامُ إلى الحمامْ

روما تنامُ على مسدسها

تُروّي خبزَها والرخامَ

من دمنا المقطّرِ في رُدُهاتِ السلامْ

* * *

هو ذا أذانُ الصبحِ

فانهضْ يا صلاحَ الدينِ

واحسبْ خُطاكَ

فليس ثَمَّةَ في الجوارِ

سوى الخناجرِ مرهفاتٍ والسيوفْ

سوى رشيدِ الدينِ[1]

والطريقُ إلى أريحا كالطريق إلى سَدومْ

والدربُ لا يُفضيْ إلى القدسِ

لكنَّ الدروبَ جميعُها

تُفضي إلى روما، لا فرقَ، تُفضي إلى أورشليم!!

جريدة الرأي ـــ 6/1/ 1993

---

[1] رشيد الدين سنان زعيم الحشاشين في بلاد الشام في القرن الثاني عشر الميلادي، حاول أتباعه إغتيال صلاح الدين، مرتين خلال عـامي 1975 و 1176، وكـان صلاح الدين ينجو كل مرة بأعجوبة.

الجنرال والزعيم

ثلاث مقطوعات عن حرب اسرائيل في لبنان

الجنرال:

ذئبٌ يُشبهُ الإنسانْ

فيه من الثورِ الجثةُ والحمقُ

ومن الطاووسِ الإنتفاخُ

ومن هتلرَ الملامحُ والمصيرْ

يَحمِلُ على صدرهِ وسامَ قابيل

وعلى كتفيهِ رداءَ "بن نون"[1]

يقفُ عندَ اقدامِ بيروت

الموصَدَةِ بالرعبِ والموتِ

ينتظرُ نهايتَهُ الصاعقةْ

الدستور ـــ 1982/7/2

---

[1] إشارة إلى يوشع بن نون القائد العبري الذي استباح اريحا قتلاً وحرقاً.

مناحيم بيغن:

يقولون أنّ اسمَهُ "مناحيم"

ولكنّه منذُ نعومةِ اظفاره

ظلَّ يعتقدُ انَّ اسمَهُ "أدولف"

في زمن الكنغ ديفيد ودير ياسين

كان يقودُ عصابةً صغيرةً اسمها "الأرغون"

في زمن الكنغ ديفيد ودير ياسين

كان يقودُ عصابةً صغيرةً اسمها "الأرغون"

وفي زمن الكامب ديفيد وصبراً وشاتيلا

أصبح يقود عصابةً كبيرةً

تُسمّي نفسها "دولة اسرائيل"

عصابةٌ هي الدولةُ التي

دستورُها الإرهابْ

حدودُها الإرهابْ

تاريخُها إغتصابٌ يجيءُ باغتصابْ

راياتُها الدمارُ والخرابْ

عصابةٌ هي الدولةُ التي تحاربُ الحياة

وتذبحُ الأطفال

مَنْ يزرعُ الدماءَ والجريمة

لا بُدَّ من أن يحصد الخراب

لا بد من أن يَحْصُدَ الهزيمةْ

الدستور ـــ 1982/9/24

أطفال المخيم:

أطفالُ العالم

يَحْملونُ في أيديهِمُ الهدايا

الألعابَ والحلوى والملابسَ الجديدة

يَفْرحونَ في الأعياد

ينامونَ في الغرفِ الفسيحةِ

ذاتِ المرايا والجدرانِ المزيّنةِ بالصورِ

والفِراشِ الوثيرْ

أمّا أنتمْ

فتقفونَ على شوارعِ الطرقاتِ

وفي الأزقةِ المعتمةِ

في أيديكم الآر بي جي

بانتظارِ دباباتِ الغزاةِ

الدستور ــــ 1982/7/2

الثلج

هُوَ الثلجُ يبعثُ فينا الاسى، والضجرْ

يؤجّجُ في المفرداتِ طريّ َالشجونِ

ويبعثُ من حزنِ هابيلَ ما قد غبرْ

هو الثلجُ: هَلْ صُدفةً ان يجيءَ

ونيرونُ روما[1] يواصلَ قرعَ الطبول

وذبحَ الطفولةِ والياسمينْ

وعُبدانُ روما كلابٌ تهِرُّ

تُلوّحُ للسادةِ القاتلينْ

ولكنَّ بغدادَ تمضي إلى الشمسِ

تزرعُ في الشطِّ ازهارَها

على نَخْلةٍ في اقاصي الجنوبِ تُعلِّقَ اقمارَها

* * *

---

(1) إشارة إلى جورج بوش واستمرار الحصار على العراق والتهديد باعادة شن الحرب عليه.

هو الثلجُ يعبرُنا كالرصاصِ

يَقضُّ المضاجعَ

يَغتالُ منا لذيذَ الوسنْ

هو الثلجُ نَحْمِلُهُ كالكفنْ

هو الثلج حين يَحطُّ على الآخرين

يكونُ حياةً ودفئاً وخُبزاً وملحاً

وحينَ يَحطُّ على صدْرِ هذا الوطن

يكونُ وبالاً وبَرْداً وجوعاً وجُرحاً؟

جريدة الرأي ـــ 1992/2/14

للحزن ذاكرة ولللياسمين

للحزنِ ذاكرةٌ

للياسمين ارتعاشُ الحجارةِ

في أرضِ كنعانَ

إذْ تغْسلُ الأرضَ حِنْطتَها من لُغاتِ الفاتحينْ

للحزنِ في أرضِ كنعانَ

لونُ الطفولةِ

تَمشّي إلى الموتِ واثقةً مِنْ خُطاها

للحزنِ لونُ الضفائرِ

لونُ الصبايا

يُغادرنَ أبِريلَ من قَبْلِ أبريلَ

يَهْجُرنَ دفءَ الرعشةِ الأولى

إلى وَجعِ الرحيلْ

للحزنِ أغنيةُ الصغارْ

إذْ يكتُبونَ على حجرِ الروحِ اسماءَهم

واسماءً كلِّ الجبالِ

وكلِّ السهولِ

وكُلِّ المُدنْ

واسماءَ كلِّ البلادِ التي غادَرتْها السماءْ

للحزنِ في أرضِ كنعانَ

ليلُ المخادِعِ

ليلُ النساءِ اللواتي نَسَجْنَ الدهرَ

دَهرْاً من الانتظارْ

للحزنِ هذا النهارْ

وهذا النشيدُ مِنَ الارضِ والأنبياءْ

للحزنِ هذا الفضاءْ

مِنَ السرو والسنديانْ

للحزنِ هذا اليمامْ

يمشي على الدّربِ نحوَ النهايةِ

يَفْتحُ في دَمِهِ كُوّةً للسلامْ

للحزنِ في أرضِ كنعانَ

كُلُّ الفصولِ

كُلُّ البداياتِ، كُلُّ الختامْ

للحزنِ نَرجِسةُ للسكوتِ

للحزنِ نَرجسِةُ الكلامْ

أيُّها الحزنْ

يا هذا الغراب الدائمُ النعيبْ

فيمَ اخترتَ ان تكونَ رفيقنَا الأبدي

كأنّك اللعنةُ الخالدة

التي حلّت باليهودِ ذاتَ يومٍ

أيها الحزنُ، الوجعُ، الموتُ

ما الذي قارفَهُ الفلسطيني

لتكونَ رفيقَهُ الدائمَ

توأمَهُ المنحوسُ

مِنْ أي ليلٍ جئتَ أيها الحزنُ

لِتُعفّرَ أيامنا بكلِ هذا الظلام؟!

إلى زهرة عمر

ماذا تبقّى غيرُ هذا الحزنِ

يَشْربُ أيامنَا

كفلولِ الجيوشِ التي تُرتَدُّ

مثخنةً بالهزائمِ والجراح

ماذا تبقّى، يا رفاقُ، من الصباحْ

غيرُ هذا الليلِ والحلمِ المستباحْ

ماذا تَبقّى للطفولةِ والنساءِ المتعباتِ

من انتظارِ الياسمينْ

غيرُ هذا الوحلِ والصمتِ

والافق الحزينِ



كتاب القلب

أحزان رجل وحيد

دعي النيرانَ تخبو في هذه المدفأةِ

وليهبطِ الظلامُ والصقيعْ

فكلُ البراكين التي ثارت أو لم تَثُرْ

تَظّلُ عاجزةً، مهما اشتدَّ أوارها:

عن اذابةِ جبالِ الجليدِ

الجاثمةِ فوقَ قلبكِ الشقي

* * *

ها هي قطتُكِ المترفةُ سحابةٌ من الدفءْ

تتكومُ فوق ركنٍ من فراشك الوثيرْ

وها هي السنةُ النيرانِ ما تزالْ

تُطِلُّ برأسها من عيونِ المدفأة

بينما أشياؤك الغاليةُ المسفوحةُ

تستلقي ذاهلةً فوق المناضدْ

أما قلبُكِ الحجريُ

فسيظلُ ينتظرُ وحيداً

الى أين تقودني عيناك

يا امرأةً صدرُها نوافذُ للحزنِ والشتاءْ

وجدائلُها أشجارُ صنوبرٍ فضي

ها قد وصلنا معاً إلى نهايةِ الطريق

والعسسُ الليليُ يشرئبُ بقاماتهِ الحديدية

وعيونُهُ الشمعيةُ المُطفأة البريقْ

تنتصب أمامنا كالأبوابِ الموصدةِ

* * *

ذات يومٍ

حينَ كان العالمُ سيفاً مشرعاً

كان وجهُك بطاقتي

جوازَ سفري

وجهُك الذي كانَ ناصعاً كبريق الذاكرة

كحقولِ القمحِ وكرومِ الزيتون

على سفوحِ جلعادْ

دمي مباحٌ لكم

يا أيها العَسسُ الليلي

في هذا العالمِ المزروعِ بالعسسِ وحواجزِ الطريق

دمي مباحٌ لكم

فلقد أَضعتُ بطاقتي

حينَ أصبحَ قلبٌ من أحبُّها

مقبرةٌ تضيعُ فيها المسافاتُ

وتعربدُ في أرجائها البومُ والعناكبُ السوداء

* * *

ها انني أبكي وحيداً

كعصفصافةٍ هرمةٍ على قارعةِ الطريقْ

أَستحلفكنَّ بالله

يا نساءَ العالمِ الثالث

ان ترخينَ شعوركنَ المغسولةَ بالشمس

فوق جذوعِ قلبي العاريةِ

ان تذرفنَّ دمعةً أسىً جارحة

لعلها تمسحُ بعضاً

من أحزانِ قلبي الرمادية

* * *

دَعي النيرانَ تخبو في هذهِ المدفأة

يا امرأةً شاخَ في قلبها الزمنْ

دعيها...

ليُزمجرِ الصقيعُ والجنونُ

فالدفءُ المزيفُ...

لن يشعلَ النارَ في العروق المطفأةْ

إفتحي كلَّ الستائر

ولتصهلِ الرياحُ في أرجائنا المعفّرة

بالدموعِ والغبارِ

والجرائدِ المصفرةِ العتيقةْ

* * *

يا امرأةً ينامُ في عيونها الشتاءْ

أبعدي عني

هذه اليدَ الممتدةَ الي

كأنها الأطرافُ الاصطناعية

خذيها.. كُلَّ أشيائِك الحريريةِ الباردةِ

فقلبُك المسكونُ بالوساوسِ القديمةِ

ما زال معدناً صدئاً

لم يصنع السَّيافُ منه بَعدُ

رمحاً أو رصاصةً أو صليباً

* * *

دعي النيران تخبو في هذه المدفأة

ولتأكلِ الصحراءُ تلك الأماني الكاذبة

وليأخذِ الخريفُ أشياءَنا المسجّاةِ

كالجثثْ

ليأخذ الهباءُ كلَّ أشيائنا

قهوةَ المساء

نعناعةَ الشاي في الكؤوسِ المفرغةِ

أعقابَ السجاير التي احترقت

دونَ أن تُلامسَ الشفاهْ

وهذه الاكوامُ المتداعيةُ مِنَ الكتبِ

العابقةِ بالضجيجِ الفارغِ

فراشنا المهجور من قرونْ

في الحجرةِ التي يَلفُّها المدى المجروحُ والرياح

تحولات

(1)

ذاتَ مساءْ

والقحطُ الأسودُ يلعقُ مثلَ كلابٍ جائعةٍ مسعورةْ قلبـــي المتهـــدمَ، قلبـــي المحترقَ كجدرانٍ المدنِ المهجورةْ إذْ غادرها الجندُ باعلامِهِمُ الـــشاحبةِ المكسورةِ ذاتَ مساءْ،

كنتُ وحيداً – كالفزّاعَةِ – في حقلِ الذرةِ الذاوي كنتُ وحيـــداً كـــشواهدِ مقبرةٍ الغرباء

ذاتَ مساءْ،

حَطَّتْ كالدوريِ الهاربِ، كالزهرةِ

كالمطرِ الأخضرِ، كالأطفال

فوقَ جذوعِ القلبِ اليابسةِ الجرداءْ

فكان شتاءٌ

كانَ شتاءْ.

(2)

وجلسنا حولَ الطاولةِ الثرثارةِ في مقهى

"الأطيار المأسورةِ"

مقهى العتباتِ الزائفةِ الصفراءْ
نَعلِّكُ ما يدعوه الجدّيونَ السذجُ أسراراً
لَونّا الورقَ الأبيضَ، قلنا كلَ الأشياء
عنِ المدنِ الصامتةِ الخرساء
عن المجهولِ عن الأسفارْ
وتحدثنا عن أشواق عبورِ الأنهارْ
عن أمواج الشطانِ، عن الابحارْ
ونبشتُ القلبَ، غسلت القُلبَ، عصرتُ القلبَ وقالت كُلُ جوارحنا للجدبِ الموحشي، للصمتِ القاتلِ
للأحزانِ:
وداعاً! يا كلَّ الجوعِ، ويا كُلَّ الحرمانِ
ويا كُلَّ عذابَ الفقراءْ

(3)

وتَجيءُ الريحُ جراداً يَدْهَمْ كُلَّ شوارعِ كل حدائق
هذا القلبْ،
إعصاراً يأكلُ نسغَ عروق ألقمرِ المورق
يَستلُّ من الأعماق بذورَ الفرحِ الأخضرِكِ
يا تُعْسَ الفرحِ المقتولِ على قارعةِ الدربِ
حينُ يَعودُ البومُ يُفرّخُ والوطواطُ

يعشش فوقَ فروعِ القلبْ

ليعودُ الليلُ، يعودَ الجدبُ؟؟

(4)

القلبُ أقسمَ أن يتوبْ

ومواسمُ الحبِ المزيفِ تحتَ أشجارِ الطريق

تناثرت مِزَقاً، تَحطَّم طُهرُها المزعومُ

في كل الدروبْ

(5)

فَعَلامَ يا وطنَ التعاسةِ يستبدُ بيَّ الحنينُ

اليك يَقْتُلُني الحنين؟

وعَلامَ يا مَنْ يُستباحُ معِ المساءِ مع الظهيرةِ

كُلَّ شيءٍ في حماها تهربين؟

هلَ كُنتُ الا أحمقَ الخطواتِ، أركضُ عبرَ أكوامِ الظلامِ، أُعانقُ الكذبَ الملطّخَ أرتمي بين الوحول.

ما كنتُ الا طائشَ الحلمِ، مجنوناً

أُسافرُ عبرَ...

أوجاعِ المحطاتِ العتيقةِ

مثلَّ بحارٍ عتيق!

قد هَدَهُ الترحالُ، جوعُ البحرِ والألمُ الممضُ، وضيعةُ الميناءِ، والحوتُ

الأكولْ

مَنْ أنتِ؟

بئرَ تعاسةَ عبرتْ بقلبي

مثلَ أحذيةِ الغزاةِ الهالكين!

تتلمظينَ الليلَ عاشقةً، ومع الصباحِ تُحطّمينَ

زنابقَ العشق الوليد!

يا طعنةَ العمرِ، هل في العمرِ ما يَسَعُ المزيدْ؟

(6)

قلبي تُمزّقُهُ المدائنُ، والرياحُ

تدوسُهُ الأقدامُ، تحرُثهُ سياطُ الجوعِ

والقهرِ والموتِ المعتّق والجراحْ

(7)

قلبي تُمزّقُهُ المدائنُ، والرياحُ

تدوسُهُ الأقدامُ، تحرُثُه سياطُ الجوعِ

والقهرِ والموتِ المعتّق والجراحْ

(8)

الليلةَ أكتبُ عن أرضٍ عاقرَ جدباءْ

الليلةَ أسفحُ كُلَّ الدمعِ

وأحرقُ كُلَّ الأشياءْ

اللّيلةَ ألعنُ ذاكَ الوجهَ العاثرَ

ذاكَ الوجهَ الكافرَ

تلكَ ألآمالَ البلهاءْ

الليلةَ يا وطنَ الجرحِ الأسودِ،

يا مُدُنَ الأشلاءِ السوداءْ

ماتَ الدوريُ، وجَفَّ الأملُ النامي فوقَ

مصاطبِ هذا القلبِ

الليلةَ تذوي كُلُّ الأغصانِ الخضراء

تنوحُ الزنبقةَ الطالعةُ على الاشلاءْ

ما عاد لهذا القلبِ المهجورِ شتاءْ

ما عاد شتاء.

خطوتان

على بَابكِ الموصدِ الحجري يضيعُ البكاء

يموتُ التوسلُ

يَنْهَدُّ حَيْلُ الرجاءْ

وينفلقُ القلبُ، ينحسرُ الدمعُ

ما ظَلَّ في مقلتيَّ دموعْ

تظلُ قوافلُ هذا الزمانِ الفظيعْ

على بابكِ الوثنيِ تنوءُ

بأحمالها العاثراتِ تقولُ:

افتحي يا كنوزَ الزمانِ العتيق افتحي

فقدَ آنَ بعدَ انحباسِ الربيعِ الطويلِ

وجوعِ الفصولِ الرديئةِ

أن يحتوينا لقاء

* * *

يَظَلُّ الشوقُ في قلبي يُعربِدُ

يصهلُ، يورقُ حباً

ويحبو على دربها،

يا دربَها المزروعَ بالحذرِ المميتِ

وبالجنودِ الابقينَ، بكلِ شيطانٍ رجيم،

قلبي تطاردُهُ العقاربُ متقلاتٍ بالسموم

قلبي تحاصره الحرابُ الدامياتُ،

حوافِزُ المنفى الاثيمْ

فيم ارتحلتِ؟ عشَيةَ انتحرَ المساءُ

وسافرِ البجعُ الحزينْ

فيمَ ارتحلتِ وأنتِ ان عصفَ الجنونُ

بخاطرِ المنفيّ مرساهُ الامينْ!!

لماذا تَظْلُ الشرايينُ تحنو عليكِ

حنوَ النخيلِ على واحةٍ في القفار؟

لماذا تَظلّينَ نسغَ الحياةِ بقلبي

وانشودةَ العابرينَ الصغارْ؟

لماذا أظلُّ مع الليلِ أرقبُ

نبضَ المدينةِ، انحلُّ فيه

وأشعلُ قلبي زنابقَ نار؟

لماذا، تُمزّقُ صدري المنافي

ويقتلني الجوعُ والقهرُ

لكن أظلُّ مع الليلِ أرقبُ نبضَ المدينةِ

أصلّبُ عمري انتظارْ!!

تعودينَ خَلْفَكِ هذا الصباحْ

تعودينَ، مرخاةَ الضفائرِ

مثلَ حباتِ المطرْ

تعودينَ خَلْفَكِ كلُ المواجعِ، كلُ المذلةِ

كلُ الاسى والضجرْ

تعودينَ مثل اليمامِ ألمروّحِ يغسلُ

اعناقَهُ بالفرحْ

تعودينَ هذا الصباحْ

فتورقُ صحراءُ عمري الكئيبةُ

يَخْضَرُّ بالعشبِ قلبُ الجراحْ

تعودينَ يا فرحةَ العمرِ دافقةً كالرياح

تعودينَ هذا الصباحْ

بيني وبينكِ خطوتان

أموتُ بينهما، وأُسجنُ، أُلعنُ

يُقْطَعُ مني الوريدُ

على الشوكِ أُسْحَلُ، يَحتزُ رأسي الجنود

بيني وبينك خطوتان أَظلُ بينهما ألوبُ

اضاجعُ الصحراءَ مقطوعَ اللسان

بيني وبين تَوحُّدِ الاشياءِ بالاشياء

موتٌ وغابةُ رعبٍ وجوعُ زمانْ

بيني وبينك خطوتان!!

الوردة الحمراء

المعطفُ الليليُ

الوردةُ الحمراءْ

كانا اشارةُ اللقاءْ

دليل ضائعين يحلمانِ في المدى المجنون عن ضياء

* * *

في أولِ النهارِ جاءْ

مع الرياح جاءْ

وايقظَ الطيورَ من سباتها

وأيقظَ الاشياءْ

وملءُ قلبهِ انتظارُ أن تجيءَ

عيناهُ شُبّاكان مشرعانِ علّها تجيءْ

على الرصيفِ كان ضائعاً تجوسهُ العيون

يهدهدُ الدقائقَ الطوالَ:

مِنْ هنا تجيءْ

- لا

- ومِنْ هنا تجيءْ

- لا

- نَعم تجيءْ

في أولِ النهارِ

في آخرِ النهارِ غنوةً تفيضُ بالعطاءْ

تغتالُ كلَّ موسم ردئْ

على الرصيفِ ظَلَّ يسألُ الوجوهَ والعيونْ

ويَحسِبُ الدقائقَ العجاف فَي انتظارِ

موعدٍ مماطلٍ خؤون

وحينَ برْعَمَتْ من الشمالِ وردةٌ حمراء

تمايلت زنابقُ الرصيفْ

وأورقَ الاسفلتُ اغنياتْ

- ها أنتِ ذي!

قالت له: تراكَ مَنْ تكون؟

لم تَقُلْ جئتُ

رُبَّما: تَجئْ

في مطلعِ الربيع دونَ موعدٍ

تَجيئ

وزهرةٌ حمراءُ من بيسانَ

فوقَ صدرها الدفيء

وعادَ يذرعُ الدروبَ والصقيعَ سندبادْ

عيناه نجمتانِ ماتَ فيهما الضياءْ

يُعانقُ الرصيفَ مثقلَ الضلوعِ

ملءُ قلبهِ الرمادُ!!

امرأة

يا امرأةً يُشعِلُ ثلجُها

زنبقاتُ النرجسِ الوحشيِ في قلبي

ويوقظُ صمتُها في الروحِ

اسرابَ العطورِ

جحافلَ الذكرياتِ التي قد غفَتْ من زمانْ

ويبعثُ من بينِ هذا الحطامْ

بقايا رخامِ الطفولةِ

فِضَّةَ ايامها والنحاسْ

لعينيك المشرعتين

كمساءٍ شتائي

كبحرٍ من الخدَرِ المُميتِ

كغابةٍ من الحورِ والسنديانْ

لشعرِك هذا الكستنائيِ

المحترِقِ قليلاً كجذوعِ قلبي

رائحةُ الحقولِ المغسولةِ بالدمعْ

لصمتكِ هذا الحجري

طعمُ القسوةِ المجبولةِ بهجيرِ الاحزانْ

ايُّ جنونٍ يغتصبُ الحكمةَ في النفس

وَيحتَلُّ الوجدانْ

حينَ تُلامسُ عيناكِ تخومَ الروح

أيُّ ربيعٍ ينهضُ في سفحِ العمرِ

فتيّاً كالسوسنِ

مُشتعلاً كالبركانْ

كالعازر ينفضُ عن حبرِ الروحِ

بياضَ الاكفانْ

تلك الظهيرةُ

حين دلفنا إلى المطعم الغربي

كانت السماءُ نرجسةً من الصفاءِ والنعومةِ

وانت تخلعينَ معطَفَكِ الرمادي

وخلفَ القفصِ الزجاجي

كانت الاسماكُ الصغيرةُ الملونةُ

تتواصلُ في غناءٍ صامتٍ ومطاردةٍ حثيثةٍ

ها عيناك تجوبان فضاءً المكانْ

وتهبطانِ على الزوايا والنوافذِ

تتابعان ببرودٍ حيادي

هدوءَ رقصةِ الاسماك

وانحناءاتِ عشّاقٍ يتحدثونَ بهمسٍ

بينما تقرعُ صدري رياحُ الاسئلة

وتأخذُ اللهفةُ كلَّ المدى

في قلبيَ المتدفق بالحكاياتِ

عن العشاق الذين غادروا المدنَ

بحثاً عن الطرقاتِ العابقةِ

بالضبابِ والياسمينْ

ها نحن قريبانٍ حتى الجنونْ

وليس بيننا غيرُ هذهِ المنضدةِ

ورفوفٍ من العصافيرِ التي أضاعتْ صوتَها

ها نحنُ بعيدان حتى التلاشي

جدولان تاهَتْ عنهما المياهُ

وجملةٌ ضلّت الطريقَ إلى القلبِ

فلماذا تظلين هكذا مدججةً بالصمتِ والافتعال

يا امرأةً تتقنُ الحديثً عن كلِ شيءٍ

الا عن الحبِ والمواسمِ المترعةِ بالاغنياتِ

وتشابكِ الايدي المفعمِ بالدفءِ

والاقترابِ الهمجي

عيناكِ الشاردتانِ كحمامتين مذعورتينْ

عبرتا كلَ الانحاءِ

مفارقَ الطرق والشاراتِ الضوئيةْ

الوجوهَ القديمةَ أو الطارئةَ

العيونَ ذات الملمسِ الحديديْ

ولكنهما لم تتوقفا ولو للحظةٍ

اما عينيّ

ها قد شربنا ثمالةَ الفراق

وفناجين القهوةِ المرة والاحزانْ

وخلفنا ظَلَّ المطعمُ الغربيُ يغفو باكتئاب

ملَفَّعَاً بالوحشة ورصاصِ الخيبةِ

اما السماءُ فقد كانت مشدودةً كالتورْ

حين بدأت العاصفة تأخذُ بخناق الاشياءْ

ولكنَّ شيئاً ما ظلَّ يحجبُ المطرْ.

سُدىً يا صديقْ

سُدىً كلُ هذا اللهاثِ الحميمِ

وهذا الحريقْ

سُدىً كلُ هذا الضجيجِ، هراءْ

تُحاولُ أن تزرعُ الحبَ في شرفاتِ المساءْ

سُدىً ما تحاولُ

إن القلوبْ

هذي التي قد عرفتَ

خرائبُ أو منزلٌ للجحيمْ

ليلٌ يُسيّجهُ الهشيمْ

هي تزدري الحبَ، لا تحفظُ الودَّ

لا تختفي بالأنبياءْ!!

سُدىً ما تحاولُ

فالأصدقاءْ

مقابرُ تَخلَعُ أمواتها الميتينَ

وترفضُ أحياءها القادمين

سُدىً ما تحاولُ

إن الوفاءْ

هَذْرٌ يُوزعُ في المخادعِ، في الرسائلِ

أو دموعٌ كاذباتٌ

تَظلُّ تراقُ على عتباتِ الطريقْ

سُدىً كلُ هذا، هباءْ

لأنَّ البيوتَ التي غادرتْ ساكنيها

هي الأصدقاء!!

سُدىً ما تحاولُ يا صديقْ

فالأصدقاءُ الأصدقاءْ

حَفنّةٌ من غبارْ

ثرثراتٌ تُطِلّ على القلبِ

في موهنِ الليلِ

ومن ثَمَّ تمضي قُبيل انبلاجِ النهارْ

الصدى واللقاء

-1-

لماذا تجيئينَ في الليلِ

حُلْماً يُؤرّقُ

يبعثُ في الرُدُهاتِ،

وفي غرفةِ النومِ، فوقَ المقاعدِ

اطيافَ ماضٍ سحيقْ

يَرِفُّ على القلبِ

وكنتُ أُخبّئُ حزني

ووحشةَ قلبي

وغربةَ روحي

ورعبَ الضياعِ المدمّرِ عبرَ المحطاتِ

في آخرِ الشمسِ

كانَ الرحيلُ الخريفيُ حزناً ومنفى

وشوقاً مع الظلِ يمتدُّ

يخطو معي

هناكَ التقينا

وكنتِ تمورينَ شوقاً قديماً ولهفةْ

ايا زهرةً يَبِستْ من ظمأْ

وقلباً يُمزِّقُهُ الدمعُ

تذروهُ هذي السياطْ

ألم تعلمي أنَّ قلبيَّ يخبو

وحيداً كجمرة

كعصفورةٍ من دخان.

ماشا

أيتها المرأةُ المفعَمةُ بالضجرِ والغموضِ

والتَزمتِ الوحشي

أبعدي عني هاتينِ العينين

فإنَّ لبريقهما طعمَ الجوعِ

وأحزانَ اللوعةِ

ماشا

يا امرأةً توقظُ في غاباتِ الروحِ

عصافيرَ الحبِ

وتُسرِجُ في الجسدِ المتعبِ

أحصنةَ الشبقِ البرّي

أبعدي عني هذا الوهجَ الفيروزي

هذا الخنجرَ اللامعَ كالموتِ المجّانيَ

في الشوارعِ الخلفيةِ

حيثُ أشجارُ الصفصاف تَشلَحُ اوراقها

لم تكن خُطانا قد انتظمت بعدُ

حينَ هَمَسَتْ ماشا

لا تَقُلْ إنَّهُ الخريفُ

ولكنْ قُلْ:

انه الموسمُ يفتحُ ذراعيه

ويقرعُ الأبوابَ الموصدةْ

قُلتُ: حقاً

ورفّت في القلبِ عصافيرُ الفرح

موسكو ـــ 23 أيلول 1984



صدر للمؤلف:

1- مقهى الباشورة. قصص. وزارة الثقافة والارشاد القومي. دمشق. 1975 (ثلاث طبعات).

2- زمن الاحتلال. دراسات نقدية. اتحاد الكتاب العرب. دمشق 1979.

3- مختارات من الشعر الفلسطيني في الارض المحتلة. دراسة نقدية. دائرة الاعلام والثقافة. م. ت. ف. بيروت 1982.

4- الارض والعنقاء. مقالات سياسية. رابطة الكتاب الاردنيين عمان 1982.

5- احادث الغزاة. وثائق عن الحرب الاسرائيلية في لبنان. منشورات كاظمة. الكويت. 1982 (ست طبعات).

6- اطفال الار. بي. جي. وثائق عن الحرب الاسرائيلية في لبنان. دار الكرمل للنشر والتوزيع. عمان. 1983.

7- زائر المساء. قصص. دار الكرمل للنشر والتوزيع. عمان 1985.

8- حرب الثمانين يوماً في الشعر الاسرائيلي. دراسة نقدية. دار الكرمل للنشر والتوزيع. عمان 1985.

9- الفلسطينيون: التهجير القسري والرعاية الاجتماعية. دراسة دار الكرمل للنشر والتوزيع. عمان. 1986.

10- للحزن ذاكرة ولللياسمين. نصوص. دار الكرمل للنشر والتوزيع عمان. 1994.

11- ثلاثة أصوات: مجموعة قصصية مشتركة مع فخري قعـوار وبدر عبد الحق، عمان 1972 – نفدت.

12- مطر آخر الليل، دار الكرمل، عمان، 2003.

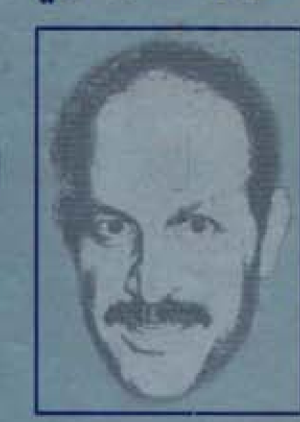
13- تحولات سلمان التايه، دار الكرمل، عمان، ط1، 1996.



محتوى الكتاب



خليل السواحري



الأعمال الإبداعية الكاملة

تهتم الأمم الحية بمبدعيها من الكتاب، والشعراء، والنقاد، والفنانين، الأحياء، منهم والراحلين، لأن ما يتركونه من الأعمال الأدبية، والفنية، الأصلية والمبتكرة، يضاف إلى تراثها فيغنيه، ويعلي من شأنه، ويشد أزره، ويسدي للقراء، والمتعلمين، والدارسين، الكثير من النفع، بقراءته، ومطالعته، ودراسة ما فيه من مقومات التفوق، والاستحسان.

والسواحري، الذي فارقنا - للأسف - قبل عامين، ترك لنا ما هو فائق في القصة، والنصوص النثرية التي تقارب الشعر، شكلاً وفحوى. وهذا الكتاب الجامع يضم أعماله القصصية، ونصوصه النثرية، مما يمثل نتاجه الإبداعي المنشور منذ العام ١٩٦٥ حتى رحيله في العاشر من آب عام ٢٠٠٦ مع مقدمة لطيفة للدكتور خليل الشيخ.

فالشكر الجزيل له، والتقدير الكبير لأمانة عمان، والدائرة الثقافية فيها، لما أبدياه من حرص شديد على رعاية الآداب، وتكريم المبدعين.

د. إبراهيم خليل
قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب - الجامعة الأردنية